

أحلام اليقظة

تأليف

دكتور جورج هنري جرين

ماجستير في الآداب. دكتوراه في الفلسفة

أستاذ علم النفس

بمعهد التربية العالي للمعلمين بإسكندرية

ترجمة

إبراهيم حافظ

دبلوم معهد التربية. درجة الشرف في الفلسفة

(جامعة لندن)

مدرس الفلسفة والترجمة بالمعلمين العليا

راجعته

زكي المهندسي بك

العيد السابق لكلية دارالعلوم

وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

الطبعة الأولى

الناشر

لمنعة البيان العربي

مطبعة لجنة البيان العربي

في شارع مصطفى باشا كمال - القاهرة

الفصل الأول

مَقْدَمُهُ

حلم اليقظة من الظواهر المألوفة لنا جميعاً . وقد عُرف أمره منذ سنوات طويلة ، كما يدل على ذلك كثير من التعبيرات الشائعة في بعض اللغات مثل قولنا في العربية « لقد كنا فيما تمنيناه نخط على الماء ونبنى قصوراً في الهواء » . وكثيراً ما يسجل الذين يكتبون تراجم حياتهم بأنفسهم عدداً من أحلام اليقظة التي كانت تراود خيالهم في طفولتهم ، وإن كان ينذر أن يدرك أحدهم ما تنطوي عليه تلك الأحلام من دلالات .

وهذه الجملة الأخيرة تعبر عن موضوع البحث في هذا الكتاب . فقد افترضنا فيها أن لأحلام اليقظة مدلولات خاصة . وإذا كان هذا القول صحيحاً ، فإن علينا أن نحاول الكشف عن تلك المدلولات ، وتحديدتها في صورة وظيفية ، أكثر من التعبير عنها في مبادئ وصفية . أو بعبارة أخرى علينا أن نحاول معرفة الدور الذي تلعبه أحلام اليقظة في حياة الفرد ، وأن نبحث عن الوسائل التي تعيننا على استغلالها استغلالاً ناجحاً بقدر الإمكان في الوصول بالفرد إلى أكمل درجة من النمو المتزن .

ويمكن القول بصفة عامة بأن كل من لاحظ تكرار حدوث أحلام اليقظة ، سواء في نفسه أو في غيره من الناس ، يميل إلى الحديث عنها في استخفاف مشوب بالسخرية . ومن الأفاصيص المشهورة ، قصة بائعة البيض التي ذهبت يوماً من الأيام إلى السوق تحمل سلة البيض على رأسها . وبينما هي سائرة في الطريق ،

أخذت تفكر في الثمن الذي سوف تحصل عليه من بيع البيض ، وكيف أن ذلك المال سيعينها على شراء أفراخ صغيرة تقوم بتربيتها في بيتها لتبيعها فيما بعد ، وعندئذ سوف يتيسر لها قدر من المال تستطيع به أن تكرر عملية شراء الأفراخ وتربيتها وبيعها إلى أن تصبح ميسورة الحال . . . وهكذا استمرت الفتاة في وضع الخطط ، فهي سوف تقتنى الفاخر من الثياب ، مما يجعل أولئك الذين كانوا من قبل يزدرون بائعة البيض المسكينة ، يحاولون الآن جاهدين أن يتقربوا إلى تلك السيدة الأنيقة . وبذلك يكون قد حان الوقت الذي تنتقم فيه لنفسها منهم لمعاملتهم المهينة السابقة ، فإنها سوف تهزلهم رأسها ، وتشيح غيهم بوجهها إذا ما ألقوا عليها التحية . . . وعندما وصل التفكير بالفتاة إلى هذه النقطة كانت قد نسيت تماماً ذلك العالم الواقعي القائم حولها ، وأصبحت تحيا في ذلك الجو الذي ابتكره خيالها . لذلك هزت رأسها ، فسقطت السلة على الأرض ، وتحطم البيض ، وتناثر على قارعة الطريق . وهكذا تبخرت آمالها في الهواء .

إن هذه القصة ليست مثالا جيدا لنوع من أنواع أحلام اليقظة لحسب ، وإنما هي أيضاً تعبير واضح عن اتجاه مألوف نحو أحلام اليقظة وحدوثها . فبائعة البيض تعتبر فتاة حمقاء قد تجردت من النزعة العملية . وقد كانت تحسن صنعا لو أنها احتفظت بصفاء ذهنها ، بدلا من أن تسبح في عالم الخيال والأوهام . وترى القصة إلى تحذير الناس من شرود الذهن ، وتنبيه الصغار إلى سوء النتائج التي تترتب على التفكير في أمور خارجية في الوقت الذي ينبغي لهم فيه أن يكرسوا كل انتباههم لمدرسيهم وكتبهم . كذلك يُقصد بها لفت نظر الصناع إلى ضرر انصراف فكرهم عن الآلات التي يُعهد إليهم بالإشراف على إدارتها ومراقبة سيرها ، وتذكير غيرهم من الناس بما قد يحدث بينهم من صدام على أفاريز الطرقات عندما يغفلون عن مواطئ أقدامهم ، أو ينصرفون عن التفكير في الوجهة التي يقصدونها بسبب انشغال أذهانهم بأمور أخرى . فالقصة إجمالا موجهة إلى

جميع أولئك الذين يتركون عقولهم تهيم في آفاق تبعد عن محيط الأعمال التي بين أيديهم .

ومن الناس من ينكر أن أحلام اليقظة تنتابه إذا ما سئل في ذلك . ويفخر بأنه من ذوى النزعة العملية ، وأنه منشغل دوماً بشئونه وأعماله عن كل ما عداها . ويرى في انطلاق الخيال ، وأحلام اليقظة أموراً حقيقية بالزراية فثله في ذلك مثل إخوة يوسف عندما سخرُوا من أحلام أخيه ، ومع ذلك فإن يوسف ، دون إخوته ، هو الذى وصل إلى قمة المجد . ولولا عمق استبصار الحالمين من الأفراد ذوى الخيال الخصب لمات جوعاً أولئك الذين كرسوا كل جهودهم العقلية لأعمالهم . وليس المثال الذى أوردناه فريداً في بابه ، فإن التاريخ حافل بحالات كثيرة مماثلة ، إذ كثيراً ما كانت جلائل الأعمال تتم على أيدي أناس امتازوا بسعة الخيال وخصوبته . ونحن وإن لم نستطع تقدير الدور الذى لعبته أحلام اليقظة في عصور التاريخ ، لا يسعنا إنكار عظم ذلك الدور وأهميته .

إن في وسعنا أن نعترف بذلك دون أن نقصد من ورائه القول بأن أحلام اليقظة تكون دوماً ذات قيمة ، أو أن ننادى بضرورة تشجيع الاستسلام لها . ولا نغنى أن شرود الذهن يفوق في الأهمية انتباهنا لما قد يكون أمامنا من أعمال . فنحن نرى في المدارس مثلاً أن ساعات بأكملها تضيع سدى من وقت التلاميذ والمدرسين على السواء بسبب المراجعات الكثيرة التى كان من الممكن الاستغناء عنها لو أن التلاميذ قد ركزوا انتباههم فيما يُلقى عليهم من دروس . كذلك يضيع جزء كبير من الوقت في شتى الأعمال بسبب عدم الانتباه الجدى إلى التعليمات الضرورية لممارستها وإتقانها ، كما يتكرر في المصانع وقوع الحوادث التى تؤدى إلى تلف الآلات ، وضياح الأرواح والمنتجات ، وذلك بسبب غفلة العمال عن التفكير فيما هم مكلفون به من أعمال . لذلك فإننا إذا كان في وسعنا أن ندلل على أن حلم اليقظة شيء مفيد لأنه كان السبب في كثير من المخترعات والاستكشافات ،

فلا بد أن نذكر بجانب هذا أن فيه أضراراً ، فإن كثيراً من حوادث القطارات مثلاً قد ترجع إلى شرود ذهن أحد عمال القاطرة .

يبدو إذن ، أو تلك هي الحقيقة في أغلب الحالات ، أن مسألة النفع أو الضرر لا تتصل بحلم اليقظة نفسه ، بل بكيفية استخدامه . وهذا يثير على الفور مشاكل عدّة . إذ قد يتساءل البعض عما إذا كان من المستطاع استغلال حلم اليقظة في خدمة بعض الأغراض النافعة في الحياة . ويمكن القول إجمالاً إن ذلك ممكن ، إذ لا يحتمل أن نشاطاً من هذا النوع ، يحدث لجميع الناس ، لا يكون ذا نفع بيولوجي أياً كان . ومع ذلك فهناك ثغرة واسعة تفصل بين الاعتراف بنفع شيء ما ، وبين معرفة وسيلة استخدامه . ومثل هذه الثغرة لا يتسنى رتقها إلا عن طريق المعرفة الواسعة العميقة .

فالقول بأن أحلام اليقظة عند الصغار قد تكون مصدراً للمعرفة التي تساعدنا على إرشادهم إلى العمل المنتج ، والإشباع الضروري في حياتهم ، هذا القول لا يعنى بالضرورة أن نعتقد بأن واجبنا ينحصر فقط في توجيه جهودنا إلى الإشباع المباشر للعناصر الظاهرة في حلم اليقظة . فإذا رأى الصغير في حلم اليقظة أنه شرطى أو رجل من رجال الحريق مثلاً ، فهل ذلك يعنى بالضرورة أنه لابد حاصل على النجاح والسعادة ، إذا ما تسنى له في المستقبل أن يكون شرطياً أو أحد رجال إطفاء الحريق ؟ لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً ، ولكن الشيء الأكثر احتمالاً هو أن الطفل ينشد من الحياة أكثر مما هو ميسور له فعلاً ، ويعتقد أنه سوف يحصل على ما يشتهى من إشباع إذا قام بالعمل الذي صور له خياله أن رجل الشرطة ، أو رجل الحريق ، يؤديه . وإذا والينا البحث بدقة رأينا على الفور كيف أن الصور الذهنية عن الشرطة ورجال المطافئ تباعد عن الحقيقة كثيراً . وينطبق ذلك على آلاف من الناس الذين يتخيلون أنفسهم في أحلام يقظتهم في صور كواكب السينما ، أو مغنيات الأوبرا ، أو المستكشفين ،

أو الساسة ، أو القادة الحريين ، أو غيرهم من الشخصيات الممتازة . ولا يقتصر الأمر على أنهم يفشلون فشلاً ذريعاً إذا هم شغلوا فعلاً تلك المراكز الرفيعة ، بل إنهم كذلك لن يجدوا في حقيقتها ذلك الإشباع الذي كانوا يشتهونه لتلك الرغبات التي تعبر أحلام اليقظة عنها بشكل غير مباشر . فلا ينبغي أن يُنظر إلى حلم اليقظة على أنه تعبير حرفي عن حاجة من الحاجات ، بل إنه ليس أكثر من مجرد قرينة قد تعيننا ، مع الدربة والصبر ، على تشخيص وجوه النقص التي يحتاج الحالم إلى إكمالها ، وترشدنا إلى الوسائل التي يمكن بها أن نساعد من الناحية التربوية .

إن المدرسين وغيرهم من المشتغلين بالتربية يشعرون باستسلام الأطفال كثيراً لأحلام اليقظة في الأوقات التي يجب عليهم فيها الانتباه إلى دروسهم وهم يعلمون أن عقول الأطفال لا بد أن تسبح في آفاق الخيال ، مبتعدة عن الواجبات التي يكون عليهم أداؤها في وقت من الأوقات ، ما داموا غير منشغلين بأداء عمل يستحوذ على جميع اهتمامهم . فعندما يلقي المدرس على بعض صفار التلاميذ درساً ، فكثيراً ما يكون انتباههم مسدوداً إلى شيء آخر . ولهذا السبب يُطلب دائماً من المدرس الذي ما زال تحت التمرين أن يوالى إلقاء الأسئلة أثناء الدرس كي يضمن انتباه التلاميذ . ولكن تركيز الانتباه أمر عسير ، بينما يعتبر انطلاق العقل هائماً في أجواء الخيال من أسهل الأمور .

وقد يأخذ المدرس في الكلام عن الجبال التي تغطي قممها الثلوج ، قاصداً بذلك البدء في مناقشة يشترك فيها التلاميذ ، عن العلاقة بين الارتفاع والمناخ . غير أن ذكر « الثلوج » قد يذكّر أحد التلاميذ بالرجل الثلجي الذي ساهم في بنائه في الشتاء الماضي ... فيتذكر كرة الثلج الكبيرة التي صنعها ، ورمى بها غلاماً كان يهاجمه ، وكيف انفلت ذلك الغلام هارباً ... وهكذا ينطلق خياله فيرى مواقع قتال استخدمت فيها كرات كبيرة من الثلج ... وهنا يكون قد نسي

الدرس والمدرسة معاً . إذ تصبح هذه الخبرة التي أخذ في تصورها حقيقية في نظره ، فتتغير تعبيرات وجهه ، ويبدو عليه الحماس كما لو أنه كان يساهم فعلاً في معركة ثلجية . فهو يبتسم عندما يرى كراته تصيب الأطفال الذين يرميهم بها ، ويشعر أنه واقف فعلاً وسط الثلوج ، وأنه يؤدي جميع أنواع النشاط التي تمر بخياله ... فالخبرة لا تقل واقعية عن الواقع ذاته ، وهي لا تنتهي إلا عند ما يلحظ المدرس أن التلميذ غير منتبه إلى الدرس ، فيلقى عليه سؤالاً يعيده إلى حياة الواقع . وهناك فرق شاسع بين التفكير البسيط الآلي والتفكير المنطقي الذي ينتقل فيه الفرد تدريجاً وبصعوبة من المقدمات إلى النتائج . كما أن هناك فرقاً شاسعاً كذلك بين حياة الفرد في ثنايا حادث حافل بالمجهودات الناجحة وحياته في درس تكون كل محاولة فيه موسومة بالصعوبة ، ومؤدية غالباً إلى الشعور بالفشل والبلادة . لذلك لا يدهشنا أن تكثر أحلام اليقظة عند التلاميذ ، وعلى الأخص أولئك الذين تحول استعداداتهم وقدراتهم دون أن يصيبوا من النجاح قدراً يتناسب مع ما يبذلونه من مجهود .

وقد يكون مما يثير الدهشة أكثر من ذلك أن يتكرر حدوث أحلام اليقظة أثناء الامتحانات التي تعتبر من الحوادث الهامة في حياة الطالب . فوقت الطالب فيها محدود بساعات معدودات ، عليه أن يجيب أثناءها عن عدد من الأسئلة الصعبة ، وقد يتوقف مستقبله كله على تلك الإجابات ، كما أن أقل ما يحدث له إذا ما رسب في الامتحان أن يضطر للتقدم لنفس الامتحان في نهاية عام قد سقط من حساب حياته . ومع ذلك فإن المراقبين في الامتحانات الجامعية يعلمون تمام العلم أن الطلبة كثيراً ما يمسون عن الكتابة عند ما يعترضهم سؤال صعب ، ويبدو عليهم أنهم يحاولون حصر شتات ذهنهم لبضع دقائق ، ثم يتركون عقولهم تنطلق بعيداً عن المشكلة التي بين أيديهم . وفي مثل تلك الأوقات يظهر الاسترخاء التام على الطالب ، وتتغير تعبيرات وجهه ، ويدل مظهره على أنه قد نسي كل

ما يحيط به نسياناً تاماً ، كمرور الوقت ، وورق الإجابة ، وغرفة الامتحان ، وقد تنقضى عدة دقائق قبل أن ينتفض الطالب انتفاضة سريعة ، كشخص صحا فجأة من نومه ، ويعود إلى الامتحان ، مدركاً أنه قد أضاع من وقته الثمين بضع دقائق .

لذلك يبدو أن الأمر من جميع نواحيه يتلخص في أن الطالب قد أضاع وقته سدى . فهو قد شغل نفسه عن العمل الهام الذى أمامه ، ولم يستغل وقته في معالجة الأسئلة وإجابتها . وكلما ازداد حديثنا عما « لم » يعمل الطالب ، قوى ميلنا إلى أن استرساله في حلم اليقظة من الأمور التى تستلزم البحث والدراسة . ولذلك ينبغى أن نتكلم عما قام به فعلاً . فهو قد أحلّ مكان غرفة الامتحان وسطاً آخر أكثر ملاءمة ، تخلص فيه من زملائه الطلبة ، ومن المراقبين ، وأوراق الامتحان ، بأن أزاح ذلك جميعه من شعوره ونسيه ؛ أى أنه أبدل بعملية التفكير العميق المنطقي الصعبة نوعاً من التفكير البسيط الآلى الذى لا يحتاج إلى جهد . وبذلك يكون قد طرد الامتحان الذى لا يسره أمره ، وما يحيط به من توتر وقلق ، وأحلّ مكانه موقفاً يعتبر على الاجمال لذيذاً ساراً . ويعتبر هذا بلا شك عملاً رائعاً . ولا بد لنا من أن نقره ونستمسك به ، حتى مع اعترافنا في نفس الوقت بأنه قد يكون عقبة في سبيل امتحان ، أو قيادة سيارة ، أو إدارة آلة . وعلى الرغم من أن الذين ينظرون إلى النجاح في الامتحان ، أو قيادة السيارات ، وإدارة الآلات ، على أنها أعمال هامة ، يؤكدون أن أحلام اليقظة لا غناء فيها ولا فائدة منها ، غير أننا يحق لنا أن نتساءل تساؤلاً له ما يبرره عما إذا كانت تلك العملية العجيبة التى تؤدى إلى حلم اليقظة لا تقدم لنا في ظروف أخرى شيئاً له قيمته الكبرى في الحياة .

ومما يجدر بالذكر أن أولئك الذين لا يرضون عن حلم اليقظة يتحدثون دوماً عنه كما لو كان في وسع الفرد أن يقاوم الاسترسال فيه ، وأن يتخلص منه إذا أراد .

ولهذا ينادون بضرورة « التركيز » ، و « مسايرة الفكر للعمل » ، و « الانتباه » ، و « العودة إلى حياة الواقع » ، وغير ذلك ، إذ بتلك الوسائل يستطيع الفرد العادى عقد موازنة بين عالم الأحلام ، وعالم النشاط المألوف ، والتعبير عن يقينه بأن حلم اليقظة فى ذاته إنما ينتج عن فشلنا فى إعمال إرادتنا .

وسنناقش هذا الرأى فيما بعد . أما الآن فيهمنا أن نبحث حالة عدد من الناس الذين ينجحون فى مزج العمل بحلم اليقظة . وأولئك هم الذين يقال عنهم أنهم قد أفلحوا فى استغلال أحلام اليقظة . فمؤلفو القصص والروايات السينمائية والتمثيلات ؛ وكذلك الفنانون الذين يقومون برسم تلك اللوحات المألوفة التى تزين آلاف المنازل ؛ كل أولئك لا يقدمون صوراً دقيقة مضبوطة لأحلام اليقظة . ومع ذلك فإن أحلام اليقظة فى كثير من الأحيان تكون المادة الخام للصورة ، أو الفيلم ، أو القصة ، أو المسرحية . ثم يستخدم الرسام أو المؤلف وسائله الفنية كي يضيف عليها نوعاً من التماسك والوحدة يبرز تأثيرها . أى أنه ، بعبارة موجزة ، يسد الفجوة القائمة بين حلم اليقظة البدائى ، والإنتاج الفنى ، وذلك بواسطة عملية من عمليات التنسيق ^(١) .

فلدينا إذن فى الحياة العصرية ملايين من الناس يشتركون ، عن طريق المسرح والصحافة والكتب ، فى أحلام اليقظة التى كرس عدد من الناس حياتهم ، لتحويلها إلى صور مألوفة . وتمتاز بعض تلك الصور بمهارة فنية تثير استهجان الذين ينظرون إليها من الناحية الجمالية ، كما أن بعضها قد ينال استحسان الجمهور ، وسخط النقاد . ومن ثم نشأ عند المهتمين بذوق الجمهور نوع من الاعتقاد الراسخ بأن سواد الناس لا يكثرثون للقصة ، أو الفيلم ، الذى يغلب عليه الإتيقان الفنى . غير أننا نرى من حين لآخر ظهور قصة أو فيلم سينمائى أو مسرحية تشبع المطالب الجمالية عند النقاد ، كما تنال فى الوقت نفسه نجاحاً شعبياً غير عادى . وهذا

وهذا يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الجمهور قد يتطلب شيئاً مختلفاً عن اللون الفنى الذى ينشده النقاد ، شيئاً ينظر إليه على أنه ضرورى له . وهو لذلك يفضل أن يحصل على ما يريد ولو كان فى صورة رديئة . على أن يُقدّم له غيره مما لا يكثر به ولو كان فى إطار فنى بديع .

وتمثل قصة « سندرلا » ذلك فى وضوح . فقد اكتشف الذين قاموا بدراسة الثقافة الشعبية وجود أكثر من ثلثائة صورة مختلفة لتلك القصة بالذات . وهى تختلف فى تفاصيلها بحيث تلائم الظروف الجغرافية والاجتماعية للبيئة التى تظهر فيها ، ولكنها تتفق فى جوهرها من حيث أنها تصوّر حياة الابنة الصغرى المضطهدة التى تصبح زوجة لأحد الأمراء . وقد اتضح أن إحدى تلك الصور كانت من أقدم القصص التى ظهرت فى العالم . ومع ذلك فمنذ بضعة سنوات أصدرت إحدى دور النشر اللندنية طبعة جديدة من قصة سندرلا يبيع منها عدد من النسخ يعتبر رقماً قياسياً فى إنجلترا والولايات المتحدة . وقد لا نجدنا أن نفكر فى عدد المرات التى قدّمت فيها قصة سندرلا للجمهور ، سواء فى صورة رواية أو فيلم سينمائى أو تمثيلية ، ومع ذلك ينبغى أن نعلم أن حياة سندرلا ليست إلا موضوعاً هاماً من موضوعات حلم اليقظة ، فى كل زمان ومكان ، بالنسبة إلى أولئك الذين يشعرون أنهم موطن لآزدراء من أسعدهم الحظ بالمكانة الرفيعة والمركز السامى . ولذلك فإنهم يسبحون فى الخيالات التى يظهر لهم فيها فجأة من ينتشلهم من وهدة شقائهم ، ويسمو بهم إلى المركز الذى يستطيعون فيه أن يتمنوا أولئك الذين طالما نالهم التحقير على أيديهم . وتظهر هذه الخطة فى قصة « متجر العجائب »^(١) لشارلز ديكنز حيث يسرد فيها أحلام المركيزة التى ترى فى « ديك سويقلر »^(٢) ، الذى اقتحم عليها حياتها ، منقذها البطل الذى ليس سوى صورة للأمير الساحر فى قصة سندرلا .

Charles Dickens : "Curiosity Shop" (١)

Dick Swivler (٢)

لذلك يبدو أن وظيفة القصص الشعبية ، وكذلك الفيلم السينمائي ، والتمثيلات ، هي ، في كثير من الحالات ، أن تعيد على الناس سرد أحلامهم في صورة استطاعت مهارة المؤلف أو المخرج أن تصبغها بصبغة الحقيقة والواقع ، بدلا من صورة الحلم المراوغة المفلاتة . فان كان ذلك صحيحاً فإن وسائل الإخراج والنشر الحديثة ، التي تجعل الأفلام والكتب في متناولنا ، تكون قد أنزات حلم اليقظة من الحياة منزلة لم يسبق له أن شغلها . ومن الجلى أن هذه حقيقة لها نتائج اجتماعية هامة ، على الرغم من أن هذه النتائج ليست جلية واضحة . والأمر في عمومه أكثر تعقيداً من أن نصدر عليه أحكاماً عامة سريعة سطحية .

كانت القصص الشعبية ، فيما مضى ، تنقل إلى لغات كثيرة ، كى يتبها المؤلفين من انجليز وأمريكيين وفرنسيين وألمان أن يؤثروا بإننتاجهم الخيالى فى شعوب تعيش فى ظروف تختلف عن الظروف التى ألفتها أولئك الكتاب . وإذا قلنا إن الشعب الانجليزى يعرف الكثير عن مؤلفات « دستوفسكى » مثلاً ، فلسنا نغنى بذلك أن عدداً كبيراً من الانجليز يعرفون هذه المؤلفات . وإذا قيل لنا إن الأسبان يقبلون إقبالاً شديداً على قراءة كتب أحد الكتاب البريطانيين العصريين ، فينبغى ألا يغيب عن بالنا أن بلداً مثل أسبانيا ونسبة الأميين فيه كبيرة ، يقبل المتعلمون فيه دائماً على قراءة مؤلفات نفر قليل من المؤلفين الوطنيين والأجانب على السواء . ومنذ جيل تقريباً ، استطاعت أفلام السينما ، وهى مما يفهمه الأمى والمتعلم ، أن تقدم للعالم قصصاً لم تؤولف إلا فى عدد قليل من البلاد . وقد أمكن إلى عهد غير بعيد أن نرى جموعاً من الفلاحين والعمال المصريين يتتهجون بحيل شارلى شابلن وألاعيبه ، ولم يكن تحمسهم لذلك يقل عن حماس الفرنسيين والبريطانيين والأمريكيين والألمان ممن كانوا يشاهدون فى نفس الوقت أفلام شابلن فى بلادهم . ولا يصدق هذا على شابلن وحده ، وإنما يصدق أيضاً على عدد من الممثلين الأمريكيين والانجليز والاطاليين والفرنسيين ، وما أخرج لهم من

روايات في عهد الفيلم الصامت . وقد يحدث في بعض الأحيان أن يعجز نفر من المشاهدين عن فهم تفاصيل بعض المشاهد . فقد لا يدرك أجنبي مثلاً أن تعليق ثلاث كرات نحاسية خارج أحد الحوانيت يرمز إلى أنه حانوت رهونات . ولكن مثل تلك الصعوبات ليست بذات قيمة ، إذ يستطيع المتفرجون في العادة أن يتتبعوا قصة الفيلم ، ويفهموها تمام الفهم ، كما أنهم يحيون أثناءها مع البطل ، فيشاطرونه آلامه ومخاوفه ومسراته وانتصاراته . ومما لا شك فيه أن تأثر الكثيرين منهم بتلك المناظر قد يكون من القوة بحيث يساوى عندهم تماماً الحياة في جو الخبرات التي تصفها . ويبدو أن هناك من الأدلة ما يوحى بأن ذلك الأمر ليس بالخبرة الجديدة عليهم ، بل إنها تكون من التجارب التي مرت بهم فعلاً في أحلام يقظتهم الخاصة ، ولكنها تعرض أمامهم على المسرح في صورة تفوق حلم اليقظة في الوضوح والواقعية . وفي السينما يحل التصوير الشديد الوضوح محل الغموض في حلم اليقظة مما يكسب المشهد جميعه لونا من الحقيقة التي تتميز بها الصور في نظر البسطاء من الناس . فليس من الغلو في شيء أن نقول إن الناس كانوا ، وما زالوا ، يحدون في السينما مكاناً تعرض عليهم فيه أحلام يقظتهم في صور تتجاوز في وضوحها وواقعيتها تلك الأحلام ذاتها . وأيا كان معنى أحلام اليقظة في نظرهم ، فإن مشاهد الفيلم تتجاوز حدود هذا المعنى . كذلك يحتمل أن تلك المشاهد ما كانت لتثير عندهم اهتماماً ، لولا أنها تتصل بأحلام يقظتهم .

وينطبق هذا القول أيضاً على القارئ الذي تلهيه قراءة كتاب عن كل من حوله من الناس ، وعن مرور الوقت . فيحيا في الخيال حياة ليست ملكاله ، بل ملكا لبطل الكتاب . والعلاقة واضحة بين هذا وبين حلم اليقظة . ويحتمل جداً أن يتوقف مبلغ المتعة بالكتاب هنا أيضاً على انطباق موضوعه على أحلام اليقظة عند القارئ . فهو يمر بين صفحاته بنوع من الخبرة أشد عمقا ، وأكثر قوة وواقعية من جميع الخبرات التي ألقها من قبل .

ولا شك أن القول بأن تقديرنا للكثير من القصص والمسرحيات والكتب

يتوقف على العلاقة المتينة بينها وبين أحلام يقظتنا ، وعلى استطاعتنا رؤية أنفسنا في صورة أبطالها وشخصياتها ، لا يعنى أننا قد ذكرنا كل شيء يجب ذكره عن الصور الفنية ومبلغ تقديرنا لها . ولكن الذى نعينه في الحقيقة هو أن اتجاهات الناس نحو الأشياء التى تثير اهتمامهم بشكل قوى ، وتحرك عواطفهم ، يكون بينها وبين أحلام اليقظة والعمليات العقلية التى تؤدى إليها أنواع مختلفة الدرجة من الارتباط فى الأغلب . وتلك مسألة ينبغى أن نبحثها بعد قليل .

كذلك يحتمل ألا تكون أفكارنا عن الفن ، كما يتمثل فى الصور والقصص والتمثيلات ، هى وحدها التى ترتبط بأحلام اليقظة ، بل إن هذا الارتباط قد يقوم أيضاً بين الأحلام وبين ما لدينا من اتجاهات نحو العالم الذى يحيط بنا كما نراه . فعندما بدأ الناس يتأملون فى أسباب الظواهر الطبيعية ، أخذوا يتحدثون عن كائنات قوية خفية تسبب سقوط الأمطار ، وسطوع الشمس ، وقصف الرعد ، وما شابه ذلك . ولم تكن تلك الكائنات فى جوهرها إلا هم أنفسهم ، وقد وهبوا تلك القوى الهائلة التى يحسدون عليها . وعندما اعتراهم الخجل بعد ذلك من تلك التخيلات الساذجة ، أخذوا يتكلمون عن القوى غير المنظورة ، وتجاذب الذرات ، ويصفونها أحياناً بأنها وحدات تجريدية ، ولكن التعبير عنها كان يوحى غالباً بأنهم ما زالوا يفكرون فى أولئك الأشخاص الذين سبق لهم أن أنكروا وجودهم الفعلى . فإن « إدجار ألان بو » يتحدث فى « يوريكا » ^(١) ، قصيدته المنشورة التى كان مولعاً بأن يتخيل أنها تحل لغز الحياة ، عن ذرات يسعى بعضها إلى بعض سعياً موصولاً ، كما يسعى الطفل إلى أبيه الحبيب الذى فقده ، دالاً بهذه العبارة على أنه كان يفكر فى الذرات وهى تنشئ نفس ما كانت تصوّره له أحلام يقظته .

ولقد دهش « فرانسيس جولتون » ^(٢) عندما اكتشف أثناء بحثه فى

« Eureka » by Edgar Alan Poe (١)

(٢) Sir Francis Galton وهو من رواد حركة القياس العقلى فى إنجلترا ، وجه أول

اهتمامه إلى التصور وأجرى فى ذلك تجربته الشهيرة المعروفة باسم « استخبار مائدة الإنطار »

المترجم

العمليات العقلية عند معارفه من العلماء أن تفكيرهم المجرد كان مصحوباً بصور ذهنية لا يبدو أن لها ارتباطاً بالموضوع الذى يفكرون فيه . ولو أن جولدتون عاود اليوم محاولاته فمن المحتمل أنه كان يستطيع التوصل إلى إثبات وجود تلك العلاقة التى ليس ثمة شك فى وجودها بين التفكير المجرد والصور الذهنية ، ولأمكنه أن يثبت ، فى كثير من الحالات ، أن صوغ الفروض العلمية إنما هو محاولة لصب مجموعة من الحقائق فى قالب شخصى -- وقد لا يكون ذلك دائماً صريحاً كما فى محاولة « إدجار ألان بو » -- ولكنه مع ذلك يحدث كثيراً بالفعل . ولو استطعنا أن نبرهن على وجود سلسلة من الارتباطات بين التأملات المجردة عند العلماء وبين أحلام يقظتهم ، فإن هذا لن يقلل إطلاقاً من قيمة فروضهم العلمية ، لأن صحة النظريات العلمية لا تتوقف بحال من الأحوال على أصلها ، وإنما تتوقف على علاقاتها بالحقائق التى تحاول تفسيرها ، وعلى مدى قدرتها على الصمود فى وجه الحقائق الواقعية ، والتنبؤ بنتائج صادقة عن تلك الحقائق .

وهناك نقطة أخرى تستحق الذكر فى هذا الصدد ، وهى أن نوع التفكير الذى علينا أن نبخه عندما نقوم بدراسة أحلام اليقظة ، يكون أكثر بدائية وسذاجة من التفكير السليم المتزن الذى نميل إلى الاعتقاد بأنه النوع السائد عند المتعلمين من الراشدين . ولذلك ينبغى أن نتوقع أنه يلعب فى الحياة العقلية للأطفال دوراً أكبر مما يلعبه فى حياة الكبار من الرجال والنساء ، فإن هؤلاء ، ومنهم المدرسون والآباء ، يطلب إليهم باستمرار أن يفسّروا العالم ، كما يبدو فى نظرهم ، لأطفالهم الذين لم يكتمل نضجهم ، والذين يعجزون عن التفكير المجرد . وقد قيل إن والد « لويس كارول »^(١) اعترضته مشكلة من هذا النوع حينما جاءه ولده الذى لم يكن قد تجاوز الثالثة من عمره ، وطلب منه أن يفسر له جدولاً للوغاريتمات

(١) Lewis Carol مؤلف قصة « أليس فى أرض العجائب » ، وكان أستاذاً للرياضة

(المترجم)

فى أكسفورد ، واسمه الحقيقى C.L.Dodgson

كان قد عثر عليه . لقد حاول الأب ذلك جهده ، ولكن الطفل كان يقاطعه باستمرار بقوله : « لا . لا . فسرّه لى »

إن ما كان الطفل يريد به بالضبط أمر لا يمكن القطع به . فالمدرس ، أو الأب ، لا يسمعه عندما يطلب إليه شئ كهذا إلا أن يُجسّد الأشياء التى يتكلم عنها — كما فعل « بو » بالذرات — ويعرضها فى صورة تؤدى نوع النشاط التى يعرفها الطفل من خبرته الخيالية أو الحقيقية . فيقدّم للطفل بذلك قصة بدلا من الفرض العلمى . وهو إذا لم يستطع أن ييسر للطفل مثل هذه القصة ، فإن الطفل غالباً ما ينتدع لنفسه واحدة . ويقدم لنا « بيروفييه » فى كتابه « العاطفة الدينية »^(١) أمثلة رائعة للطريقة التى يفكر بها الأطفال فى علاقة الظواهر الطبيعية بمخلوق بشرى هائل ، يرون فيه علة لحدوث تلك الظواهر عن طريق أعمال تشبه ما يشتهى الطفل القيام به . كذلك نجد فى دراسة الأستاذ « بياجيه »^(٢) العميقة للأطفال قدراً كبيراً من هذا النوع من التفكير ، وذلك فى النظريات الكثيرة التى يكونها الأطفال عن عالمهم . ويبدو أن كل ما نعلمه عن محاولات الطفل لفهم العالم الذى يعيش فيه ، وفهم التفسيرات التى تقدمها له عن ذلك ، يبرر اعتقادنا فى أن الطفل إنما يخلع عليها أحلام يقظته .

إننا لا نشك فى أن هذه عملية طبيعية سوّية لا استثناء فيها . فالطفل فى تفكيره ، كما هو الحال أيضاً فى فعّاله ، يكرر النمو الأنطولوجى لتاريخ الجنس كله . ومن المهم أن ندرك أن هذه المرحلة التى يجتازها الآن إنما هى إحدى مراحل النمو التى لا بد له من المرور بها وتجاوزها إلى ما بعدها . وقد يكون حلم اليقظة عند الطفل الصغير تفسيراً نهائياً ما دام صغيراً . ونحن إذ نقبل هذا رأى إنما نؤمن بأنه لا بد أن يحين الوقت الذى ينتقل فيه الطفل من ذلك إلى البحث

(١) « Le Sentiment Religieux » par « Pierre Bovet »

(٢) Jean Piaget كان أستاذاً بجامعة جنيف ، ومدير المكتب الدولى للتربية ، ومعهد جان جاك روسو . وله مؤلفات كثيرة منها : « اللغة والفكر عند الطفل » و « فكرة الطفل عن العالم » و « فكرة الطفل عن العلية » وهو من أئمة رجال التربية فى هذا العصر . (المترجم)

عن تفسير معقول ، وتعليل علمي صحيح . غير أننا قد لا نطبق أن نرى بعض الراشدين يعتقدون أن هذا العالم الحديث المعقد يمكن تفسيره تفسيراً كاملاً بأسطورة « سان جورج والتنين ، والأميرة الهيفاء » . فالأميرة تمثل أرض الوطن والتنين يمثل الاشتراكية أو الرأسمالية أو أى مذهب آخر من المذاهب التى يبغضها الشخص . ونحن عندما نصفى إلى مثل تلك الخرافات السياسية فإننا ندرك أن سامعها لا يقبلها إلا لأنه يريد أن يرى نفسه فى دور سان جورج الخيالى .

ولا يصعب علينا فى ميادين السياسة والاقتصاد أن نرى أن أحلام اليقظة تستطيع أن تعيق الناس عن القيام بتلك المهمة الشاقة ، وهى مهمة مجابهة الواقع . وذلك لأن حلم اليقظة سارممتع ، وسهل كذلك . فهو لذلك يقدم نوعاً من الإغراء الذى كثيراً ما يستسلم له الرجال والنساء استسلاماً كلياً أو جزئياً . ويوجد فى مستشفيات الأمراض العقلية عندنا كثير من الأفراد الذين يرفضون رفضاً قاطعاً أن يتقبلوا العالم الواقعى ، بل يقضون حياتهم فى حالة مستمرة من الضلال والزيفان^(١) . كذلك يوجد فى الحياة اليومية كثير من الأفراد الذين يكونون من ذوى النزعة العملية الواقعية المتزنة فى ميدان الأعمال العادية مثل علاقاتهم التجارية أو مهنتهم وصناعاتهم ، ولكنهم يكونون ضعيفي التقدير لعالم الواقع خارج ذلك الميدان . ويمكن النظر إلى مثل أولئك الناس على أنهم أفراد نما فيهم جانب واحد ، ولكنهم ظلوا صغاراً أو مرهقين فى جوانب أخرى مثل علاقاتهم بغيرهم من الناس ، وفكرتهم عن واجباتهم كمواطنين ، وتقبلهم للمسئولية . فعلى الرغم من اعترافنا بـ كانه حلم اليقظة فى الحياة العقلية العادية ، نرى فى الوقت نفسه أنه لا يخلو من الخطر إذا لم يتهبأ لنا أن نحسن استخدامه وتوجيهه . فلا ينبغى أن ندعه يعترض سبيل نمو الشعور بالواقع ، والقياس العقلى للخبرة ، وإن أول خطوة فى سبيل ضبطه واستخدامه هى أن نفهمه فهماً صحيحاً .

(1) Delusion

الفصل الثاني

حلم اليقظة

لقد دَلَّ ظهور كتاب « سيكولوجية حلم اليقظة » للدكتور « فارندونك »^(١) على أن الأنظار بدأت تتجه أخيراً بشكل منظم إلى نوع من الخبرة ، لدينا من ما يدل على أنه من الخبرات العادية المألوفة لجميع الناس ، وأنه ربما كان أيضاً مرحلة طبيعية من مراحل النمو عند الكائنات البشرية . صحيح أن فرويد وأتباعه لم يتجاهلوا أحلام اليقظة ، غير أنهم كانوا دائماً يشيرون إليها باختصار عند قيامهم بدراسة الرؤى وغيرها من الظواهر العقلية .

ولقد قصر علماء النفس ، قبل العشرين عاماً الأخيرة ، كل عنايتهم على دراسة العمليات العقلية بطريقة التأمل الباطني^(٢) ، أو بواسطة بعض تجارب تجرى في المعمل على الذاكرة والتعب وزمن الرجوع وغيرها من الظواهر التي تشبهها . كما أن غيرهم ممن كانوا يعملون في ميدان علم النفس الفسيولوجي أخذوا يهتمون بتلك الظواهر التي ندرك اليوم — كما أدرك ذلك أيضاً واحد من أعظم العلماء الذين ساهموا في تلك الدراسات — أنها فسيولوجية أكثر منها نفسية . وقد قال عالم آخر عند تعليقه على أكثر هذه البحوث أهمية ما يأتي : « اننا مانكاد نعتقد بأننا قد كشفنا إحدى الحقائق عن العقل ، حتى يتبين لنا أنها ليست سوى حقيقة عن الجسم » . غير أن الأستاذ « شارلز سبيرمان »^(٣) كان نسيج وحده في

(١) Dr. Varendonck : "Psychology of the Daydream"

(٢) Introspection وترجم أيضاً « بالاستبطان »

(٣) Prof. Charles Spearman من أعظم رواد حركة القياس العقلي في العصر الحديث .

وقد اشتهر « بنظرية العاملين » في الذكاء (المترجم) .

ميدان علم النفس التجريبي ، فقد كانت بحوثه الرائعة في دراسة الاختبارات العقلية وقياس الذكاء السبب الرئيسي في أن اختبار القوى العقلية أصبح علماً دقيقاً. ولقد أقام أتباعه ، في وقت قصير نسبياً ، بناء شامخاً فوق ذلك الأساس الذي أحكم الأستاذ وضعه. وقد بذر أنصار التأمل الباطني بذور الريية في قلوب الناس فيما يختص بإمكان قياس القدرات العقلية ، كما أنكر بعضهم ذلك في صراحة ، مما أدى إلى التشكك في استطاعة العلم إخضاع الخصائص العقلية لعمليات القياس . وبدأ الناس يتساءلون عن السبب الذي يدعوهم إلى الكلام عن « الذكاء » ^(١) بدلاً من التحدث عن « الفطنة » ^(٢) التي يكثر ذكرها في الكتب . وقد حدث في إحدى الجامعات الهامة أن أحد الذين قدموا هبة مالية للإنفاق على أحد كراسي الأستاذية قد اشترط ألا يشغل هذا الكرسي عالم معين ، بحجة أن ذلك العالم من المشتغلين بعلم النفس التجريبي .

كذلك أصاب الشك والإنكار حركة أخرى من حركات علم النفس ، وهي الحركة التي بدأها فرويد وزميله « بروير » عند قيامهما بدراسة عدد من الظواهر العقلية الشاذة بطريقة جديدة ، دلت — بغض النظر عن اختلاف الآراء في تأويل نتائجها — على أن جزءاً كبيراً من ميدان الظواهر العقلية يعجز التأمل الباطني عن الوصول إليه مهما حاول . وقد التف حول فرويد نفر من الشبان الأذكياء ، ومن بينهم يونج وستيكل وأدلر وفيرنكرزي وإرنست جونز وغيرهم . وصرح الأستاذ « وليم مكدوجال » بأن فرويد قد أضاف إلى معرفتنا بالطبيعة البشرية ما لم يستطعه رجل آخر منذ أرسطو . هذا مع العلم بأن مكدوجال لم يكن يعطف كثيراً على هذه الحركة الجديدة ، بل إنه كان من أشد المعادين لها في سنوات حياته الأخيرة .

ولقد نتج عن الاتجاه الذي كان يسود تفكير المدرسين الرسميين لعلم النفس

(1) Intelligence

(2) Intellect

في الكليات والجامعات أن عمل فرويد كان مجهولاً بوجه عام في بريطانيا . غير أن الحرب العظمى الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) ، التي دفعت بملايين البريطانيين والبريطانيات إلى أحضان الجيش كانت السبب في لفت الأنظار إلى ظواهر معينة لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت إلا لرجال الطب ، إذ أصبحت حالات الشذوذ في السلوك ، التي أفقدت كثيراً من الناس صلاحيتهم للأعمال الحربية ، من الأمور المألوفة ، وكانت تعتبر نوعاً من « الأمراض » التي تكون في العادة مصحوبة بأعراض جسميه . ولكن فحص المرضى فحصاً طبيّاً لم يكشف عما كان متوقعاً من الخلل العضوى ، كما أخفقت أنواع العلاج العادى في تحسين حالات المرض . وكان الأطباء في ذلك الوقت ينظرون إلى المرض الذى لا تجدى العقاقير أو العمليات الجراحية في علاجه على أنه مرض خيالى لا حقيقى ، وأن المصابين به ليسوا إلا متمازجين . ولكن بعض أولئك الأطباء اعترف بأن ظروف الحرب يحتمل أن تؤدى إلى الإصابة بمرض يختلف في النوع عن الأمراض التي تحدث في الظروف العادية ، وبدءوا يتكلمون عن « صدمة القنابل » . كذلك أدرك غيرهم ممن كانت لهم تجارب مختلفة ، أنهم إنما يرون شكلاً كبيراً لما كانوا يرونه صورة مصغرة في عياداتهم . فأمامهم الآن أنواع من الاستجابة التي تقوم بها الكائنات البشرية عندما أصبحت الحياة شاقة في نظرهم ، فعجزوا عن مقاومة الضغط الواقع عليهم . فهذه الأمراض التي يشكو منها الناس إنما هي أمراض نفسه .

ومن الممكن في الأحوال العادية أن يناقش الطبيب عليه في أمر مرضه ، وأن يعالجه برفق وعطف ، ويوجه عناية جدية إلى تطور الأعراض وتاريخ ظهورها ، فيستطيع بذلك أن يبيث في المريض روح الشجاعة لمواجهة علته . ولكن ظروف الحرب جعلت من الضرورى حدوث أحد أمرين : إما إعادة المريض إلى ميدان القتال ، وإما إعفاؤه من واجباته الحربية وإعادةه إلى عمله المدنى ، لأن الجيش لا يستطيع أن يتحمل أكثر من نسبة صغيرة من غير

الصالحين للقتال . ولكن لما كان المرض النفسى لا يكشف عن أعراض من نوع الأعراض التى يتذرع بها الطبيب لإعفاء المريض من الخدمة العسكرية ، على الرغم من ظهور سمات العلة واضحة جلية على الشخص ، فقد انتابت الحيرة أطباء الجيش ، إذ وجدوا أمامهم حالات لم تهيئهم خبراتهم السابقة واستعدادهم الفنى لعلاجها .

ولم يقدم لنا علم النفس القائم على الاستبطان أو التأمل الباطنى معونة من أى نوع ، بل اقتصر على عرض عدد حافل من المبادئ الوصفية ، دون أن يحاول تجاوز هذا الحد . ولذلك وصفه أحد العلماء عام ١٩٠٠ تقريباً بأنه « علم يصف ما يعرفه كل الناس فى لغة لا يفهمها منهم أحد » . وهذا رأى ولو أنه مبالغ فيه ، لا يخلو من صدق ، ويظهر ذلك جلياً فى كُتب علم النفس التى ظهرت فى ذلك الوقت .

ولكننا من ناحية أخرى نجد أن علم النفس الجديد الذى نما على أيدي أولئك العلماء الذين ينتسبون إلى مدرسة فينا^(١) يقدم لنا مبادئ وظيفية تصف الظواهر فى صورة العلل ومعلولاتها ، أى الأسباب ونتائجها . كما أنها أثبتت قدرتها ليس فقط على إيضاح طبيعة المرض الذى ينتاب المدنيين والجنود على السواء ، وإنما على بيان أسباب تلك الاضطرابات أيضاً . فجعلت فى استطاعة نفر من الأطباء ، الذين تمكنوا من الحصول على معرفة خاصة ، والذين كانوا رواداً لحركة الطب العقلى^(٢) الحديثة ، أن يعالجوا أولئك المرضى بنجاح كبير .

ولقد نالت قصص المرضى « بصدمة القنابل » ، والطرق الجديدة لعلاجهم ، ذيوماً كبيراً حوالى عام ١٩١٨ أو ١٩١٩ ، وأقبل الناس على سماع أى محاضرة فى « التحليل النفسى » ، واقتناء سائر الكتب عن هذا الموضوع ، بعض النظر

(١) مدرسة فرويد فى التحليل النفسى بدأت فى فينا فأطلق عليها اسم تلك المدينة . (الترجم)

(2) psyhiatry

عن شخص المؤلف . ولذلك ظهر عدد كبير من المؤلفات المثيرة عفا النسيان على أغلبها ، كما كان معظمها عديم القيمة . وفي نفس الوقت بدأ الناس يلحون في طلب معلومات جديدة جدية مما دفع إرنست جونز إلى نشر كتاب « مقالات في التحليل النفسي »^(١) . وجونز مؤلف موفق في عرض آرائه في أسلوب سلس واضح ، فأشبع بكتابه فضول القارئ العادي الذي كان يرغب في معرفة شيء عام عن ذلك الموضوع الطريف . كذلك أصبح هذا الكتاب مقدمة نافعة للطالب تعينه على الانتقال في يسر إلى دراسة كتب فرويد . وأصدرت « باربارا لو »^(٢) تمهيداً آخر كان الغرض منه خدمة عدد أكبر من جبهة القراء ، ونفع الآباء والمدرسين على الأخص .

وكان الاستقبال الذي استقبل به التحليل النفسي في بادئ الأمر مزيجاً من الاستحسان والاستنكار ، إذ رحب به فريق من الناس ترحيباً حماسياً ، وإن لم يكن قائماً على دراسة نقدية . كما أن فريقاً آخر ناصبه العداء السافر لدرجة أن أحد أئمة التربية في بريطانيا صرح بأنه لن يؤيد قط أن يشغل إحدى وظائف التدريس في كلية من كليات المعلمين ، أو قسم من أقسام التربية بالجامعة ، شخص ممن يناصرون التحليل النفسي . وقد شاطره رأيه هذا كثيرون . ومن المحتمل أنه لم يحدث قط أن نظرية من النظريات العلمية صادفت رد فعل عام كهذا ، منذ أن نادى دارون بمذهبه في النشوء والارتقاء .

ومر جيل ... وزالت حدة ثورة التحليل النفسي ، كما تبددت من قبل الثورة ضد مذهب التطور . ونال علم النفس من التعديل على يد التحليل النفسي ما نال علم الحياة على يد نظرية التطور . وامتد التحليل النفسي إلى دائرة المدارس الطبية ، وكليات المعلمين ، كما أصبح يدرس في مدارس اللاهوت . وأخيراً تم الاعتراف به كجزء من منهج العلاج الطبي .

(1) Ernest Jones : Papers on Psychoanalysis

(2) Barbara Low

وقد وجّه التحليل النفسى من بادية الأمر عناية كبيرة إلى الأحلام . والفرق بين (صلى) مؤلف كتاب « النوم والأحلام والهذيان »^(١) ، وبين فرويد فى معالجة الأحلام خليف أن يوضح أوجه الاختلاف بين علم النفس الاستبطانى وعلم النفس الذى أخذ ينمو ويتطور نتيجة لمجهودات التحليل النفسى . ويتلخص رأى « صلى » فى أن التفكير يستمر أثناء النوم ، غير أنه يكون ممسوخاً غير متزن ، لأن الجهاز العقلى لا يكون عندئذ قائماً بأداء وظيفته . ولكن فرويد لم يرض عن مثل هذا التعليل السقيم ، بل أخذ يتساءل : « لِمَ التعلق بالتفسيرات السخيفة ؟ ولمَ التمسك بمثل هذا الرأى التافه دون غيره ؟ » . وحينما أخذ فى دراسة الأحلام لم يذق للراحة طعماً حتى تمكن من إيجاد تفسير لكل عنصر من عناصرها .

وقبل أن ينشر فرويد كتابه الانقلابى المسمى « تأويل الرؤى »^(٢) بمدة طويلة أدرك الناس أن بين الرؤى وأحلام اليقظة عناصر مشتركة ، فظروف حدوثها متشابهة ، إذ تحدث عندما ينسحب الناس من العالم المحيط بهم وينسونه ، كما يحدث عند النوم أو انشغال الفكر ، كما أن حلم اليقظة ينتهى بنوع من (الاستيقاظ) قد يكون أقل فى الدرجة من الاستيقاظ العادى من النوم . كذلك تتشابه الرؤى وأحلام اليقظة من حيث أنها تختلف اختلافاً واضحاً عن التفكير الشعورى للأشخاص الحالمين ، لدرجة أنهم غالباً ما يصفونها ، عند قصتها على غيرهم ، بالسخف والحق وتفكك المعنى والفلو والغرابية ، كما أنهم يتحدثون عنها فى لهجة الاعتذار ، كأن يقول أحدهم : « لست أدرى ما الذى جعلنى أرى هذا الحلم . » ، أو يقول : « لا أعرف سبباً لتفكيرى فى مثل هذه الأشياء » . والشخص الذى يقص أحلام يقظته على غيره يكون عليه عادةً أن يتغلب

(1) Sully : ' Sleep , dreams and Hallucination ,

(2) S. Freud : Interpretation of Dreams.

على قدر كبير من الحرج الذى لا يعرف له سبباً . وكثيراً ما يجد صعوبة حقيقية فى قص تلك الأحلام إذ قد يحدث بعد مرور بضع دقائق من حدوثها أن ينساها كلها ، أو جزءاً كبيراً منها ، ويصبح من العسير عليه أن يسترجعها مهما بذل من الجهد الإرادى . وقد يستطيع أحياناً أن يتذكر منها أجزاء متناثرة فى فترات متباعدة .

وقد استطاع (فارندونك) أن يدرب نفسه على التغلب على مثل تلك الصعوبات ، ولو بشكل جزئى ، فنجح فى ملاحظة عملية حلم اليقظة أثناء حدوثها عنده ، كما أمكنه أن يسجلها كاملة . واكتسب أيضاً قدرة على النظر إليها نظرة خالية من الهوى والتحيز ، فاستطاع أن يتغلب على ذلك الازدراء الذى يحسه معظم الناس عندما ينشرون أمورهم الخاصة على الناس .

وذهب فارندونك إلى أبعد من ذلك ، إذ تمكن من أن يطبق على ماسجله تلك الطرق التى نمت وتطورت على يد فرويد فى تأويل الرؤى ، وأهمها طريقة « التداعى الطليق » ^(١) . فاستطاع أن يربط عناصر حلم اليقظة بسائر الحوادث التى سبقتها وأصبحت تعتبر من « مثيراته » ، وكذلك بحوادث أخرى بعيدة أمكن استرجاعها أثناء « التداعى الطليق » .

وقد دل استخدام فرويد فى حالات أخرى بشكل حاسم على أنه ما من فرد يستطيع أن يطبقها على نفسه بنفس الدقة التى تكون ممكنة إذا ما قام بها شخص آخر غير صاحب الحلم . وهذا رد نهائى على أنصار « التحليل الذاتى » ^(٢) ، فإن المحلل الماهر ، مهما أوتى من مهارة ، يحتاج فى الظروف العادية إلى عون شخص آخر كي يستطيع سبر أغوار مدلول أحلامه الخاصة . صحيح إنه قد يتمكن بنفسه من الكشف عن أشياء كثيرة ، ولكنه لن ينجح فى تحليل نفسه بقدر نجاحه فى تحليل غيره . لذلك لا ينبغى أن نتوقع فى تحليلات فارندونك لأحلام يقطته

(1) Free Association

(2) Self - analysis

الخاصة ذلك الكمال الذى كان فى الاستطاعة الوصول إليه لو أنه استعان فى ذلك التحليل بإخصائى آخر .

وليس من الصعب أن نكتشف ، كما اكتشف (فاردنوك) نفسه ، أن جميع أحلام اليقظة تدور حول الذات . ومهما كانت درجة كثافة القناع فى الصورة التى يظهر الحالم فيها ، فإن ذلك الحالم يكون دائماً الشخصية المحورية فى الحوادث التى يبتدعها لنفسه . ويشبه كل حلم من تلك الأحلام أقصوصة ، أو مسرحية قصيرة ، يكون البطل فيها هو الحالم نفسه . وهنا نرى وجه شبه آخر بين الرؤيا وحلم اليقظة ، إذ يتفق جميع المشتغلين بدراسة الرؤى على أن الشخصية المركزية فيها هى شخصية صاحبها . فالرؤى وأحلام اليقظة إذن « ذاتية المركز » .

وتوضح دراسة أحلام اليقظة التى سجلها فاردنوك فى كتابه أن معظم تلك الأحلام ، على الرغم من اختلافها الكبير فى الشكل وفى المادة التى تتألف منها ، يمكن إرجاعها إلى نوع واحد يمثلها جميعاً . فكما يحدث أن عدداً من القصص التى يقوم بتأليفها كاتب ماهر محبوب قد تكون جميعها تنميقات فنية مختلفة موضوع واحد كذلك نرى أن أحلام اليقظة التى نشرها فاردنوك تتلخص فى عبارة بسيطة هى : « إن مساعدة الأشخاص ذوى المكانة ممن يعجبون بى ، تجعلنى أستطيع الوصول إلى مركز ملائم » . وهذا تعبير عن آمال الحالم فى الحصول على المنصب الذى يشتهيه عن طريق أولئك الأفراد الذين يشغلون مراكز ممتازة ، ممن كان لشخصيته وعمله المتقن أثر حسن فى نفوسهم . ويدلنا الجزء الخاص بتاريخ حياته على أن أحلام اليقظة حدثت فى الوقت الذى كان فاردنوك يعمل أثناءه فى الجيوش البريطانية بالقارة الأوروبية ، وأنه كان يتمنى وقتئذ الحصول على تسهيلات معينة تجعل فى استطاعته الاستمرار فى عمله الذى كان يتوقع من ورائه ترقية علمية .

وتساعدنا الإشارة إلى تلك القصص التي ليست أكثر من تحويلات مختلفة لموضوع واحد على أن ندرك بوضوح وظيفة ما أطلقنا عليه اسم « المثيرات » .
فقد يقضى القصصى فترة من الوقت فى الجزائر أو مراكش كى يجمع مادة تصبغ كتابه بلون محلى . غير أن المشاهد الجديدة ، وشخصيات القصة ، ليست فى الواقع سوى مادة تصب فى نفس القالب الفكرى المألوف . وقد تدور الحكمة حول فكرة خصام عاشقين ثم تصافيهما ، كما أن مسرح الشجار بينهما قد يكون شارعاً فى مراكش ، أو ميداناً بالجزائر ، ثم يرد ذكر أما كن أخرى على أنها أكثر ملاءمة لحدوث الوثام وعودة المياه إلى مجاريها . وبنفس الطريقة كانت رؤية أحد كبار الضباط ، أو الأطباء ، أو أساتذة الجامعة — أو باختصار أى شخص له مكانة ونفوذ — كافية لأن تبدأ عند فاردنونك سلسلة من الأفكار تؤدى إلى حلم اليقظة الذى يدور حول حصوله على مساعدة ذلك الشخص ، وهذه المساعدة تهيه له شيئاً أفضل مما كان ميسوراً له فى تلك اللحظة ، مثل كرسى فى الجامعة ، أو منصب هام فى مستشفى ، أو مركز ممتاز فى عمل ما . فكان حلم اليقظة يقول : « إن الأستاذ معجب بى ، وراض عن عملى ، ولذلك فإنه سوف يعمل على أن أشغل منصباً ملائماً لى فى المستشفى ... » ، أو : « إن هذا الضابط العظيم معجب بتفاقى العالية ، وسوف يبذل جهده كى أنال المركز الذى يناسب مواهبى فى أحد المكاتب الحربية . » . فهذه الأحلام ليست إلا أشكالاً متنوعة لفكرة عامة واحدة ، هى استغلال الحوادث اليومية وما تستدعيه من ذكريات .

ولكننا باقتصارنا على تعديد المثيرات لا نكون قد قنا بأكثر من بحث سطحى فى حلم اليقظة . ويكون مثلنا فى ذلك مثل الناقد الأدبى الذى يعتقد أنه استطاع تفسير قصص (توماس هاردى) تفسيراً كاملاً من مجرد تحديد جميع الأماكن التى أشار المؤلف إليها ، أو معرفة جميع الأفراد الذين اتخذ منهم نماذج

لشخصياته . أو كأننا نحاول أن نفسر حلم اليقظة عند بائعة اللبن ، التي أشرنا إليها في الفصل الأول ، من مجرد الحديث عن أثمان الأفراخ والبيض في السوق ، على حين أن النقطة الهامة في حلم بائعة اللبن هي فكرتها عن نفسها كسيدة أسمى ممن حولها من الناس ، وأن هذا السمو لا يحتاج لظهوره إلا إلى بعض الملابس الأنيقة . فالذي أثار ذلك الحلم الذي تعرضه الأقصوصة معبرا عن هذه الفكرة كان سلة بيض ، ولكن كان من المستطاع كذلك أن يثار نفس الحلم بواسطة بقرة ، أو وعاء لبن ، أو رؤية سيدة أنيقة الثياب .

وقد سبقت الإشارة إلى وجود أكثر من ثلثمائة صورة متنوعة لقصة سندرلا^(١) . ففي الصور التي نشرت لها في ألمانيا أو روسيا أو لابلاند نجد بيئة المانية أو روسية أو لابلاندية ، لأن مادة القصة تؤخذ في العادة من بيئة الكاتب . وقد تختلف فيها بعض التفاصيل ، مثل حادثة الحذاء ، أو زى الأمير ، أو نوع المركبة التي انتقلت فيها سندرلا إلى المرقص . غير أن مثل تلك الاختلافات ليست جوهرية . وإذا نحن تركنا جانبا المشكلة الإنسانية الخاصة بكيفية انتشار هذه القصة التي تتفق في جوهرها ، وتختلف في تفاصيلها ، بين شعوب موزعة على أركان العالم ، وليس بينها اتصال ثقافي ظاهر ، ظلت أمامنا المشكلة النفسية التي تبحث في أسباب استمرار وجودها بيننا .

وليست قصة « سندرلا » من قصص الأطفال المحبوبة لحسب ، بل إنها أيضا من القصص التي تعاود الظهور بلا انقطاع ، فتتشر تارة في مجلات الأطفال وصغار المراهقين الأسبوعية الرخيصة ، وتارة تدخل عليها تنميقات أدبية رائعة وتظهر في صورة قصة طويلة ، كما أنها قد تطلع علينا في ثوب مسرحية حديثة ، أو فيلم من الأفلام الناجحة التي يكثر الإعلان عنها . ولكنها دائما قصة فتاة تعيش بين قوم يزدرونها لأنهم لا يستطيعون فهم حقيقتها ، أو إدراك ما حباها

(1) " Cinderella, Three Hundred and Forty Five Variants " — Marian Roalfe Cox — (London : The Folklore Society : 1903) .

الله به من سامى الخصال . ثم يأتى يوم يظهر فيه شخص على المكانة ، يدرك على الفور أنها وحدها ، دون من حولها ، تصلح لأن تشاطره سؤدده ، فيتزوج منها ويجعلها سيدة البلاد الأولى . وبهذا تنتهى القصة عادة ، وإن كان يحدث أحيانا أن يضيف المؤلف إليها فصلا يؤكد فيه أن سندرلا قابلت إساءات مضطهديها السابقة بالصفح النبيل ، وترفعت عن مقابلتها بمثلها . ولا يشترط أن تدور القصة حول فتاة ، فإن « سندرلا » فى بعض صور القصة تكون شابا يواجه نفس الظروف التى تواجهها سندرلا .

فإذا جردنا قصص سندرلا من تلك الأمور العرضية الخاصة بالزمان والمكان ، اكتشفنا أن الفكرة الرئيسية فيها تتلخص فيما يأتى : « أنا شخص أصلح لشغل أسمى مركز فى المجتمع الذى أعيش فيه ، غير أن من يحيطون بى من الناس على درجة من الغباء أو الأنانية تجعلهم يحطون من شأنى وينزلوننى منزلة دون قدرى . ولكن لابد أن يأتى يوم أنال فيه المركز الذى أستحقه . » هذا هو ما ينبغى اعتباره معنى حلم اليقظة الذى من نوع قصة سندرلا . ويجب أن ننظر إلى هذه الفكرة ، إذا ما اكتشفناها ، على أنها تأويل لحلم اليقظة .

غير أننا لو عرضنا هذا التفسير على من يسير فى أحلام يقظته على هذا النمط ، فإنه سوف يحتج بأنه لا يعتقد أنه متفوق على غيره من الناس . ولو وصل هو بنفسه إلى ذلك التأويل ، سواء بمساعدة غيره أو بدونها ، فإنه سوف يقول : « إنه لم يشعر قط من قبل بأنه ينظر إلى نفسه مثل هذه النظرة » . فمن الواضح إذن أن علينا أن ندخل فى اعتبارنا نوعاً من التفكير الذى يؤدى إلى نتائج يحول دونها شىء ما فى داخل الحالم نفسه ، وأن نعتقد أن هذا التفكير وذلك المنع يحدثان دون شعوره بهما . فهو يؤلف حلم اليقظة دون شعور بالعملية التى تدخل فى ذلك ، وهو كذلك لا يكون شاعراً بالفكرة ودلالاتها ، بل إن كل ما يعرفه هو نتيجة تلك العمليات التى لا تبدو فى نظره أكثر من نوع من الخيال فيه راحة ولذة

يستطيع أن يتمتع نفسه به أثناء حدوثه ثم نسيانه بعد ذلك . فليس حلم اليقظة ذاته لا شعورياً ، ولكن العمليات العقلية التي تدخل فيه هي اللاشعورية .

وقد أدرك معظم الناس — والأسلم أن نقول كلهم — أن الانتباه إلى أغلب مهام الحياة يحتاج إلى جهد إرادى متعمد . ويوجه آلاف من الناس يومياً انتباههم وعنايتهم إلى أشياء لا تثير اهتمامهم ، ولكنها ضرورية لكسب قوتهم . ويحدث ذلك المجهود الذى يقومون به تحت ضغط الظروف الاقتصادية وإلحاحها . كذلك ينتبه التلميذ فى الفصل فى كثير من الأحيان إلى أعمال لا تمس اهتمامه ، ولكنه يضطر إلى بذل الجهد اللازم اضطراراً . غير أن هناك فئة قليلة من الناس تميل إلى عملها ميلاً واضحاً ملوساً يجعلها تعنى به ، وتؤديه دون إحساس بالجهد ، ويضايقها أن تضطرها الالتزامات الاجتماعية إلى الانصراف عنه . غير أن بين الواجب الذى يفرض على الشخص فرضاً ، والعمل الذى يلذله أداؤه ، نوعاً وسطاً من الأعمال يستلزم قدرًا متفاوتاً من جهد الذين يقومون به . فالتركيز فى مثل هذه الحالات يتطلب جهداً سرعان ما يؤدي إلى التعب العقلى ، ولذلك فإن الذين يؤدون أعمالاً تستلزم انتباهاً مركزاً لأشياء لا تثير من اهتمامهم إلا القليل يحتمل أن يصيبهم الاسترخاء الذى تشرده عقولهم أثناءه ، وعندئذ يتحول الانتباه إلى الصور العقلية ، بدلا من الأشياء الواقعية فى العالم الخارجى ، وبذلك يحل حلم اليقظة السهل الممتع محل الانتباه الإرادى المضنى .

يبدو إذن — دون حاجة إلى أدلة أخرى — أننا عندما ننتبه انتباهاً مقصوداً إلى شيء ما فإننا نبعد من شعورنا تلك الصور التى تتدافع إليه بمجرد استرخائنا . فهناك صراع بين العالم الواقعى الخارجى والعالم الداخلى . وفى فترات التركيز نوجه انتباهنا إلى العالم الخارجى ، ونقمع ، عرضاً أو عن عمد ، العالم الداخلى للأفكار والصور . و « القمع »^(١) هنا يقصد به معنى خاص يختلف

(1) Suppression

عن « الكبت »^(١) . فإن الانصراف عن العالم الداخلى يكون شعورياً مدبراً إلى درجة كبيرة . أما « الكبت » فيحدث لا شعورياً ، وسنبحث فيما بعد في الدور الذى يلعبه هذا الكبت فى أحلام اليقظة . ويبدو أن التركيز يتضمن « القمع » ، وهو يشبه فى معناه قولنا للطفل : « لا تنظر إلى الصور المعلقة على الحائط ، ولا تشغل نفسك بمن يجاورك من زملائك ، بل ينبغى عليك ألا تحوّل بصرك أو فكرك عما فى كتابك ، وألا توجه انتباهك إلى غير الدرس » . هذا ما قد يحدث المدرس به التلميذ . ونحن فى حالات التركيز إنما نكون كمن ينفذ مثل تلك الأوامر ، غير أنها تكون صادرة عنا أنفسنا .

ولنضرب مثلاً محسوساً يوضح تلك النقطة ، وهو حلم يقظة لرجل كان مسافراً فى إحدى قطر الأنفاق فى لندن . فقد أسرع الرجل ليلحق بقطاره ، غير أنه وجد باب المحطة مغلقاً فى وجهه ، ففاته القطار بعد أن كان على وشك اللحاق به . وقد ضايقه كثيراً أن يبصر القطار واقفاً بجوار الرصيف ، بينما كان وقته يضيع هباء خارج الباب المغلق . وفى وقت متأخر من ذلك اليوم لاحظ عند ذهابه إلى محطة أخرى لينتظر القطار أنه كان واقفاً جوار باب يشبه تماماً ذلك الباب الذى أغلق دونه قبل ذلك .

وبينما هو فى انتظار القطار إذ ألغى نفسه يتأمل فيما تكون عليه المحطة عند ما ينصرف جميع الناس فى الليل ويغلق الباب نهائياً ، وفيما يحدث لو أن عمال المحطة أقفلوا الباب عليه دون أن يدركوا وجود أحد فى الداخل ، فيبقى محبوساً فيها طول الليل .

ثم أخذ يفكر فى المتاعب التى تنشأ عن البقاء فى مثل ذلك المكان مدة طويلة . وهنا بدأ يتخيل المحطة وقد ظهرت فى صورة بديعة قديمة كأنها مسكن ملكى ، وقد فصلتها عن القضبان أعمدة وستائر . وأعقب ذلك تفكيره

(1) Repression

فى المسافرى أنشاء هرجهم ومرجهم على الأرصفة عند دخولهم القطر أو مغادرتهم لها مما كان يتعارض مع هدوء المسكن وراحته ، فىصبح من المستحسن نقله إلى مكان آخر يتوسط المحطات ، حيث يجلس المرء فى القصر ، متفرجاً على القطر فى غدوها ورواحها ، وشاخصاً ببصره إلى من فيها من المسافرين الذين ينظرون خلال النوافذ معجبين بروعة ذلك المكان الذى يمر القطار أمامه فى عجلة واندفاع . ثم بدأ يرى نفسه واقفاً فى الشرفة ، وقد ارتدى ثياباً فاخرة ، وأخذ ينظر إلى القطر والمسافرين كما لو أن ذلك كان مشهداً أعد له وحده . ومن ذلك انتقل فكره إلى مساكن أخرى تشبه ذلك المسكن الذى تخيله من بعض الوجوه ، وتختلف عنه من وجوه أخرى ، وربما كانت تجاوره . وقد يكون هناك نهر يجرى بينها بدلا من تلك القضبان الحديدية ، وقوارب تنساب على صفحته أمام الشرفة . وهنا وجد نفسه يفكر فى فتنة الغرف المفروشة المعدة للسكنى ، والتى تؤثت بأنواع مختلفة من الرياش بحيث تشبع رغبات رجال من مختلف المشارب والأذواق . ثم أخذ يفكر فى غرف من هذا النوع رآها ، وأخرى أقام بها ، وهذا ذكره بالسحر الذى كان لمثل تلك الغرف على « إدجار ألان بو » الذى وصف إحداها فى قصة « قناع الموت الأحمر »^(١) . وهنا انتهى حلم اليقظة . وأخذ الرجل يفكر تفكيراً منطقياً متزناً فى عمل أدبى كان مشغولاً به فى ذلك الوقت .

وقد أمكن باستخدام فكرة « الوحدة » فى عملية التداعى الطليق أن يتذكر صاحب الحلم عددا من الأفكار المتصلة بالموقف الذى وجد نفسه فيه . فإن عدم توافر المساكن كان قد أرغمه على الإقامة فى غرف ليست على هواه ، لأنها كانت ضيقة غير مريحة ، فاضطر أيضاً إلى خزن معظم كتبه ، ولم يكن فى استطاعته أن يقابل أصدقاءه إلا فى المطاعم والنوادى ، بدلا من استقبالهم فى منزله وبين

(1) Edgar Alan Poe : 'The Masque of the Red Death'.

كتبه . كما كان يضايقه ألا تكون حرية الشخصية موفورة في مسكنه .
كذلك استدعت فكرة « مَلِك » على الفور فكرة حاكم مطلق من حكام الشرق . ثم فكرة بختنصر وهو يشهد المدينة من شرفة قصره قائلاً : « أليست هذه بابل العظيمة التي شِدْتُهَا ؟ » ويذكر صاحب الحلم أن « تيوفيل جوتييه ^(١) » كان قد تكلم عن موقف العبد من الحاكم العظيم فقال إن الأول كان يستمتع بمشهد الروعة والأبهة عند الثاني ، ويفكر في أن الحظ قد يداول بينهما في لحظة واحدة .

وهنا طافت بذهنه تخیلات صبيانية ترجع إلى عهد مبكر من حياته ، وتدور حول احتمال أن يصبح ملكا . فقد طرق سمعه في يوم من الأيام ما جعله يعتقد أن « أمير ويلز » في ذلك الوقت كان سيخلف الملكة فكتوريا على العرش مجرد أنه الابن البكر . وكان هو نفسه ابنا بكرة . وهو يذكر بشكل غامض بضعة أحلام يقظة صبيانية تخيل فيها جماعة من علية القوم يقدمون له تاج إنجلترا . فقد ماتت الملكة فكتوريا ، ورغب أمير ويلز عن اعتلاء العرش ، فأخذت السلطات تبحث عن ابن أكبر آخر ، ووقع اختيارها على صاحب الحلم . وكان المشهد يصور قصة إعلان الأميرة فكتوريا بأن عمها وليام الرابع قد مات ، وأنها أصبحت بذلك ملكة بريطانيا العظمى وأيرلندا . وقد كان الحلم على علم بتلك القصة ، ويذكر أن تاريخ معرفته إياها يرجع إلى العام السابع أو الثامن من عمره .

كذلك استدعت فكرة « مشاهدة الأشياء » كما لو أنها كانت مناظر ، إلى ذهنه مسألة حرمانه من مشاطرة أقرانه من الأطفال ألعابهم ، وكان ذلك راجعاً إلى اعتقاد والديه بأنه طفل رقيق المزاج ، فلم يسمحوا له بأكثر من مشاهدة

(١) Théophile Gautier ، كان روائياً وناقداً شهيراً في فرنسا في القرن السادس عشر . وعمل قد بعض الوقت كسكرتير (لبرازك) . وكان أيضاً من الشعراء المبدعين (المترجم) .

أولئك الأطفال وهم يلعبون ، ولكنه كان يشتغى دائماً أن يلعب معهم . وقد حفلت تربيته الأولى بقدر كبير من المحرمات التي ترجع إلى أسباب دينية أو أخلاقية . ولما كان والداه رقيقى الحال فقد وجد نفسه عاجزاً عن الحصول على كثير من الأشياء التي يرغبها ، فكان عليه أن يقنع بمجرد مشاهدتها في نوافذ المتاجر التي تباع فيها . ويبدو أنه كان قد كون لنفسه في وقت مبكر من حياته فكرة تلخص في أن معظم الأشياء والحوادث في العالم ليست مما يستطيع أن يمتلكه أو يسهم فيه . وقد تذكر على حين غرة خطاباً كتبه في صدر شبابه إلى صديق له ، قال فيه : « يبدو لى أنى لا ألعب أى دور حقيقى في هذه الحياة ، إذ لست فيها أكثر من متفرج ... » . وقد رد صديقه عليه بقوله : « لست أفهم ما تعنى . أنك ترتاد أما كن ممتعة ، وتقابل أشخاصاً ممن يثيرون الاهتمام . فأنت آخر من يقال عنه إنه مجرد متفرج » .

كذلك تعلم في أوائل حياته أن هناك أشياء أخرى لا ينبغي مشاهدتها ، فقد كان محظوراً عليه أن يقرأ القصص أو يذهب إلى المسرح ، كما حرمت عليه قراءة مؤلفات معينة لم يكن يرضى عنها أبواه لأسباب دينية ، ومنها مؤلفات « دارون ورسكن وكارليل » بوجه خاص . غير أنه اكتشف وسائل خاصة للحصول على تلك الكتب مع عدد آخر من القصص العاطفية وروايات المغامرات ، فكان يقرأها سراً ، في غفلة من أبويه . وهكذا تمكن أثناء مرافقته من قراءة عدد من الكتب أكبر بكثير مما تتسنى قراءته لقرنائه في السن ممن لم يوضعوا مثله تحت الرقابة والحظر . كذلك اكتشف ذلك السحر العجيب الذى تكتسبه أوجه النشاط المختلفة نتيجة للتحريم . وهذا ما لم يدركه سكان الولايات المتحدة إلا في عام ١٩٢٩ .

وهكذا يَستلزم له قراءة تلك الكتب المختلفة أن يحيا في جو خيالى حافل بأنواع النشاط التي حرم منها في العالم الخارجى لأسباب متعددة . وهو يذكر تلك

المتعة القوية التي كان يشعر بها عند قراءة قصص « ريذر هجارد »^(١) مثل : « كنوز الملك سليمان » ، و « هي أوعائشة » ، و « ألان كواترمين » ، و « نادا الزنبقة » و « كليوبترا » وغيرها . فأمكنه بذلك أن يستمتع بخبرات لم تكن محظورة عليه في الحياة الواقعية فحسب ، وإنما كانت أيضا تتجاوز دائرة خبرة أولئك الأطفال الذين كانوا أسعد منه حظا فلم يكن آباؤهم يحولون دون إتيانهم أى أمر من الأمور . فما قيمة مباراة عادية في كرة القدم أو الكريكت بالنسبة إلى مخاطر « ألان كواترمين » ورفاقه في مجاهل أفريقيا الغامضة ؟

ولهذا فإنه عندما يفكر في مثل تلك الأمور ينتابه رد فعل عنيف ضد ذلك التحريم الذي كان قد فُرض عليه فرضا ، وكان يجعله يشعر بأنه دون غيره من الكبار الذين كان ياتمر بأمرهم ، وينتهى بنواهيهم ، وأنه دون غيره من الأولاد الذين خلت حياتهم من مثل ذلك القسر والإكراه . وكان هؤلاء الأولاد ، على ما يذكر ، يسخرون منه لعدم مشاركته إياهم في اللعب ، كما كانوا يتحدثون في أعياد الميلاد عن مشاهدتهم لتمثيل الدمى الذي كان محظورا عليه أن يذهب لمشاهدته . غير أن محصولة من الخبرات الفكرية التي كانت أشد إثارة من الألعاب ، وما حفل به ذهنه من مشاهد تفوق في روعتها أى نوع من تمثيل الدمى ، كل هذا لم يخفف من شعور الاستهجان الذي كان يحسه فحسب ، بل جعله أيضا يشعر بتفوق على أولئك الرفاق الذين يجهلون الكتب وأهميتها . بعد ذلك بمدة أصبح إلمامه بمؤلفات دارون وكارليل ورسكن يشعره بأنه أغزر علما من سواه ، وأن نظرتة إلى الحياة أكثر عمقا واتساعا ، وأقل تقيدا ، من أولئك الجملة ذوى الأفق العقلي الضيق ، الذين لم يلقوا قط نظرة على تلك الكتب ، والذين حاولوا دوماً أن يحولوا دون قراءته إياها . فكان رد الفعل لشعوره بدونيته بالنسبة

(1) Sir Rider Haggard.

لزملائه في المدرسة ، أو غيرهم من الكبار ، أنه استطاع الوصول إلى نوع ملائم من التفوق عليهم .

ومما يجدر بالملاحظة أن سرد هذه العناصر المترابطة ، رغم اختزالها ، قد شغل حيزاً يفوق بكثير ذلك الحيز الذي شغله تسجيل حلم اليقظة . ولو أننا كتبنا الحلم كاملاً على الصورة التي قصه بها صاحبه لاحتاج ذلك إلى مكان أكبر . ومع ذلك فإن مادة الحلم ألفت عليه كثيراً من الضوء ، وأثبتت أنه أكثر من مجرد خيال أجوف .

كذلك اكتمل التعبير عن فكرة « الأفراد » ، فإنه لما كانت الحاجة ماسة إليها في المساكن — كما هو الحال دائماً في الحياة العادية — فقد عبر الحلم عنها كذلك في صورة المساكن ، إذ تمكن صاحب الحلم من إقامة مسكن خاص به على الطراز الذي يرغبه ، وفي الجهة التي يريد بها . ولكن يتضح من الشكل الذي تطور به الحلم أن « الأفراد » كان ذا مدلول أعمق من مجرد « العزلة » ، فهو يعنى البعد عن الناس ، والاختلاف عنهم ، كما يعنى فكرة الشخصية المتميزة أيضاً . وكل تلك الأفكار تظهر في جلاء عندما يتخيل الحالم نفسه في صورة الحاكم المطلق الشرقى الذي يرمز إلى جميع تلك الأشياء في نفسه . كذلك يعبر الحلم عما للرجل الذي يقف موقف المتفرج على الناس العاديين من تفوق عظيم على أولئك الذين يرمقونه في عجب وإعجاب عندما يهرعون إلى بيوتهم المألوفة بعد فراغهم من أعمالهم المضنية .

وهناك ترابط آخر على جانب من الأهمية . فإن والديه قد حددا له بدقة أمر اختيار رفاقه ، وكانا يعترضان على كثير منهم ممن قد اختارهم لنفسه ، ويحظران عليه الاتصال بهم . كما كانوا يدعون لزيارتهم أولاداً غيرهم ممن وقع عليهم اختيارهم إما « لطيبة خلقهم » ، وإما لأن آباءهم من نفس مذهبهم الديني . وكان من بين هؤلاء صبي يفيضه الفصلام بوجه خاص ، (ويظهر أن السبب الجوهرى لهذا

البغض يرجع إلى إكراهه على صحبته) . والحاكم المطلق في حلم اليقظة يكون محاطاً بالندماء الذين يقربهم إليه حين يشاء ، وينبذهم عندما يريد .

فيمكننا إذن أن نقول إن هذا الحلم يمثل الحالم في صورة شخص مدهش ليس له نظير . وهو محط إعجاب من يحيطون به ، وإطراء المجتمع عامة . وهذا الإعجاب ليس راجعاً إلى ما يؤديه للغير من أعمال ، بل يرجع إلى شخصه ، وإلى ما يفعله لنفسه .

ومع ذلك فلو أننا سألنا صاحب الحلم عما إذا كان يعتقد فعلاً أنه لا مثيل له ، وأنه يستحق إعجاب البشر جميعاً دون أن يؤدي لهم خدمات على الإطلاق ، فإنه سوف يؤكد أن مثل تلك الفكرة لم تخطر بباله قط . غير أنه عندما يناقش الترابطات المتصلة بحلم اليقظة فإنه يضطر عندئذ إلى الاعتراف بأن ذلك ما يعنيه حلم اليقظة فعلاً . وهو لا يستطيع أن ينسب حلم اليقظة إلى نفسه ، فيصرح أخيراً بأنه لا بد أن يكون قد فكر في نفسه بهذا الشكل المتطرف دون أن يدري . فهو من الناحية الشعورية يعلم أن في استطاعته أن يتوقع الإعجاب إذا ما أدى عملاً يستحقه ، ويعترف بأنه ليس مبرزاً في أية ناحية من النواحي ، ولكن « تقدير الذات »^(١) الذي يعبر عنه حلم اليقظة يختلف عن ذلك التقدير الشعورى الذى وضعه لنفسه .

وهو لم يدرك أن الحاكم المطلق الشرقى الذى ظهر في حلمه له به مثل ذلك الاتصال الوثيق إلا بعد أن ناقش الترابطات المتصلة بالحلم . فكان يستطيع قبل ذلك أن يؤكد أن تلك الصور المفرطة في الغلو في حلم اليقظة لم تكن له هو ، بل لشخص آخر قد تكون صادقة بدرجة ما بالنسبة إليه . غير أنه أدرك الآن أن أفكاره المسرفة عن الحاكم المطلق إنما كانت وسيلة تيسر له التفكير في

(1) Ego Estimate.

نفسه دون حائل . فهو إنما يتخلص بذلك من الرقابة العقلية التي لم تكن لتسمح له بالتفكير في نفسه بمثل تلك الصور .

ومن الجلى أن تقدير الذات الذى كشفنا عنه فى حلم اليقظة مصطبغ بلون الطفولة . وقد لا يدهشنا أن نجد أن العام الأول ، أو العامين الأولين ، فى حياة الابن الأكبر — وهو أيضاً الابن الوحيد فى العائلة — لا بد أن يكون من الفترات التى يكون فيها الطفل محط الإعجاب من أجل ذاته فقط . وهو لا يستطيع أن يدرك أن هذا هو نفس ما يحدث لأى ابن أكبر غيره فى طفولته . كما أنه لم تتيسر له أى فرصة لمقارنة نفسه بغيره من الصغار . وعندما تثير الكلمات الأولى التى ينطق بها ، أو محاولاته الأولى فى المشى ، تلك الدهشة البالغة عند من يحيطون به من الكبار — وتكون تلك الدهشة أقل بكثير مما يحدثه فيما بعد حصوله على درجة علمية ، أو ظفره برقم قياسى فى الرياضة البدنية — فإنه عندئذ لا يعرف سوى الإعجاب وحده ، وما يتسبب عنه من لذة وسرور . ولكنه لا يفهم قط شيئاً عن الظروف التى تجعل له معنى . فهو يدرك أنه أهم شخص فى البيت ، ويسلك سلوكاً يدل على أنه يعتقد أن ذلك الإعجاب حق له . وليس فى وسعنا أن نقول شيئاً عما يفكر فيه ، غير أننا نستطيع أن نقول إن سلوكه يشير إلى اعتقاده بأن الغرض من وجود أبيه وأمه ليس إلا تلبية رغائبه ، وخدمته ، وإطرائه . وهذا يصوره الحاكم المطلق الشرقى تصويراً صادقا .

ولا ينبغى أن نقابل ذلك منه بالاستهجان ، فإنه ليس إلامظهماً من سائر مظاهر مرحلة الطفولة . وينبغى أن ينتقل الطفل من هذه المرحلة إلى مرحلة الغلومة فالمرحلة فالبوغ ، وأن يكمل نموه من جميع النواحي ، لا من الناحية الجسمية وحدها . ويجب أن يصبح « تقدير الذات » عنده هو تقدير الذات عند الرجل الناضج الرشيد . وفى هذه الحالة التى ندرسها لا نجد تقديراً ناضجاً شعورياً للذات ،

بل نجد تقديرًا طفليًا لاشعوريًا ثابتًا ، غير أنه في صراع مع التقدير الناضج المتزن .
وهذا الصراع ظاهر في حلم اليقظة .

ونقول عن هذا التقدير اللاشعوري للذات أنه قد كُبت ، أي أنه قد طُرد من العقل . فالحالم قد أصبح غير شاعر بوجود ذلك التقدير من حيث هو ، كما أنه غير شاعر بطرده من دائرة العقل الواعي . فالكبت عملية لاشعورية . والمادة المكبوتة لاشعورية كذلك . وهي لا تصبح شعورية في العادة إلا في صورة ملتوية . لذلك يمكننا أن ننظر إلى حلم اليقظة على أنه تعبير مقنع عن عناصر لاشعورية . وقد تكون استجابة الحالم لفكرة حلم اليقظة ، بعد أن يتضح له معناه ، نوعا من الاستهجان الشديد . فهو يصرح بالحقيقة ، ولكنه لا يعترف بأن الفكرة فكرته . وهو إذ ينكر ذلك إنما يكرر بشكل حرفي شعوري ما سبق أن فعله بصورة لاشعورية . فكأنه في الحقيقة يقول : « لست من ذلك الصنف من الناس الذين يفكرون في أنفسهم بهذه الصورة . صحيح أن حلم اليقظة حلمي ، ولكن الفكرة التي يعبر عنها ليست فكرتي » . وقد يضيف إلى ذلك قوله إن من الحق أن يفكر المرء في نفسه مثل هذا التفكير ، أو إن من المحزى أن يقدر الإنسان نفسه ذلك التقدير . أو بعبارة أخرى ، تتنافى فكرة حلم اليقظة مع عملياته الشعورية السوية بوصفه رجلا عاقلا ناضجا متزنا ، وهذا التناقض هو سبب الكبت .

ويدل حدوث حلم اليقظة على انقسام الشخصية إلى شطرين : شطر لاشعوري مصطبغ بلون الطفولة . وآخر شعوري ناضج متزن رشيد . ومثل الفرد في ذلك مثل دولة انقسمت على نفسها ، فهو يستخدم ما عنده من طاقة ليعيد إليها الأمن والنظام . ولولا ذلك الانقسام لأمكنه أن يستغل تلك الطاقة في أعمال إنشائية ، مثلما يحدث في الدولة عندما تنجح في إزالة أسباب التناحر والتنازع بين المواطنين ، فتستطيع بذلك أن توفر جهد قوى رجال الشرطة للإشراف على تنظيم الأعمال

الإنشائية ، وأن تستغل نشاط أكبر عدد ممكن من الأفراد في الإنتاج النافع .
ومن الممكن أن ينظر إلى حلم اليقظة من زاوية أخرى ، فإن كبت الأفكار
التي يدور حولها يجعل من المستحيل على الفرد أن يعبرها انتباهاً . وهذا يشبه
ما يحدث في الحرب عند ما يطمس الرقيب بالمداد الأسود تلك الموضوعات التي
يكون نشرها محظوراً . غير أن الفكرة قد تكون مقنعة تقنياً كافياً فيتسنى
للشخص الذي يجهل حقيقتها أن يفكر فيها ، وأن يشتق منها لذة له ومتمعة .
وقد تفقد الفكرة بعض القوة في تأثيرها بسبب تمويهها ، غير أنها بذلك تستطيع
الحصول على ما قد نسميه حلاً وسطاً .

وقد لا نجدنا كثيراً أن نسردي إسهاب عدداً كبيراً من أحلام اليقظة عند
ذلك الرجل الذي بسطنا حالته ، لأن الفكرة المحورية في كثير من تلك الأحلام
لا تختلف في جوهرها عن الفكرة التي ظهرت في الحلم الذي سجلناه . فالحلم
يظهر في صورة الشخص الذي يعجب به الناس بسبب ما قام به من توضيحات ،
أو ما قدمه من هبات ، أو ما أداه من أعمال . كما يحدث أحياناً أن يقوم شخص
من ذوى المكانة بإطرائه أمام حشد من الناس الذين يعبرون له عن شديد
إعجابهم به .

ويصرّح الرجل نفسه بأن سلوكه في حياته الواقعية يختلف عن أنواع
السلوك التي تظهر في أحلام يقظته . فهو لا يهتم مثلاً بالظهور أمام الناس ، وإن
فعل ذلك فإنما يفعله نافرأً مكرهاً . وهو ممن يكتبون كثيراً ، غير أنه يفضل
نشر ما يكتبه تحت اسم مستعار ، ولا يعلن عن اسمه الحقيقي إلا إذا كان لا بد
من ذلك . كما أنه يتجنب عن قصد عرض موضوعاته عرضاً مسرحياً ، بل يلجأ
إلى العبارات المقتضبة كي يتجنب الإثارة العاطفية . وهذا ينطبق على أحاديثه
وكتاباتاته على السواء . وهو يمتك الكتب التي يختال فيها المؤلف بعرض مادة
سطحية تافهة لا غناء فيها ، كما يدعى أنه لا يسعى وراء إعجاب الناس به أو بأساليبه

الأدبية أو الخطائية ، بل يريد أن ينصبَّ الإعجاب دوماً على مادته وحدها .
وقد يكون في التعبير عن نفسه بهذه الصورة مخلصاً في الظاهر ، فهو يؤمن بأنه
في هذا أقرب ما يكون إلى الحق والصدق .

غير أن هناك فئة أخرى من أحلام يقظته تختلف عن ذلك النوع الذي
أشرنا إليه ، وهي تتمثل في الحلم التالي :

« أنا في الجيش برتبة نقر أو أونباشي ، أو ما شابه ذلك . وقد اعترض
(الباشجاو يش) على أمر أتيت به ، فأرسلني إلى ضابط الفرقة لتوجيه الاتهام إليَّ .
وكان الجميع يعتقدون أنني لا بد معاقب عقاباً صارماً . وليست طبيعة التهمة واضحة
في ذهني تماماً . وبدأ الضابط يتحدث إليَّ في حدة ، فلم أقاطعه بعض الوقت .
ثم أقيت عليه سؤالاً بسيطاً قطع عليه حديثه ، فتوقف عن الكلام وقد انتابته
الحيرة ، إذ ظهرت المسألة أمامه في صورة أخرى لم يكن قد انتبه إليها من قبل ،
وهي صورة لا يجد في اللائحة أو القانون ما ينطبق عليها . سأل (الباشجاو يش)
في ذلك ولكن لم يظفر منه بشيء . وأخيراً رفض الضابط القضية لأنه عجز تماماً
عن السير فيها » .

إن العنصر المشترك في هذه الفئة الأخيرة من أحلام اليقظة التي كانت تظهر
على فترات متقطعة قد امتدت عدة سنوات ، هو استخدام ملاحظة بسيطة كوسيلة
للدفاع عن النفس أمام شخص قوى . « فالإجابة الآتية » ، أو ما يقوم مقامها ،
تؤدي إلى « تحول الغضب » عن الحالم لا عن طريق تهدئة الشخص القوى ،
وإنما بواسطة تجريد ذلك الشخص القوى من القدرة على اتخاذ إجراءات معينة .
وتشبه هذه الملاحظة في صورها المختلفة تلك الحيل السهلة غير المؤذية التي تستخدم
في المصارعة اليابانية . والتي يستطيع الشخص بها أن يحرم خصماً قوياً من قدرته
على الإيذاء .

وتسير أحلام اليقظة التي من هذا الطراز وفق الخطة العامة نفسها في الحلم

السابق ، ولا تختلف إلا فى التفاصيل . ولا يظهر الوسط الحربى فيها إلا نادراً .
فهى فى بعض الأوقات تحدث فى جو مدرسى ، أو فى غرفة امتحان ، أو مكتب ،
أو ناد . وفى جميع هذه الحالات يجد الحالم نفسه فى حالة صراع مع رجل آخر ،
غير أنه يتغلب عليه لا بضربة عنيفة قاضية ، بل بضربة فنية تصيب موضعاً
شديد الحساسية من خصمه فالغلبة إذن غلبة فن لا غلبة قوة .

وعلى الرغم من أن الحلم الذى سردناه يحدث فى الجيش ، فليس له ارتباط
بأى حادثة من الحوادث التى وقعت لصاحبه أثناء خدمته العسكرية (هذا بقدر
ما أمكننا أن تثبت منه) . ويبدو أن حبكة القصة — ونستطيع أن نسمى الحلم
كذلك — قد حدث فيها تعديل من قبل ، وتم اقتباس الجيش كمسرح ملائم لها .
فضابط الفرقة ليس إلا رمزاً للشخص القوى . وإذا تجاوزنا عن صفاته الشخصية ،
فنحن نعلم أنه كان مستظلاً بالقوانين الحربية ، الأمر الذى يجعله ذا سلطة واسعة
على من يكونون تحت قيادته . صحيح إن هناك حدوداً لذلك السلطان ،
غير أن تلك الحدود لا يحتمل أن تكون معروفة لغير جندى فطن خبير .
وحتى ذلك الجندى لا يستطيع أن يحاول مناقشة الضابط فى ذلك إلا بعد أن
يكون متأكداً من موقفه . ويستغل الحالم معرفته هذه فى حلم اليقظة ، فيكشف
عنها فى لباقة ، ولكنه لا يفعل ذلك فى شكل تحدى ، وإنما فى صورة رجاء
للحصول على معلومات . فهو لا يكسب الموقعة لأنه على علم بخسب . بل لأن
غيره جاهل كذلك .

فهذا الحلم ، وكذلك مجموعة الأحلام التى من نوعه ، يوضح لنا مظهراً آخر
من مظاهر الشعور بالدونية الذى كشفنا عنه فى الحلم الأول . ويظهر ذلك الشعور
فى صورة خوف . فالأفراد المتفوقون خطرون ، وسيتبقى خطرهم قائماً حتى ينكشف
ضعف حيلتهم . فمن الضرورى إذن مهاجمتهم وتجريدهم من قوتهم . غير أن
المهجوم ينبغى أن يكون مأمون العاقبة ، فلا تتضمن وسائله استخدام القوة البدنية .

وقد تذكر الرجل عند مناقشة تلك النقطة أن من أوائل القصص التي سردها عليه والده في صغره قصة تدور حول يسوع الطفل وهو يلقي على أئمة اللاهوت في معبد أورشليم أسئلة عجوزا عن إجابتها ، (وقد يجدر بالذكر أن يسوع كان ابناً بكرًا مثل صاحب الحلم) . وقد اكتشف الصبي في وقت مبكر أن لعلم والده حدوداً ، وأن من السهل أن يلقي عليه أسئلة لا يستطيع الإجابة عنها . وقد لاحظ الأستاذ « بوفيه » وآخرون من علماء سيكولوجية الطفل أن عدداً كبيراً من أسئلة الأطفال لا تهدف إلى الحصول على معلومات ، وإنما ترمى إلى أن يثبت الأطفال لأنفسهم أن الكبار أكثر جهلاً مما يظهرون . فكانَّ الطفل يكتسب بتلك الوسائل البريئة في ظاهرها ، العدائية في باطنها ، نوعاً من التفوق .

ولقد كان الاعتقاد السائد منذ بضعة أعوام أن في الإمكان تقسيم الرجال والنساء إلى نمطين متميزين من حيث اختلاف اتجاهاتهم إزاء الحياة ومشاكلها . فالنمط الأول منهم يؤمن بالمهجوم المباشر على تلك المشاكل . أما النمط الثاني فيعتمد على تدبير الخطط . فأفراد النمط الأول يسلكون مثل سلوك « الثور المهاجم » ، في حين يؤمن أفراد النمط الثاني بضرورة التفكير قبل التنفيذ . أولئك يميلون إلى الفعل المباشر ويطلق عليهم « المنبسطون » ^(١) . وهؤلاء ينزعون إلى إحكام التدبير ويسمون « المنطويين » ^(٢) . غير أننا ندرك الآن أن المسألة ليست بهذه البساطة . فإن هناك كثيراً من الناس توحى النظرة السطحية إليهم بأنهم منبسطون ، ولكن الدراسة العميقة تدل في النهاية على أنهم في الحقيقة منطويون . وقد يحدث العكس أيضاً . ومع ذلك فنحن لا نشك إطلاقاً في قيمة التمييز الذي ذكرناه ونفعه . فالأحكام التي بسطناها كانت من النوع الانطوائى ، إذ أنها تكشف عن رجل يعتمد في سلوكه في الحياة على المعرفة وتدبير الخطط ، وليس على الهجوم المباشر . ففي حلم اليقظة الأول نراه مجرد متفرج ، يشاهد سلوك الآخرين ، ويضع الأشياء

(1) Extroverts.

(2) Introverts.

تحت بصرهم ليرى أنواع استجاباتهم . وفي الحلم الثاني نجده يستخدم معلوماته في حرص ومهارة . فكلما الحلمين يسير وفق حياة تمضى في ملاحظة حياة الآخرين ، سواء في الكتب أو في الواقع ، ويوحى بوجود رجل ذى نزعة إلى الانسحاب من العالم الخارجى ، رجل لا يفكر فى العدوان إلا عند ما يشعر أنه قد أصبح فى مركز متفوق على خصمه نتيجة لإلمامه بسائر نواحي الموقف ، وهو إن أتى أمراً من الأمور ، لا يأتيه لأنه يريد أن يعرف نتيجة ذلك ، بل لأنه يريد أن يبرهن على أنه كان متأكداً من تلك النتيجة ، لأنه قد دبر حدوثها من قبل . فالمعرفة عند مثل هذا الشخص تشبه إذن سلاحاً سرياً يصلح للدفاع أو الهجوم . وتشير الأهمية التى يضيفها هذا الرجل على المعرفة إلى الخوف من العالم المحيط به ، والعداء نحوه . ويمكننا أن نرى الدافع الشعورى الذى حفزه إلى الاطلاع الواسع ، وشحن عقله بشتى أنواع المعلومات الغريبة ، فإن هذا النوع غير المألوف من المعرفة هو الذى سوف يتيح له التفوق وقت الأزمات . ولو آمن شخص بمثل هذا الاعتقاد لكان فى استطاعته أن يتذكر كثيراً من حوادث حياته التى تبرر وجود هذه الفكرة عنده . فالرجل لا يهتم بالمعرفة التى تيسر للمرء إتقان عمل من الأعمال بالتعاون مع غيره ، وإنما يهتم بتلك المعرفة التى تجعله فريداً فى علمه ، والتى تجعل فى استطاعته أن يجعل غيره يبدو جاهلاً إذا ما شعر بالعداء نحوه ، أو تمكنه من تجريد خصمه من القوة التى يحاول بها أن يسيطر عليه . وقد لا تكون هذه صورة سارة . فهى ليست صورة للرجل الذى ينال نصيبه من السعادة التى ألّفها أولئك الناس الذين يتصلون به ويتصل بهم ، ولكنها صورة لرجل لديه إحساسات لا شعورية بالتفوق تؤثر فى جميع أفعاله واتجاهاته . فهو يهرب الناس ويشعر نحوهم بالعداء . فى حين أنهم هم كذلك يرفضون الاعتراف بمثل ذلك التفوق الذى يعجز عنه هو ، دون قصد ، فى صور كثيرة . كما أن كثيراً منهم يستطيعون أن يقتحموا بذكائهم حجب نفسه وأستارها .

فيكشفون عن حقيقتها بشكل قد يعجز هو نفسه عن كشفه . غير أننا في نفس الوقت ينبغي لنا بأن نعترف بأن مثل هذا الرجل ، على الرغم من أنه لا يشاطر جيرانه مسراتهم ، وأنه يحيا في وحدة ووحشة ، ويهتم بالكتب أكثر من اهتمامه بالناس ، فإنه قد يكون عضواً نافعاً في المجتمع بشرط أن يكون من ذوى الفطنة الممتازة . فالمعرفة الواسعة ، والقدرة على تدبير الخطط ، قد تؤهلان المرء لمناصب هامة في ميدان الأعمال الخاصة والعامة ، كما أنها قد تؤدي إلى النجاح الذي يرضيها . ومن الواضح أن أسلوب الحياة عند الرجل الذي بسطنا حالته قد نبت في أثناء طفولته المبكرة . فقد كان الابن الأكبر في العائلة ، وكان ينبغي أن يدرك أنه على الرغم من المركز الفريد الذي هيء له في الأسرة ، فإن علاقته بسائر أفراد الأسرة كان لا بد أن يصيبها التعديل بمضى الوقت . كذلك كان لا بد له من أن يتعلم كيف يغير فكرته عن نفسه كما تغير نوع غذائه من لبن الأم إلى سائر أنواع الطعام . فكان من الضروري أن يتم فطامه من أفكار الطفولة حول نفسه . غير أن ميلاد أخيه الأصغر ، وهو لم يتجاوز عامه الثاني ، قد اعترض تلك العملية ، إذ حرمه أخوه ليلاً من مركزه الممتاز ، واغتصبه منه ، مما جعله يشبه أحد أولئك الملوك البائسين المنفيين الذين يقضون عمرهم في ترديد ذكريات حياة عفت عليها يد الزمن والنسيان . فهو كما رأينا يتسكع بشكل لا شعوري حول المركز الذي كان يحتله عند ما كان في الثانية من عمره . وهذا يعتبر « تثبيتاً »^(١) لمرحلة من مراحل النمو التي لم يتجاوزها .

كذلك يمكن بنفس الطريقة أن نتتبع آثار عناصر أخرى في أسلوب الحياة إلى تلك السنوات الأولى من حياته . وقد كان من المألوف إلى وقت قريب أن نتحدث عن العام الأول ، أو الأعوام الثلاثة أو الأربعة الأولى ، على أنها « سنوات التكوين »^(٢) ، إذ كان الاعتقاد السائد أن أسلوباً ثابتاً لا يتغير يتم تكوينه

(1) Fixation.

(2) Formative years.

فى تلك الفترة ، وقد يناله بعض التعديل بمرور الزمن ، غير أن جوهره لن يتغير . وقد دلت الخبرات التى تراكت فى العيادات السيكولوجية فى أعوام طويلة على أن فى ذلك الرأى غلواً وإسرافاً . إذ يمكن للطرق التربوية والعلاجية أن تؤدى إلى تغييرات محسوسة ، عندما يكون ذلك أمراً مرغوباً فيه ، فتزِيل التثبيت ، وتجمع بين النواحي اللاشعورية والنواحي الشعورية فى وحدة منسجمة .

ولو ظل أسلوب الحياة عند ذلك الرجل الذى بسطنا حالته دون تغيير ، فإن فى استطاعتنا أن نرى كيف يمكن استغلاله فى نموه . إذ أنه يكشف لنا عن الدوافع التى أدت إلى إيمانه القراءة ، وحشد المعلومات ، وتدير الخطط . وباستخدام تلك الدوافع نستطيع أن نشجع الرجل على تنمية نفسه وفق خطوط معينة ، بقدر ما يسمح له ذكاؤه بذلك . فيمكنه مثلاً أن يتابع دراسة أنواع غير مألوقة من الأفكار ، أو يتابع بحثاً خاصة ، أو يتوسع فى دراسة موضوعات معينة ، فيستطيع بذلك أن يزيد فى الحصول البشرى من المعرفة ، وذلك أمر قد لا يتسنى لرجل عادى أن يفعله . حتى لو كان من المستطاع تغيير نمط الحياة عنده ، فقد لا يكون من الصواب محاولة ذلك ما لم يجد الرجل صعوبة تامة فى تكيف نفسه للحياة بحيث يحشى عليه من الانهيار ، أو من أن يصبح مصدر تهديد لأمن المجتمع . والطريقة المألوفة لإحداث مثل ذلك التغيير هى مساعدة الرجل على كشف الأمور التى كتبها ، والعمل على إظهارها فى شعوره حتى يكون فى مقدوره ضبطها . وما دام أسلوب الحياة قائماً عند الفرد فإنه يكشف عن نفسه فى ضروب شتى من النشاط . فالرجل يرى نفسه فى حلمه الأول على جانب كبير من القوة والعظمة ، ويرى أن فى استطاعته أن يشبع أشد نزواته إسرافاً ، وأن يحظى بإعجاب الجميع ، ويشغل مركزاً لا نظير له . فهذا الحلم إشباع خيالى لرغبات لا شعورية حبيسة ، وهو نفس ما نجده أيضاً فى حلم يقظته الثانى حيث أمكنه أن يضعف مركز رجل ذى خطر يشغل منصباً ممتازاً ، ويجرده من قدرته على الأذى .

والإشباع هنا قد تم في صورة غير مباشرة لدرجة أن الحالم لا يدرك مدلوله ،
وبالتالى يصبح في وسعه أن يستمتع به ، غير أنه بمجرد أن يفهمه ، أى بمجرد أن
يترجم صورته الملتوية إلى عبارات واضحة بسيطة ، فإنه يتعذر عليه عندئذ أن يفيد
منه أية متعة ، بل سوف يرى فيه حقاً وضلالاً وخروجاً على معايير الأخلاق .
فمتعته به تشبه متعة السيدة التى تأكل أحد طيور الزينة بشرط أن يقدمه لها على
المائدة طاهٍ ماهر يكون قد أتقن طهيهِ وتمويههِ بدرجة تجعلها على جهل تام
بحقيقة ما تأكل .

وليس حلم اليقظة بالوسيلة الوحيدة للتعبير عن الرغبات اللاشعورية الحبيسة ،
إذ قد يجد القارئون بدراسة رسوم الصغار أنها تعبر عن تقدير للذات لا يختلف عن
التقدير الذى يضعه الأطفال لأنفسهم . كما أنهم قد يجدون فيها رغبات لاشعورية
تمَّ إشباعها في شكل صور ذهنية . وهذا ينطبق على أحاديث صغار الأطفال
وثرثرتهم مما أشار إليه الأستاذ (شترن) ، كما ينطبق على القصص التى يتدعونها ويقصونها
على الكبار الذين يظهرون لهم العطف والحنان ، ويصدق كذلك على اللعب
الابتكاري^(١) الذى يستعين الأطفال فيه باللعب وغيرها من أدوات اللهو الأخرى
ليصوغوا الأشياء الخارجية في صور معينة ، وليعالجوا بها مواقف الحياة . وكثيراً
ما يقوم الأطفال بتقليد الكبار ، غير أن تلك المحاكاة ليست طائشة لا مقصد
منها ، بل إنهم يتخذون مثلهم من الرجال والنساء الذين يؤدون أعمالاً تكون
مما قد يفضى إلى إشباع رغباتهم . بهذه الوسائل المختلفة جميعاً يقوم الطفل بنشاطه
الإنشائي ، وهو إما أن يصنع مما يتيسر له من مواد أشياء مادية حقيقية في العالم
الخارجي ، وإما أن يؤلف منها صوراً ذهنية في عالمه الداخلي ، حيث يضع لنفسه
تقديراً صحيحاً ، وحيث يتسنى لرغباته أن تنال الإشباع .

ولست جميع أحلام اليقظة تدور حول الرغبات اللاشعورية وحدها ، فإن

(1) Creative play.

بعضاً منها يكون محوره ذلك الحرمان^(١) الذى يعانىه الأطفال كثيراً بسبب ضآلة حجمهم ، وضعف قوتهم ، وبسبب ما للكبار من سلطان عليهم . فالطفل الذى يمثل دور رجل الشرطة فى لعبه لا يفعل ذلك لأنه ينظر إلى الشرطى على أنه حامل لواء القانون والنظام مما يجعل محاكاته أمراً مرغوباً فيه ، بل لأنه يستطيع أن يصدر الأوامر إلى الكبار (ومنهم أبواه) ، وهى أوامر لا بد من إطاعتها ، وفى نفس الوقت لا يكون فى وسع أحد آخر ، على ما يظهر ، أن يصدر إلى الشرطى أمراً . فأنواع التحريم المختلفة التى يفرضها الأبوان على الطفل تجعله يجد لذة فى التظاهر بأنه مطلق التصرف فى جميع الأمور . وينبغى ألا يغيب عن بالنا أن الطفل مكره على أن يسلك أنواعاً معينة من السلوك لا يدرك الغرض منها حتى ولو فسرناها له . وكثيراً ما ينفذ صبر الوالدين أو المربية من تساؤل الطفل المستمر عن سبب كل ما يطلب إليه عمله ، فتقتصر إجابتهما على قولهما : « السبب هو أنى أقول ذلك » . وهذه الإجابة الصريحة تعنى : « وإن لم تفعل ما آمرك به ، فسوف أجبرك على ذلك . إذ فى وسعى أن أعاقبك ، وأستخدم القوة معك . » (وقد لا يتم التعبير عن هذا فى صراحة) . وفى استطاعتنا أن نجد فى أحلام اليقظة التى سردناها فى هذا الفصل إشارة إلى مثل تلك المواقف . فى الحلم الأول منها نرى الحالم قد وضع نفسه مكان الشخص القادر على إصدار الأوامر التى لا بد للجميع من إطاعتها ، وهو فى الوقت نفسه ليس ممن يتلقون الأوامر من أحد أو يطيعون أحداً . وفى الحلم الثانى نجد أن الشخص الأقل مركزاً ، والأضعف قوة ، يستطيع الغلبة على الشخص الذى فى مقدوره أن يأمر ، وأن يفرض العقاب على من لا يصدع بأوامره . فالرجل (وكان حينئذ راشداً) قد أحل نفسه محل أبيه فى الحلم الأول . على حين أنه فى الحلم الثانى يعارض سلطته .

وقد يدهشنا فى أول الأمر أن نجد الطفل يفكر فى أبيه على أنه شخص

(1) Frustration .

يرغب الطفل في احتلال مكانه ، أو يشتهي أن يحطم سلطانه . ولا شك أن كثيراً من الناس ممن لا يقدرّون أهمية الأدلة ووزنها يستخفون بهذا الرأي ويستنكرونه . وينبغي أن نذكر دوماً أن خبرات الطفل المتصلة بأبيه ليست جميعاً من نوع واحد . فكثير من الكبار يستطيعون أن يذكروا ما كان يحبّوهم به آبائهم من حب وعون وتضحية . كما أن بعضهم ما زال يذكّر كيف أن ضخامة جسم أبيه ، وقوّته وعلمه ، كانت تضطره إما إلى الإعجاب به وحبه ، عند ما كان الأب يستخدم تلك المزايا في خدمة ولده ، وإما إلى الحق عليه والغضب منه عند ما كانت نفس الصفات تجعله يبدو مفرغاً رهيباً . فكيف يستطيع الطفل أن يركب من هذه العناصر المتنافرة وحدة متزنة ؟ لقد كان يصعب على فرسان القصص القديمة أن يؤمنوا بإمكان صنع الدروع من الذهب والفضة معا ، وبالمثل يصعب على الطفل أن يفهم أنه من الممكن أن يكون أبوه طيباً عطوفاً ، ومخيفاً في نفس الوقت ، أو أن يدرك أن في استطاعته الشعور بالخوف والحب معا نحو شخص واحد . ومن المحتمل أن تكون قصص الوحوش الخيفة التي تنقلب إلى أمير محبوب عند ذكر كلمات معينة ، أو قصص الحيوانات البغيضة التي تتحول إلى أميرة فاتنة بمجرد أن يظهر لها أحد الناس حبّه ، قد اشتقت من مواقف الطفولة هذه ، ومن مشاكل الأطفال .

يمكننا إذن أن نجد في حلم اليقظة اتجاهها حيال الأب يبقى منذ الطفولة مع الفرد حتى بعد أن تتقدم به السن . فتفكير الحالم في أبيه يكون مصطبغاً بالحب والحنان لأنه يتذكر كثيراً من تضحياته ، وأعماله الرائعة ، ويدرك أنه كان بوجه عام يستحق كل ما وقع عليه من عقاب . وتقديره الشعوري لأبيه لا يظهر فيه أى نوع من العدا الذي نجده في حلم اليقظة . ولكن هذا العدا يظل كامناً ، وينتقل في الحياة العادية إلى أفراد آخرين ، أو إلى أعمال ومواقف تكون علاقتها بالحالم ورغباته مثل تلك العلاقة التي كانت بين نفسه وبين أبيه عند ما كان

طفلاً . لذلك كانت اتجاهاته نحو الجيش وقوانينه ورؤسائه من الضباط ، فى أثناء خدمته الحربية ، هى عموماً ما أدى إلى حلم اليقظة ، وهذا نفسه يصدق على الأعمال المختلفة التى كان عليه أن يؤديها فى الحياة ، فهو يعكف عليها ، ويهتم بها ، ويبدل قصارى جهده فى أدائها ما دامت جديدة ، ولكن بمجرد الشعور بأنها قد أصبحت عملاً مألوفاً مفروضاً عليه أدائه ، فإنه يثور عليها ، ويهجرها إلى أعمال أخرى .

إن ما ذكرناه يكفى لتوضيح وظيفة حلم اليقظة وصورته الجوهرية . واستطيع أن نوجز كل ذلك فى قولنا إن أحلام اليقظة :

- ١ — تصوّر الإشباع الفكرى للطلبات اللاشعورية المكبوتة .
- ٢ — تعنى وجود تقدير لا شعورى للذات ، يتعارض مع التقدير الشعورى الذى يضعه الشخص لنفسه .
- ٣ — تنطوى على اتجاه نحو العالم (أى فلسفة للحياة) تختلف عن الاتجاه الشعورى عند الفرد .
- ٤ — تكون وسائط هامة بين الدوافع والنشاط المحسوس .
- ٥ — تنزع إلى احتكار الانتباه إلا إذا قصد كتبها ، وعندئذ يتحول الانتباه عنها إلى العالم الواقعى .
- ٦ — محاولة تفسيرها بطريقة « التداعى الطليق » خليقة أن تؤدى إلى فهم خبرات الطفولة . وإن توضح لنا أن بناءها إنما يقوم على أساس طفلى .

الفصل الثالث

رفقاء الخيال^(١)

ليس من الصعب أن نعرف الكثير عن أحلام اليقظة عند الأطفال ، فإنهم يتحدثون عنها دون حرج أمام الكبار الذين يقوم بينهم وبين أولئك الأطفال نوع من التعاطف والتآلف . ولا يرجع حديث الطفل عن أحلام اليقظة إلى حاجته إلى التشجيع والأعجاب ، بل إلى شعوره بأن في استطاعته أن يسترسل في الحديث دون حرج ، ودون أن يخشى سخرية أحد .

غير أن الأمر يختلف في حالة الراشدين وصغار الأطفال . فضعف القدرة على الكلام عند الصغار هي التي تجعلهم عاجزين عن أن يعبروا تعبيراً لفظياً ملائماً عما يمكنهم التعبير عنه عملياً . أما الصعوبة عند المراهقين والراشدين فهي على الأجمال أن أحلام يقظتهم تشمل أشياء معينة يرون فيها سرّاً خاصاً بهم لا ينبغي لأحد أن يطلع عليه ، وأشياء أخرى قد كتبت فأصبح من المتعذر تذكرها وقصّها .

ويحدثنا و . ه . هـسون^(٢) في كتبه عن تلك الساعات الطويلة التي كان يقضيها مضطجماً في ظل الأشجار ، والماشية ترعى من حوله . وعندما يشعر أن وقت الرحيل قد حان ، فإنه حينئذ يدرك فجأة أن عدداً من الساعات قد مضى ، وأنه قد قضى كل هذا الوقت في التفكير . غير أنه كان لا يستطيع أن يسترجع ما انساب في عقله من أفكار . ومن المحتمل أن تكون هذه الخبرة من الخبرات المألوفة لكثير منا ، فهي نوع متطرف من أحلام اليقظة التي وقع عليها اختيارنا

(1) Imaginary Companions.

(2) W. H. Hudson.

للدراسة . ففي مشهد ضابط الفرقة في الحلم السابق ذكره ، نلمس نقصاً في بعض النواحي يرجع إلى نسيان عناصر معينة . فماذا كانت التهمة التي وجهها (الباشجاو يش) إلى الرجل مثلاً ؟ وما نوع تعنيف ضابط الفرقة ؟ وما السؤال الذي ألقاه للمتهم على الضابط ؟ تلك جميعاً أسئلة أخفق صاحب الحلم في الإجابة عنها ، لأنه ، على ما يظهر ، لم يكن في مقدوره تذكرها . وهذا راجع إلى أثر الكبت .

وقد يكون الكبت تاماً ، كما هو الحال في تلك المناسبات التي ذكرها «هدسون» ، كما أنه قد يكون جزئياً . وفي كلتا الحالتين تعترضنا صعوبة الحصول على تقرير كامل دقيق عن كل ما حدث أثناء فترة الحلم . وقد يحدث في بعض الأحيان أن يحس صاحب الحلم وجود ثغرات تُفكِّك من وحدة حلمه ، فيكملها من عنده حتى يظهر الحلم في النهاية وكأنه قصة كاملة . وقد يتم ذلك شعورياً ، غير أن الأكثر احتمالاً أنه يتم بشكل لا شعورى أثناء محاولة الحالم استرجاع حلمه . وهذا ما يطلق عليه اسم «التنسيق» ^(١) الذي يكون الغرض منه ضم العناصر الجزئية المتفرقة في وحدة كلية متماسكة . ومثل ذلك مثل رجل جاءه خطاب قد مر على الرقيب ، فكان على الرجل أن يحاول أن يكمل من عنده ما قد طمسه قلم الرقيب . فكل ما يتأكد منه في النهاية هو أن الخطاب معنى ، ولكنه لن يكون قط على ثقة تامة من أنه قد توصل إلى المعنى الأصلي . فالتنسيق محاولة لإصلاح ما أفسده الكبت ، ودليل آخر على ما بالعقل من انقسام داخلي .

وفي الحالات التي يكون الكبت فيها قليلاً ، يستطيع الحالم استرجاع عناصر كثيرة قد لا يرغب في افشائها . فالذين يحبون حياة الورع والتقوى يتخيلون أنفسهم أحياناً وهم يرتكبون أعمال العنف والقسوة ، أو يأتون أموراً تناقض المعايير الخلقية التي اعتادوا الاسترشاد بها في سلوكهم . وقد ألف بعض الناس فيما مضى أن ينسبوا مثل هذه التخيلات لا إلى أنفسهم ، بل إلى الشيطان ، أى

(1) Secondary elaboration.

أنهم كانوا يرون فيها نوعاً من « الغواية » ، لذلك كان عليهم أن يكافحوها حتى يتغلبوا عليها ، وهذا يتطلب استرجاعها مرة بعد أخرى ، والتفكير فيها كثيراً ، كما يتضمن سردها على أناس آخرين في صورة اعتراف أو شهادة . أما الذين يعتقدون أنها ليست سوى نتاج عقولهم فإنهم يميلون عادة إلى الاحتفاظ بها لأنفسهم ، فلا يعلم الناس عنها شيئاً إلا فيما ينشرونه عليهم من كتب .

ويجب ألا تغيب هذه الأمور عن بالنا عندما نقرأ التقارير المختلفة عن أحلام اليقظة ، وخصوصاً عندما تكون تلك الأحلام قد جمعت بقصد الدراسة الإحصائية ، فإذا أردنا مثلاً أن نذكر أن أحلام اليقظة عند المراهقين تخلو من عناصر معينة ، فينبغي أن نتوخى جانب الدقة والحذر في التعبير ، فنقول : « فشلت الأسئلة التي وجهت إلى عدد كبير من المراهقين حول أحلام يقظتهم في الكشف عن أن واحداً من تلك الأحلام يدور حول هذه الفكرة أو تلك . . » وقد حدث أن أحد الذين طلب منهم الإجابة عن استخبار^(١) في هذا الموضوع قال ، رداً على تحدى شخص يثق به أكثر مما كان يثق بصاحب الاستخبار ، إن أحلام يقظته كانت في الحقيقة تدور حول الفكرة التي أنكرها في إجابته ، وأضاف إلى ذلك قوله بأن هذا الأمر لا يقتصر عليه وحده بل ينطبق أيضاً على سائر أصدقائه ، إذ لم يكن من المحتمل أن يذكر أحدهم مثل ذلك في صراحة .

وهناك من الناس من يكونون أقل تحفظاً . وهؤلاء يبدو عليهم أنهم لا يحاولون إخفاء شيء عندما يتحدثون بحرية ظاهرة عن أحلام يقظتهم . غير أنهم كثيراً ما يقولون في نهاية حديثهم : « أرجو ألا تنظن أنني أفكر في مثل هذه الأمور تفكيراً جدياً ، فأني في الحقيقة أعتقد أنها في منتهى السخف . ولست أدرى كيف طرأت على ذهني ، فهي تختلف اختلافاً بيناً عن أفكارى الحقيقية . . » أو يقولون : « إنني أقص عليك هذه الأشياء لاهتمامك العلمي بها . ولكنني لست

(1) Questionnaire.

أعلم سبباً يدعوك إلى ذلك الاهتمام إطلاقاً ، إذ أنى لا أرى فيها سوى هراء ... »
وقد استطعنا من دراستنا السابقة لأشخاص الحالمين أن نكتشف وجود نوعين متطرفين منهم . فهناك أولئك الأفراد الذين لا يبذلون فى الظاهر أى محاولة (شعورية أو لا شعورية) لقمع أحلام يقظتهم أو كتبها ، فهم يستسلمون لها فى أوقات استرخائهم ، ويستمتعون بها دون مواربة ، ويجدون فى تذكرها سروراً ولذة . وهناك أفراد غيرهم ينسون أحلام يقظتهم نسياناً تاماً ، وقد ينكرون حدوثها إطلاقاً . غير أن بعضاً منهم يتذكرونها كلها أو بعضها ، ويكونون متأكدين من أن الخبرة التى مرت بهم كانت من الخبرات الممتعة . لذلك يبدو أن هناك عملية من العمليات اللاشعورية^(١) لحوها من الذاكرة ، وتتوقف هذه العملية فى بعض الحالات ، وتنشط فى عملها فى حالات أخرى . كذلك يمكن أن نعتز على حالات متوسطة ، وهى حالات لأولئك الأفراد الذين يتذكرون حلم اليقظة تذكراً شعورياً ولكنهم يستنكرونه ، أو غيرهم ممن يتجاوزون هذا الحد فيسترجعونه ويتصونه على غيرهم ولكنهم يزدرونه كذلك . كما أن هناك من يسترجعونه ويشعرون بلذة بالغة فى سرده .

والتعليق على تذكر أحلام اليقظة ، أو سردها بعبارات تدل على الاستهجان ، لا يعنى أن صاحب تلك الأحلام لم يتمتع بها فى حينها . فقد لوحظ فى بعض الجهات التى تتألف فيها لجنة لفحص الأفلام قبل عرضها أن كثيراً من الناس يتقدمون لعضوية هذه اللجنة ، مما يدل على أن أولئك الأفراد يرغبون فى مشاهدة تلك الأفلام ولكنهم لا يعترفون بذلك . بل ينتهزون الفرصة الملائمة ليقنعوا غيرهم (وربما أنفسهم كذلك) بأنهم إذ يشاهدون مثل هذه الأفلام إنما يتطوعون بتضحية أنفسهم فى سبيل الصالح العام . فهم إذن لا يسمحون لأنفسهم بالاستمتاع الصريح بمسرات الحياة . ولذلك فإن الصراع الذى يقوم بين الجانب

(1) Unconscious Mechanisms.

الذى يشتهى اللذة ، والجانب الذى يحاول دوماً كبت هذه الرغبة القوية ، من شأنه أن يحول الشعور باللذة إلى انفعال مؤلم معقد من القلق أو الخوف والانزعاج . ويظهر ذلك فى صورة أقل حدة عند الفرد الذى يعتقد فى نفسه أنه متزن التفكير ، ولذلك فإن الألم ينتابه عند يكتشف أن عقله ينشغل بأمور خيالية سخيفة فى لحظات الاسترخاء .

ويوحى اختلاف درجة النجاح فى عملية النسيان اللاشعورية التى تتصل بجانب واحد من النفس بوجود فروق فى درجة النمو فى جوانب النفس . فالنفس التى تحلم تبدو كما لو كانت أكثر سذاجة من النفس التى تعارض فى حدوث الحلم . ويؤيد ذلك ما نراه فى حلم اليقظة ذاته من سذاجة وطفولة . أما عملية النسيان فيبدو أنها تتكون أثناء نمو الفرد ، وقد تتوقف إلى حد كبير على الخبرة والمران . وما دام الأمر كذلك ، فينبغى أن نتوقع أن يكون الأطفال أكثر سذاجة فى استمتاعهم بحلم اليقظة ، وأشد صراحة فى قصّه ، وأقل شعوراً بالحرج عند ذكره . ومما يضيق كثيراً من الآباء أن يروا أبناءهم ينظرون إلى تخيلاتهم على أنها حقيقية تماماً مثل ما فى العالم الواقعى من أشياء . فالطفل لا يقول : « إني كنت أفكر فى أسد أثناء لعبى فى الحديقة » ، بل يقول : « رأيت أسداً فى الحديقة هذا الصباح » . ويبدو مثل هذا الطفل فى نظر الكبار الذين لم يخبروا تلك الأمور خبرة دقيقة كما لو كان الطفل مصاباً بضعف التمييز بين الحقيقة والخيال ، أو بالكذب ، فيرون ضرورة علاجه أو عقابه أو تعويده النظام .

فلو أردنا أن نقوم بدراسة أشد صور أحلام اليقظة بساطة ، وأكثرها بداءة ، فلن نجد ما يلائم غرضنا أكثر من أحلام اليقظة عند الطفل الصغير . غير أننا ينبغى ألا ننسى أن هناك صعوبات تكتنف مثل هذه الدراسة ، فإن الطفل يعجز بسبب قصوره فى استعمال اللغة الدقيقة المفهومة عن قص أبسط أحلام يقظته . وهذا يضطرنا إلى الاعتماد على ملاحظة السلوك الظاهرى ، ولكننا لا نستطيع

مع هذا في كثير من الأحيان أن تؤكد تخيل الطفل لأشياء معينة ، بل إن كل ما يمكننا قوله هو أن سلوك الطفل يدفعنا إلى الاعتقاد بوجود مثل هذه التخيلات عنده .

وقد لاحظنا من قبل أن الشخص الراشد عند ما يريد أن يخرج ما تراه له في أحلام اليقظة إلى حيز العمل ، كما حدث مثلاً في حالة بائعة اللبن ، فإنه يدرك حينئذ أن ما كان يعتقد أنه حقيقة لم يكن إلا خيالاً لم يخرج من دائرة الفكر إلى حيز العمل والتنفيذ . فهو يكون شاعراً « بادعائه » و « تظاهره » و « تمثيله » . ويختلف اللعب عن حلم اليقظة في أن في الإمكان الاعتقاد بصدق حلم اليقظة وقبوله على أنه حقيقة . على حين يدرك اللاعب دائماً أن لعبه هذا ليس واقعياً . وقد تحتاج هذه العبارة إلى قليل من التعديل في بعض الحالات المتطرفة ، غير أن هناك شبه إجماع على أن الاستسلام التام لحلم اليقظة مألوف بصورة تتجاوز كثيراً الاستسلام التام للعب . ويحدث عادة في حالة الراشدين على الأقل ، أن ينتهي حلم اليقظة بمجرد انتقاله إلى مرحلة التنفيذ الفعلي ، إذ يصبح الحالم عندئذ شاعراً بالعالم الواقعي المحيط به .

ومن الخصائص الشيقة في صفار الأطفال الذين تقرب سنهم من الثالثة أنهم يقومون بلعبهم كما لو أن أطفالاً آخرين يكونون موجودين معهم^(١) ، فاللعب أمام « رفقاء الخيال » أمر مألوف بدرجة كبيرة بين الأطفال الانجليز ، بل ربما كان كذلك عند سائر الأطفال في أنحاء العالم . وهو يحدث كذلك في مصر ، وإن لم تنشر عنه حتى الآن بحوث منظمة .

وقد يعتقد البعض أن ذلك اللعب مقصور على الأطفال الوحيدين ، ولكن هذا يخالف الحقيقة ، كما أنه لا يوجد دليل على أنه مألوف لأولئك الأطفال أكثر

(١) نجد أمثلة كثيرة لذلك في كتاب « التحليل النفسي في حجرة الدراسة » لنفس المؤلف . وقد ترجمناه إلى العربية ، وهو الآن تحت الطبع . (المترجم)

ما هو مألوف لغيرهم ممن يعيشون في أسر كبيرة . ومع ذلك ينبغي أن نذكر دائماً أن في الإمكان أن ننظر إلى الأطفال جميعاً على أنهم « وحيدون » ، فقليل منهم جداً من يكون له إخوة أو أخوات من سنه . وليس لدينا معلومات مسجلة عن سلوك التوائم ، سواء أكانوا ثنائيين ، أم ثلاثيين ، أم رباعيين ، أم خماسيين . وحتى في العائلات الكبيرة نجد أن الأطفال في حداتهم لا يسمح لهم باللعب مع من يصغرونهم سنّاً ، وفي الوقت نفسه يكون للمتقدمين عنهم في السن رفاقهم وميولهم الخاصة بهم . ويذكر رب أسرة له من الأولاد ثلاثة عشر طفلاً أنه قد دهش عند ما تبين له أن كل واحد من أطفاله كان له رقاء خيال وهو في حوالى سن الثالثة ، وما زال أصغر أطفاله يلعب مع أحدهم . وترجع دهشة الرجل إلى أنه ما كان يعتقد قط أن أطفاله كانوا في حاجة إلى ابتداء أولئك الرفاق .

ولن يساعدنا في فهم هذه المشكلة أن نعزو مثل هذا النشاط إلى حب الادعاء . فالطفل يريد رفيقاً من طراز معين . وهو يرغب في أشياء لن يحصل عليها إلا من مثل ذلك الرفيق . وكلما استطاع الطفل أن يصوغ رغبة من رغباته هذه في صورة محدودة فإنه يزداد بذلك اقتراباً من تحقيقها . ومن المعروف أننا قد لا نستطيع تحديد مشكلة ما دون أن يقر بنا ذلك من حلها قريباً محسوساً . أو كما يقول باسكال في « التأملات » : « ما كان في وسعك أن تسعى إلى إلا إذا كنت قد وجدتني من قبل . » والطفل لا يمكنه أن يصوغ لنفسه طلباً بسيطاً كالآتي مثلاً : « أريد شخصاً يلعب معي » ، أو « أريد شخصاً يساعدني » أو « أريد شخصاً ينفذ ما أمره به » ، دون أن يتخيل في نفس الوقت أن ذلك الشخص يلعب معه فعلاً ، أو يساعده ، أو يأتمر بأمره . وهو لا يحتاج إلى التعبير عن ذلك عادة بالألفاظ .

ويظهر اللعب مع رقاء الخيال ، في العادة ، في ثنايا شذرات من الحديث . فالطفل يتكلم أثناء لعبه ، ويكون هذا الحديث — على ما يبدو — موجهاً إلى

طفل آخر ، أو إلى شخص كبير كما يحدث أحياناً . وعند ما يتناهى ذلك الحديث إلى سمع الآباء وهم في حجرة أخرى فإنهم قد يعتقدون بوجود طفل آخر مع ولدهم . وإذا سألوه مثلاً : « مع من كنت تتحدث ؟ » فإنه قد يجيب بصبر نافذ في أغلب الأحيان : « أوه ! إنها لم تكن سوى طفلة صغيرة . » وقد تكون الإجابة أكثر تحديداً إذ يقول الطفل : « إنها (سبيل) ... طفلة صغيرة تأتي إلى هنا لتلعب معي » .

وينبغي على الآباء وغيرهم ألا يكشفوا للطفل عما قد يحسونه من فضول وحب استطلاع . فإنهم إذا سألوه عن سن رفيقة الخيال واسمها وملبسها ومحل إقامتها ووالديها فإن الطفل سوف يشكر لهم هذه المعلومات التي ليست أصلاً من العناصر الأساسية التي خلقها الطفل لإشباع بعض حاجاته ، وإنما يبتدعها لإشباع فضول أبويه . وإذا تركنا مثل هذه المثيرات المصطنعة جانباً ، فإننا كثيراً ما نجد أن الطفل يضيف عناصر جديدة إلى الحالة الأصلية . فقد يطلق على رفاق خياله أسماء وألقاباً ، كما أن صفاتهم البدنية وسماتهم العقلية قد تتطور وفقاً لحاجات الطفل ، ويُسائر تطورها تدرج تلك الحاجات في الظهور أثناء اللعب .

وهكذا نستطيع منذ البداية أن نرى أن رفقاء الخيال يؤدون دوراً سيكولوجياً هاماً في لعب الطفل . فالطفل يصدر لرفيق خياله الأمر الآتي مثلاً : « ضع هذه القطعة الخشبية هنا » ، ثم يحركها بنفسه إلى المكان المطلوب ، وبذلك يشبع في نفسه الرغبة في إطاعة الغير له . وقد يرى أنه قد وضع القطعة في غير موضعها ، فينقلها ثانياً وهو يقول لرفيق خياله : « أنت غبي ، فقد وضعتها في المكان الخاطئ » . انظر . . هذا هو مكانها الصحيح » ، ويشبع بذلك رغبته في أن يكون على صواب ، وفي أن يلقي اللوم على غيره . ومن الواضح أن الطفل يعوض هنا عن بعض ما كان يلاقه من حرمان في حياته الواقعية حيث يكون عليه هو أن يطيع ، وأن يتقبل اللوم على غبائه ، وأن يقال له إن ما فعله كان خاطئاً .

ويبدو أن هناك فرقاً كبيراً بين ابتداء الطفل رفقاء في الخيال ، وبين معاملة الدمي كما لو أنها كانت مخلوقات حية ، لها من الخصائص ما يشتهي الطفل أن يتحلى به رفاقه في اللعب . ولو أدركنا ذلك فلن نجد كبير صعوبة في فهم سبب ذلك التعلق الشديد الذي يبديه الأطفال نحو دمية لا تشبه الحقيقة في شيء ، إذ لا تكون أكثر من حزمة من فضلات الثياب ، أو قطعة من الخشب ، مع قلة اكترائهم في الوقت نفسه بدمية أخرى متقنة الصنع . ويرجع السبب في ذلك إلى أن الطفل يستطيع أن يتصور أن ذلك الشكل البدائي غير المهذب هو بالضبط ما يريد أن تكون عليه دميته . أما إذا كانت الدمية قريبة الشبه جداً بالواقع فإنه يصعب عليه عندئذ أن يتخيل أنها شيء آخر غير ما تكونه فعلاً . وبالطريقة نفسها تصبح قطعة الخشب في نظره سيارة لإطفاء الحريق ، أو سيارة عامة ، أو قاطرة ، أو عربة بريد . على حين أنه لا يستطيع أن يتخيل في أحد النماذج المتقنة للقاطرات شيئاً آخر غير القاطرة . فقد يتخيلها منطلقة في رحلات طويلة تحمل الأمتعة والمسافرين ، ولكنها تظل دائماً في نظره قاطرة ولا شيء غير ذلك . فواقعيتهما الشديدة تكون عقبة في سبيل انطلاق خياله . وهذا أمر ينطبق على كثير من اللعب القريبة الشبه جداً بالأشياء الحقيقية .

ويميل الطفل بوجه عام إلى إطلاق اسم على رفيق خياله . وعلى الرغم من أنه لم يتيسر لنا حتى الآن الحصول على معلومات مسجلة عن هذه النقطة ، فإنه يظهر مما أمكن ملاحظته من الحقائق أن الاسم يندر أن يكون من بين الأسماء التي صادفها الطفل في دائرة معارفه من قبل . ويبدو أن السبب في ذلك بسيط ، إذ يحتمل جداً أن يعتبر الطفل أن الاسم وحامله شيء واحد ، فهو يشبه بذلك الرجل البدائي . فإطلاق اسم حقيقي على رفيق الخيال خليك أن يجعل من رفيق الخيال ذلك الشخص نفسه . ومع ذلك فليس رفيق الخيال شخصاً حقيقياً ، إذ لو أن شخصاً حقيقياً أشبع رغبات الطفل ، لزال ذلك حاجته إلى تخيل رفيق . ومن

أمثلة ذلك أن بنتاً صغيرة قصت ذات مرة ليلة عيد الميلاد في مرح وسرور لدى عائلة تدعى (بينكس) . وقد أعقب ذلك بمدة قصيرة أنها ابتدعت لنفسها رفيقة خيالية أسمتها (نللى بينكس) . كان أبواها لا يذكران أنها التقت في مكان ما بأى فتاة تحمل اسم (نللى) . كما لم يكن بين أفراد أسرة (بينكس) من كانت تسمى بذلك الاسم . فيبدو أن رفيقة الخيال هذه تعبر عن إشباع عدد من الرغبات أمكن للعائلة أن تشبعها ، وعدد آخر لم يتسن لها إشباعه . فشخصية (نللى بينكس) المزعجة جعلت في وسع الطفلة أن تتجاوز حدود السعادة التي عثرت عليها خارج بيتها ، دون أن تغادر منزلها وأدوات لعبها^(١) .

فإطلاق اسم على رفيق الخيال يشير إلى مرحلة هامة من مراحل تطوره . فإذا كان الرفيق في بادئ الأمر غامض المعالم ، متغير السمات من وقت لآخر ، فإنه بمجرد حصوله على اسم يصبح ثابت الشخصية ، محدود الصفات . وهذا يعنى انقضاء مرحلة التجريب ، أو بعبارة أخرى يعنى أن الطفل أصبح يعلم ما يريده ، وأنه استطاع أن يحدد فكرته عن نفسه . وقد أشار أدلر في كتاب « التكوين العصابى »^(٢) إلى أن الطفل عندما يبلغ الثالثة يكون قد كوّن فكرة معينة عن نفسه . ويتفق هذا الرأى مع ما سبق قوله هنا . فلاعب الطفل مع رفاق الخيال يتضمن تقديراً للذات .

وينبغى أن يُلْقَى نشاط الطفل في هذه المرحلة ضوءاً قوياً على مسألة لها أهمية نفسية كبيرة ، وهى إدراك الطفل لذاته كشخص . وقد وجه كثير من علماء النفس في السنوات الأخيرة عنايتهم إلى حل المشاكل المختلفة المتصلة بطبيعة الشخصية وقياسها . وقد يأتى الوقت الذى نستطيع فيه أن نصف شخصية رجل بنفس الدقة التى يمكننا أن نصف بها الآن جسمه . غير أننا نود أن نعرف

(١) هذه الحالة مفصلة تحت عنوان « الحالة الخامسة » فى الفصل الثانى من كتاب « التحليل النفسى فى حجرة الدراسة » للمؤلف .
(الترجم)

Alfred Adler : The Neurotic Constitution' (2)

إلى أى حد تتفق مثل هذه الصورة التى نرسمها له مع الصورة التى رسمها لنفسه .
لا شك أن هناك عدداً من الحالات يكاد تقدير الرجل لنفسه فيها أن يكون
منطبقاً على الحقيقة الموضوعية ، مما يجعله قادراً على أن يلائم بين نفسه وبين الواقع .
غير أن هناك حالات كثيرة أخرى ينحرف تقدير الذات فيها عن الحقيقة انحرافاً
يضطر الفرد إلى ابتداع أمور خيالية عن العالم الواقعى وخبراته مما يجعله يستطيع
أن يصلح من ذلك التباين الواضح . ويمكن أن نكتشف فى مطالب الطفل
من رفقاء خياله أثناء لعبه المبكر بعض الدلائل على مثل تلك الصعوبات المستقبلية .
وتظهر الأهمية الوجدانية للأسماء أثناء الطفولة والبلوغ . فقد نجد فى الأعمال
التجارية مثلاً أن رموزاً مثل (ب ١ ٢ ٣) ، أو (ز ح س / ٥٤ / ١) ،
تكون من الوجهة العملية أكثر فائدة فى الدلالة على فرد معين من الأسماء المعتادة ،
ومع ذلك فإن كثيراً من الرجال والنساء يكرهون مثل هذه « الرموز » على الرغم
من فائدتها الواضحة ، ويشعرون أنهم بتجردهم من أسمائهم المعتادة يفقدون جزءاً
من فرديتهم . كذلك نجد من بين تقاليد البلوغ عند الأقوام البدائية إطلاق
اسم جديد على الغلام يختلف عن الاسم الذى أطلق عليه عند ميلاده . ويقصد
بذلك الإشارة إلى أنه قد أصبح شخصاً مختلفاً عن ذى قبل . كما أن الذين يعتنقون
مذهباً دينياً جديداً يطلق عليهم عند التعميد ، أو ما يقوم مقامه من الشعائر المماثلة ،
أسماء جديدة تشير إلى أنهم أصبحوا أشخاصاً مختلفين .

وتؤكد كثير من خبرات الطفل المبكرة الأهمية الظاهرة لاسمه . فهو يعرف
عند سماعه إياه أن الناس يتحدثون عنه . وقد يكون على خطأ فى ذلك إذ يقال له :
« لا . إننا نقصد روبرت آخر » ، وعندئذ نراه يلقي أسئلة مختلفة عن روبرت
الآخر هذا مثل : « لماذا سُمى روبرت . إن روبرت اسمى أنا » ، أو : « هل
يشبهنى ؟ لا بد أن يكون كذلك ما دام اسمه مثل اسمى . » ومن الممكن أن
نذكر أمثلة لا حصر لها من هذا النوع ، وهى جميعاً تشير إلى الصعوبة التى يجدها

الطفل في التمييز بين الاسم وصاحبه ، كما تبين مدى التطور الذى يحدث في اتجاه الشخص الراشد حيال الأسماء . ومن المحتمل جداً أن تكون الخرافات المتصلة ببعض الألفاظ الغامضة ، وكذلك استخدام الأسماء في ضروب السحر وما يشبهه تلك الأمور ، قد نشأت في الأصل بهذه الطريقة نفسها .

وتكون بعض الخبرات الأولى المتعلقة باستخدام الاسم سارة . فمن المؤلف مثلاً أن يسأل الضيوف الصغير عن اسمه ، وأن يدخلوا معه في أحاديث يتكرر فيها ذكر ذلك الاسم . غير أن بعض الخبرات الأخرى قد لا تكون سارة ، إذ قد يلجأ صغار الأطفال عند ما يرغبون في امتحان أحدهم إلى السخرية منه بتشويه اسمه ، أو إبداله باسم آخر لا معنى له ، أو اسم ذى مدلول بغيض . وربما أضافوا إليه بعض المقاطع ، أو نطقوا به بنبر خاص : فقد نجد (ويلسن براون) مثلاً أن جماعة من زملاء الدراسة الذين يشعرون نحوه بالعداء أخذوا يشيرون إليه وينشدون في صوت واحد : براوانى .. بوئى .. جوئى .. دوئى .. توئى ... أو ربما يطلق عليه أحدهم اسم « رد » (Red) بدلاً من « براون » (Brown) . وقد يحتج (ويلي) على ذلك بقوله « إنهم يسخرون منى » ، أو : « إنهم يسخرون من اسمى » . وهو لا يرى ثمة فرقاً بين العبارتين .

مثل هذه الخبرات ، مضافاً إليها حالات سوء التفاهم التى تتصل بالأسماء ، تجعل كثيراً من الكبار يحتفظون باتجاهات معينة نحو أسمائهم ، دون أن يكونوا شاعرين بمعناها الحقيقية ، كما أنها قد ترتبط باتجاهات أخرى نحو أسماء الآخرين . كذلك نجد أن اللقب هو بطبيعة الحال اسم الأب ، ولذلك يكون الاتجاه إزاء اللقب مرتبطاً أشد الارتباط بالاتجاه اللاشعورى نحو والد الطفولة . وقد يمكن تفسير الرغبة في نشر المؤلفات ، ومنح الهبات المالية ، وكتابة الخطابات ، دون ذكر اسم صاحبها أو تحت أسماء مستعارة ، تفسيراً معقولاً . غير أن الملمين بدقائق بعض الحالات الفردية يقولون بأن التفسير الحقيقى أعمق من ذلك في الواقع . فاتخاذ

إحدى المؤلفات لنفسها اسم رجل يرجع إلى سبب آخر غير مجرد الاعتقاد بأن كتب المؤلفين من الرجال أكثر رواجاً وانتشاراً . كما أن الدافع إلى اتخاذ الأسماء الرنانة أو الأسماء المستعارة ذات المقطعين هو الظن بأن الاسم الهام يشير إلى شخصية عظيمة .

وكثيراً ما يحدث عند ما يمضى بعض الرجال وقتاً طويلاً في أحد الاجتماعات التي لا تتطلب منهم اهتماماً كبيراً ، أو القيام بدور هام ، أنهم يأخذون في العبث بأقلامهم على ما يكون أمامهم من أوراق . ومن أمثلة ذلك أن مؤلفاً معروفاً اعتاد في مثل هذه المناسبات أن يبدأ في كتابة اسمه كاملاً بحروف كبيرة واضحة ، ثم يرسم حوله إطاراً زخرفياً ، يحيطه بإطار ثان ، ثم ثالث ، وهكذا ، حتى تصبح الورقة كلها إطاراً عظيماً يضم اسمه وحده . ويستحيل علينا أن نرى في مثل ذلك العمل سوى احتجاج من ناحية الرجل على عدم تقدير أهميته في مثل ذلك الاجتماع . فهو يحاول أن يؤكد فرديته وسط هذه النمطية المملة التي لا تجعل منه أكثر من مجرد ترس في آلة إدارية . فأتجاهه الوجداني نحو نفسه هو احتجاج ضد دوره الفعلي في تلك اللحظة . قد يبدو أننا ابتعدنا كثيراً عن موضوع رفقاء الخيال الذين كنا نصفهم ، غير أنه كان من الضروري أن نؤكد مدلول الأسماء عند الطفل ما دام قد تبين أن إطلاق اسم على رفيق الخيال يعتبر من أهم الأمور .

وقد لا يكون الاسم المستعمل لهذا الغرض من أسماء الأعلام التي يكثر استخدامها كاسم أول للشخص ، فنذ بضع سنوات نشرت المثلة (نانسي برايس) كتاباً يضم القصص التي ألقتها طفلتها الصغيرة وهي لم تتجاوز بعد عامها الثالث . وكان من بين شخصيات تلك القصص من يحمل اسم « هيرتو »^(١) أو غيره من الأسماء الغريبة . ومن الممكن أن نتصور أن الطفل يلجأ إلى بعض الكلمات غير المألوفة التي تلتقطها أذناه عنفاً في مناسبات هامة ، فيستخدمها ، دون إدراك معناها

(1) Hibbrtoo.

في تسمية رفقاء خياله . فيحتمل أن يكون أصل « هيرتو » هو « هينرتو »^(١) في العبارة الهامة المعروفة : « قد ساعدنا المولى حتى الآن »^(٢) . وليس هذا في الواقع أكثر من حدس لا نملك من الحقائق ما يؤيده . وقد استخدمت طفلة لفظ « بودى » كاسم لرفيقة خيالها . وكانت تقوم بحركات غريبة تسميها « رقصات » ، وكانت « بودى » المشاهدة الوحيدة لها ، فكان دورها لا يخرج عن الإعجاب بما تؤديه مبتكرتها من أعمال . ولم تستطع أم الطفلة أن تفسر سبب اختيار ابنتها لذلك الاسم^(٣) .

وقد تكون الأسماء التي تخلع على رفقاء الخيال عادية ، مثل ماري ، وسيدل ، وآني ، وتد ، وفرد ، وتشارلي . وقد يضاف في بعض الأحيان لقبه إلى الاسم . ومن أمثلة ذلك أن طفلة ظلت تلعب عدة سنوات مع رفيقة خيالية أسمتها « آني فوكسفورد » ، ولم يكن من بين أقاربها ، أو معارف أسرتها ، من يحمل مثل هذين الاسمين . فلم يكن لدى أبويها أية فكرة عن الطريقة التي توصلت بها إليهما . ومما يبين ذلك حالة فتاة مصرية اصطحب أبوها إلى بيته ذات يوم تلميذاً هندياً كان سلوكه رائعاً حيال الفتاة . فقد فضلها على أخيها الأكبر وأختها الكبرى . وأخذ يلعب معها ويقص عليها بعض القصص ، كما أنه حمل إليها بعض الهدايا . وعند ما غادر الفتى مصر اعتادت الفتاة أن تتظاهر بأنه لا يزال موجوداً معها ، فكانت توجه إليه الحديث كما لو أنه لم يغادر الغرفة . وظلت تستخدمه بالطريقة نفسها التي يستخدم بها الصغار رفاق الخيال . غير أنها كانت دائماً تناديه باسمه الحقيقي . والسبب في ذلك واضح . فقد كانت الفتاة ترغب في وجود الفتى الهندي نفسه . ومن الجلي أن الطفل عند ما يكون الشخص الذي

(1) Hitherto.

(2) « Hitherto hath the Lord helped us »

(3) تجد إشارة إلى هذه الحالة في كتاب « التحليل النفسي في حجرة الدراسة » : للمؤلف : الحالة الثالثة — الفصل الثاني . (المترجم) .

يود وجوده معه أحد معارفه الحقيقيين فإنه يطلق على رفيق الخيال الذى يلعب معه اسماً حقيقياً . فرفيق الخيال ليس مجرد نسخة من شخص حقيقى ، وإنما هو تجسيم لل رغبات ، أى ليس له مقابل دقيق فى حياة الطفل . ويؤكد الاسم تأكيداً قوياً ما فى خيال الطفل من ابتداع ، وهو مظهر مبكر لنشاطه الابتكارى

ومن الأمور الهامة أيضاً تزويد رفقاء الخيال بيت وعائلة ، وإن كان ذلك يقل فى أهميته عن إطلاق أسماء عليها . فالعبرة الآتية مثلاً وصف كامل تقريباً لإحدى رفيقات الخيال : « اسمها مارى . وهى تقيم فى حانوت بالقرب من محطة القطار » . وهذا الوصف أطلقه على رفيقة خياله غلام له أخت تكبره بضع سنوات وتدعى (ماريون) . وقد كانت تلك الأخت من المهتمين بمحطات القطارات . وقد يكون العنصر المشترك بين الاسمين معبراً عن رضى الغلام بشكل جزئى عن شقيقته . ومهما يكن من أمر فإن ابتكار رفيق خيال وهو يعيش فى حانوت بالقرب من محطة القطار يوحى بوجود مجموعة من الرغبات امتزجت جميعاً فى صورة مخلوق واحد . وكان الاسم الذى خلعه الغلام على المحطة هو (راكن)^(١) ، وهذا على ما يظهر تحوير فى اسم (فراتون)^(٢) . وعند ما حاول الأب تصحيح خطأ ابنه بقوله : « لعلك تقصد فراتون » ، أجاب الغلام : « لست أعنى فراتون ، فإن مارى تقطن بالقرب من راكن ، لا من فراتون » . وليس من الصعب أن نجد تفسيراً لهذا ، فقد ذهب الولد قبل ذلك بمدة قصيرة إلى محطة (فراتون) التى كانت من المحطات المزدهجة فى ضواحي بورتسموث ، فوقف على الرصيف ، وقد استغرق اهتمامه مرأى القطر رائحة وغادية أمامه . ولم يلبث أن أبدى رغبته فى أن يسمح له بالصعود إلى القطر لقيادتها بنفسه . وقد تضايق كثيراً عند ما أدرك استحالة ذلك ، فاكتمى بهذا القدر من (فراتون) ، وتبخر اهتمامه بها إلى حد كبير . أما (راكن) الخيالية فأمرها يختلف عن ذلك ، إذ فى استطاعته

(1) Racken

(2) Fräuen

فى تلك المحطة أن يسوق القطر كما يريد . فالمحطة التى شادها فى حجرته هى (راكن) ، لا (فراتون) ، ومارى لا تقطن عند (فراتون) بل عند (راكن) . ولا يكون رفيق الخيال عادة مخلوقاً ثابتاً محدوداً لا يناله التغيير . فقد كانت مارى الخيالية فى بادىء الأمر امرأة ناضجة ، أو طفلة كبيرة تقرب فى العمر من شقيقته ، ولكنها كانت تنقلب فى بعض الأحيان إلى طفلة من سنه . فكان الأمر على ما يظهر يتوقف على نوع الحاجة التى يحسها ، فهو إما أن يكون فى حاجة إلى من يعينه على أداء عمل من الأعمال ، وإما أن يكون فى حاجة إلى من يزامله فى اللعب . ومن المحتمل أن الطفل عند ما تتقدم به السن ، ويصبح واثقاً من مدى قواه وقدراته ، ينمو عنده شعور بالأمن يجعل فى استطاعته أن يجد بنفسه إشباعاً لرغباته . وبذلك تصبح حاجته إلى رفقاء الخيال أقل إلحاحاً عن ذى قبل ، كما أنها فى كثير من الحالات قد تختفى اختفاء تاماً . وقليل جداً من الكبار من يستطيع أن يتذكر تفاصيل عن رفاق خيال طفولته . وهم قد يكونون صادقين عند ما ينكرون تخيلهم لمثل أولئك الرفاق فى وقت من الأوقات إنكاراً تاماً ، لولا أن آباءهم وإخوتهم وأخواتهم يتذكرون تفاصيل كثيرة عن تلك الحالات ، وإن كانوا ينسون كل ما يتعلق بالحالات الخاصة بأنفسهم .

وتختلف الطرق التى يصف بها الصغار رفقاء خيالهم لمن يشقون بهم من الكبار ، وكذلك التفاصيل التى يؤكدونها ، أو التى لا يشيرون إليها إطلاقاً . ولو صيغت الأسئلة التى توجه إليهم فى مثل الصورة الآتية مثلاً : « ما ذا تشبه ؟ هل شعرها فى لون شعرك ؟ ما لون عينيها ؟ » ، فلا شك أننا نحصل فوراً على إجابات عنها ، حتى ولو كانت تلك الإجابات مما يخترعه الطفل لساعته بقصد إشباع فضول سائله . ولسكن إذا اتخذ السؤال الشكل الآتى : « أخبرتنى أمك أن طفلة صغيرة تأتى هنا أحياناً لتلعب معك . أما حدثتنى قايلاً عنها ؟ » ، فإن الطفل يأخذ فى وصفها مبتدئاً بتلك الخصائص التى يعتبرها تفوق غيرها فى الأهمية ،

وقد يكون الإسم هو أول ما يذكره . وقد تقول طفلة مثلاً أن رفيقتها فتاة « تصغى إلىّ عند ما أتحدث » ، و « تلعب معى » ، و « تفعل ما أمرها به » ، وقد تكون « أكبر منى » ، أو أنها « بيضاء البشرة ، ذات شعر ذهبي ، و عيون زرقاء ، و جمال أخاذ » . هذا الوصف الأخير ابتدئته طفلة على جانب كبير من الحسن ، سماء اللون ، ذات عيون بنية . وكانت هذه الطفلة قد سمعت يوماً ما سيدة تقول لأُمها عنها : « يالها من سماء صغيرة ! » . رفيقة الخيال إذن ذات أخرى^(١) ابتدئتها الطفلة كي تعوض بها عما اعتبرته نقصاً شخصياً .

وقد يتضمن الوصف فى بعض الأحيان العبارة الآتية : « إنها شريرة جداً » ، كما أن الطفل أثناء لعبه مع رفيقة خياله قد يلتفت إلى أحد الكبار قائلاً : « أليست (فلانة) عنيدة ؟ إنها ترفض إطاعة أوامرى . » ، ثم يبدأ سلسلة من التأنيب تقوم على أساس خبراته الواقعية .

ما معنى « الشقاوة » فى نظر مثل ذلك الطفل ؟ ربما كانت لا تعنى أكثر من قيامه بتحقيق ما يرغب فيه على الرغم من حظر الوالدين . فالطفلة التى أشرنا إليها جريئة ، وبها ميل إلى عصيان الأوامر ، وهى لا تطيق صبراً على كثير من المحرمات التى تصادفها فى حياتها . وقد قالت لأُمها ذات مرة : « أنت دائماً تقولين لى لا تفعل كذا أو كذا » . كما أنها اكتشفت أن عدداً كبيراً من أوجه النشاط التى تعتبرها لذينة تدخل ضمن الممنوعات ، وأن كثيراً من الأشياء التى تحرمها عليها أمها تسمح لها جديتها بها . ونحن إذ نبحث فى فكرتها عن « الشقاوة » لا نقصد أى تقدير فطرى للخطأ والصواب ، وإنما يهمنا أن نعرف أن الخبرة المحسوسة عند تلك الصغيرة قد دلّتها على أن الكبار الذين يملكون القدرة على الثواب والعقاب ، يحظرون عليها بعض الأمور ، ويسمحون لها ببعض آخر ، ويثيبونها على ضرب معين من السلوك ، ويعاقبونها على ضرب آخر . كذلك

(1) Alter ego.

اكتشفت الطفلة أن « شقاوتها » يمكن أن تكون سلاحاً في يدها ضد أمها ، وهو سلاح يضايق الأم ويؤلمها ، ويظهر لها أحياناً عجزها عن سياسة إبتها . ومنذ عهد بعيد نصح « إيكيتيس » رجلاً ثرياً بالآلا يندفع وراء سورة غضبه إذا ما حطم عبده إناءً ثميناً أمامه ، لأنه يدل بغضبه هذا على أن العبد يستطيع أن يتحكم في حالة سيّده المزاجية ، على حين يعجز السيد نفسه عن ذلك . فغضب السيد يثبت تفوق الخادم عليه . فكان الطفلة الصغيرة قد اكتشفت ما يقرب من ذلك .

فالطفلة إذن قد وجدت فيما يسميه الناس « شقاوة » وسيلة إلى نوع جديد من اللعب : فالأم تقول إنه لا ينبغي فعل هذا الأمر أو ذاك ، والأب يسمح بفعله مشروطاً أن تكون الابنة حسنة السلوك ، والجددة لا ترى مانعاً في عمله إذا كان هذا يتم في سكون . . . وهكذا . . . لذلك يصبح من دواعي التسلية أن تفكر الطفلة في شيء تعمله كي تلاحظ استجابات الآخرين المتباينة . وهكذا أصبحت في وضع يجعلها ترد على أمها بقولها : « إن أبي يسمح لي بفعل ذلك إذا كنت حسنة السلوك ، وقد كنت كذلك فعلاً طيلة هذا الصباح » ، أو تقول لأبيها : « إن جدتي لا تمنع في أن أفعل ذلك كلما أردت : وهي لا تطلب مني إطلاقاً أن أكون حسنة السلوك » . وهذه الخطة من الأمور المعروفة في الشؤون الحربية والسياسية ، حيث نجد الأمم والجماعات الضعيفة تثير بين الدول التي تهدد سلامتها العداء والخصومة . فهل يمكن القول بأن الطفل يكدر سعيه وراء القوة ، متمشياً في ذلك مع رأى بعض علماء النفس في تأويل ذلك السلوك ، أم أنه يحاول فقط أن يضمن لنفسه الأمن في هذا العالم المعقد . لقد تعلمت الطفلة السابقة من بعض أعمال الكبار التي صدرت عنهم دون حكمة أن تتوقع دوماً ثواباً مادياً كنتيجة حتمية للسلوك الحسن ، ولذلك بدأت تطلب معظم الأشياء التي تقع تحت بصرها في متاجر اللعب ، فتقول لمراققيها من الكبار : « أما اشتريت لي هذه اللعبة ؟ »

كما أخذت تلح في طلب أشياء لا تعرف عن طريقة استعمالها شيئاً على الإطلاق ، ومنها مثلاً أنواع من الآلات كانت معروضة ذات مرة في واجهة مكان لشركة هندسية . وعندما تُرفض طلباتها فإن سلوكها كان يتخذ قالباً ثابتاً ، إذ يغبر وجهها ، وتتخلل العبرات صوتها ، ثم تقول في حزن واكتئاب : « ولم لا تشتريها لي ؟ » .

وغالباً ما كانت تلك التجارب تكلل بالنجاح . وبذلك تجمع لديها عدد كبير من اللعب التي كانت تحتفظ بها في دولاب بمنزل جدتها . كذلك لوحظ أنها إذا ما صدها أحد عن أمر من الأمور — كأن لا يسمح لها بأن تفعل شيئاً تريده ، أو تحصل على شيء تطلبه ، أو عندما ينشغل عمها أو عمته عن القراءة لها أو اللعب معها — فإنها تفتح الدولاب ، وتجلس على الأرض بجواره ، ثم تُخرج لعبها واحدة بعد الأخرى ، وترتبها على الأرض حولها . وهي لا تلعب بها وإنما تقتصر على رصّها حولها ، وتأخذ في التحدث أثناء ذلك إلى رقيقة خيالية عن الأشياء التي تملكها ، فتصفها لها ، وتؤكد ملكيتها إيّاها ، كما تذكر أحياناً اسم الشخص الذي حصلت منه عليها . وعندئذ تتغير حالتها المزاجية ، فتتفشم كآبتها ، ويحل محلها بالتدريج المرح والسرور . ويتضح من كل ذلك أنها قد نسيت ما نالها من حرمان في وجود تلك الأشياء التي تذكرها بمناسبات سعيدة حيث كان في استطاعتها أن تفعل ما تشاء ، وأن تثاب على « حسن خلقها » ، وأن يقوم الكبار على خدمتها .

وقد تم التعبير عن ذلك الاتجاه تعبيراً صادقاً في إحدى رؤاها التي قصتها ذات صباح وهي في سن الثالثة . إذ قالت إنها رأت ملاكاً يتناول جيناً ومربي في العشاء . فالطفلة اعتادت في منزلها أن تنال قبل نومها قطعة من البسكويت وكوبا من اللبن . وكثيراً ما كانت تطلب المزيد من ذلك فتقول : « هل أستطيع أن آخذ قليلاً من الجبن مع البسكويت ؟ » أو : « هل يمكنني أن

أضع بعض المربي على البسكويت « . فإذا رُفض طلبها فإنها تقول : « ولكنى كنت اليوم حسنة السلوك جداً » . فالمسألة كلها لعبة في نظرها . ولكن عنصر الجد في تلك اللعبة يظهر في اعتقادها بأنها تستطيع في بعض الأحيان أن تحصل على ما تريد . غير أن أبايها قد لا يكونان في حالة مزاجية حسنة ، فلا سيفان اللعبة ، ولا يتورعان عن التصريح لها بذلك . وإذا ما عاودت الطلب فإنهما قد يحرمانيها مما قد يكونان قد أعطياه إياها من قبل .

وقد تبين من بضع أسئلة أقيمت عليها أن الملاك في نظرها شخص « حسن الخلق » ، وليست « الشقاوة » من خصاله . والحلم ييسر لها الاندماج في ذلك الشخص الفاضل الذي يُثاب على طيبته بالحب والمربي معا ، لا بواحد منهما فقط . فهنا إذن نرى إشباعاً للرغبات مصطبغاً بلون الطفولة . وتلقى الرؤيا كذلك ضوءاً ساطعاً على معنى « حسن الخلق » في نظر الطفلة ، فهو ما يجعل صاحبه ينال الهبات ويحصل على الامتيازات . كما أن بعض المظاهر الأخرى في سلوك الصغيرة تكشف لنا عن معنى « الإثم » عندها ، فهو ما يؤدي إلى عقاب مرتكبه بالحرمان والرفض . فالطفلة حائرة مضطربة إذ ليس هناك إتفاق في الرأي بين أمها وأبيها وجدتها (بغض النظر مؤقتاً عن باقي أفراد الأسرة) على معنى « حسن الخلق » . ويظهر أنهم ليس لديهم مقياس مشترك يقدرّون به ما يستحق الإثابة ، ولذلك تختلف المناسبات التي يعتبر فيها الفعل « إثماً » .

ومن الممكن أن نتخذ من بعض أنواع اللعب مع رفيقة خيالها وسيلة لاختبار ذلك . فهي عندما تلتفت إلى أمها قائلة : « أليست (فلانة) رديئة ؟ إنها تريد أن تفعل كذا أو كذا » فإن استجابة أمها تصبح جزءاً من المعلومات التي تحتزن بعناية لتستخدم فيما بعد . وبمثل ذلك تحصل البنت على رأى جدتها . وعندما تعنفها أمها بعد ذلك على إثباتها أمراً لا ترضى عنه فإنها عندئذ تستطيع أن تقول لها : « لكنك قلت لى في مناسبة سابقة إن ذلك ليس أمراً رديئاً » ،

أو تقول : « أخبرتنى جدتى أن هذا الأمر لا غبار عليه عندما سألتها فى ذلك » .
ونستطيع إذا شئنا أن نفترض مبدأ من مبادئ السلوك ، فنقول إن سلوك
الطفلة يشير إلى « إرادة القوة » . كما يمكننا أيضاً أن نشك فى احتمال أن يكون
هذا السلوك قائماً على مثل ذلك المبدأ ، مفضلين القول بأن الطفل بصفته كائناً
بيولوجياً يكافح فى سبيل البقاء فى عالم يتحكم فيه الكبار الذين يعيش الطفل
بينهم ، ويعترضون سبيل الكثير من نشاطه وفاعليته ، فإنه يكيف نفسه لهذا العالم
قدر استطاعته . ولو وجدنا أن الطفل قد أخطأ فى فهم العالم بشكل أدى إلى نمو
ضروب غير مرغوب فيها من السلوك عنده ، فلن يجديننا نفعاً أن نلجأ إلى مبدأ
عام لتفسيره ، بل ينبغى علينا أن نفهم مشا كل الطفل النوعية ، ونحاول أن نبتدع
له مواقف خاصة تتطلب التكيف الذى سوف يصلح من نمو الطفل وترقيته
بالشكل المطلوب . وها نحن مثلاً أمام طفلة مضطربة حارت فى فهم معنى « حسن
الخلق » الذى طبعه فى ذهنها أفراد مختلفون على صور متنوعة متباينة ، فحاولت
أن تكتشف أنواع السلوك التى تؤدى إلى إثابتها بالهبات والامتيازات . كما نجدها
قد عثرت على وسائل تعينها على إظهار عدائها لأولئك الذين يعترضون سبيل
رغباتها ، أو يعجزون عن مكافأتها .

« فشقاوة » رفيقة الخيال مكنتها من الاستمتاع بنوع من « الشقاوة »
المقنعة ، وفى الوقت نفسه فإنها إذ تعاقب تلك الرفيقة على ما تبديه من سوء السلوك
فإنما تجرب بذلك حسن الخلق . ومن ثم فإنها تبتكر تلك المواقف التى تيسر لها
لذة ارتكاب الخطأ مع البقاء فى دائرة الخلق الطيب ، فتحل لنفسها مشكلة يحار
فيها كثير من الكبار . وهذه يمكن اعتبارها ، بصفة عامة ، مثل اللذة التى
يشتمها القارئ من قصة بوليسية يلعب فيها هو دوراً فى الجريمة ، غير أنه يبقى
فى جانب القانون ، وينتظر بفارغ الصبر اللحظة التى يكتشف فيها أمر المجرم
وتثبت إدانته . وهى مثل اللذة التى يشعر بها أولئك الناس الذين يقرءون بمحض رغبتهم

عن حالات من أعمال القسوة المتناهية مدّعين أن ما يدفعهم إلى ذلك ليس متصلاً بالرغبة في الاستمتاع بما يقرءون ، وإنما بأسباب أخرى تتصل بالفضيلة وحب الخير العام ، وكذلك أولئك الذين يقرءون كتاباً من أول صفحة إلى آخر كلمة فيه ، ثم يعلنون بعد ذلك على صفحات الجرائد مدى ما أثاره فيهم من رعب واستنكار ، ويطلبون مصادرتة على الفور . ومثل هذا يحدث مع الطفل فهو يعنف رفيق خياله ، ويعاقبه ، على أنواع من سوء السلوك اخترعها بنفسه .

وليس في الإمكان ملاحظة مثل هذا اللعب مدة طويلة دون أن يؤدي بنا ذلك إلى التفكير في الاهتمام الشديد الذي يظهره الأطفال نحو الحيوانات ، والدمى الكبيرة ، وبعض أفلام السينما . فالأطفال شديدي الميل إلى أفلام شارلى شابلن الصامتة لأن ما يقوم به من حيل مضحكة يشبه أنواع السلوك المحظورة عليهم إلى حد كبير . ففي إحدى المناسبات مثلاً يحاول شابلن أن يقطع رغيفاً من الخبز إلى حلقات ، بيد أنه يقطعه على شكل حلزوني ، ثم يتظاهر بأن الرغيف قد أصبح مزماراً من الغاب ، مما يكون مثاراً لضحك مشاهديه من الأطفال المعتادين النظام الصارم في آداب المائدة . كذلك تحدث حركات (ميكي ماوس) في المتفرجين التأثير نفسه للأسباب عينها . كما أن جانباً من الوله (باخوان ماركس) ، (لوريل وهاردى) لا يخرج تفسيره عن ذلك .

وليست جاذبية الحيوان في نظر الأطفال أمراً بسيطاً ، بل إنها في الحقيقة مؤلفة من عدة عناصر . وما لا شك فيه أن أحد أسبابها هو أن الحيوان يستطيع أن يفعل أشياء كثيرة يعجز عنها الطفل ، إما لأنها محظورة عليه ، وإما لأنها فوق استطاعته . فالطفل كثيراً ما يشعر بالمضايقة بسبب ضالة جسمه ، وضعف قواه ، وبسبب ما يفرضه عليه الكبار من قواعد السلوك ونظامه . وقد أوضح « مكدوجال » أن المضايقة تثير النزعة إلى المقاتلة وما يصحبها من غضب . فالطفل يشعر على الفور بالعداء ضد والديه ، وقد ينتابه الغضب بسبب قصور

حيلته ، ولكنه يعجز عن تبين الناحية التي يصب عليها جام غضبه . وقد حدث أن بعض الآباء الذين كانوا قد لقنوا أولادهم أن الله هو الذى خلقهم صرّحوا بدهشتهم وألمهم عند ما تبينوا فى أطفالهم ظهور شعور بالعداء نحو الله لأنه لم يخلقهم أفضل مما هم عليه . فكأنهم قد نموا بطريقتهم الخاصة ذلك الاتجاه الذى ورد ذكره فى إحدى رباعيات عمر الخيام على لسان إباء ردىء الصنع يتساءل :
« ماذا ! أهكذا اضطربت يد الخزّاف ؟ » . وقد سأل طفل أمه ذات مرة :
« لم لم يخلقنى الله بحيث أستطيع أن أتسلق مثل القطط ؟ » .

وهكذا كانت المخلوقات التى تطير فى الهواء ، أو تعدو كالبرق الخاطف ، أو تقدر على رفع أحمال ثقيلة ، أو تقفر فوق الحواجز ، أو تتسلق الأشجار ، أو تستطيع إخراج أصوات غريبة مختلفة ، أو تحفر جحوراً فى الأرض ، تكتسب جميعاً أهمية كبيرة فى نظر الطفل الذى يكون قد بدأ يدرك الفرق بين رغباته وبين قدرته على تحقيقها . وهو يستعين بخياله على جعل تلك الحيوانات تؤدى له كل هذه الأعمال ، فيطير مع الطيور ، ويصيد مع القطط ، ويحفر الجحور فى جوف الأرض مع الأرانب ، ويفر من أعدائه مع الفيران عن طريق جحور يعجز الكبار عن مطاردته فيها . وإذا كان الحيوان أليفاً مستأنساً سهل على الطفل أن يشعر بأنه يؤدى تلك الأعمال بنفسه . فيستطيع أن ينسى شعوره بالحرمان والدونية ، وعداءه نحو العالم ، ويمكنه كذلك أن يحس بأن الحيوان جزء من نفسه بشكل ما يندر أن يستطيعه الكبار .

فالطفل بابتداعه رقاء الخيال ، أو بوسائل أخرى شبيهة بذلك ، ينجح فى تجاوز حدود طاقته وتجنب القيود المفروضة عليه ، فرغباته تتحقق فى الواقع والخيال معاً . ولكنه لما كان بعد قاصراً عن التمييز بين ما هو حقيقى وما هو خيالى فإنه يعتقد أنه مستطيع تحقيق جميع رغائبه . وإذا كان هناك نقص ملموس فى ذلك فإنه يكون دائماً على ثقة من استكمالها عند ما يصبح « كبيراً » ناضجاً . لذلك

يبدو كما لو أن الطفل يعيش في حلم يقظة محوره السمو والتفوق ، وأن هذا الحلم قد بزغ وتطور من ثنايا خبراته في حياته المبكرة عندما كانت صحيحة واحدة منه تكفي لإشباع كل رغبة من رغباته كالدفء والغذاء والتدليل وإزالة أسباب المضايقة . وبذلك يوضع الأساس للاعتقاد المقبل في سلطان الألفاظ وقوة الرغبات ، ذلك الاعتقاد الذي يعتنقه كثير من الراشدين بدرجات متفاوتة دون أن يشعروا بذلك . فالألفاظ الغامضة ، مما له معنى أو لا معنى له ، وبعض العبارات المألوفة وما شابهها ، خليق بأن يجلب البركات أو اللعنات . وعبرة « افتح يا سمسم » تفتح الأبواب المغلقة ، كما أن جملة أخرى قد تطرد الفأل السيء الذي يعقب « العطاس » ، والنطق بعبرة ثالثة تحتوى ألفاظاً خاصة يكشف عن خداع الحواة وحيلهم . ولا يزال بعض الناس يؤمنون بأن بعض « الكلمات السحرية » تستطيع إحداث انقلابات في العالم . وبما كانت آثار بعض هذه الأمور ما تزال باقية في العقيدة السائدة بأن الطالب يستطيع باستظهاره بعض الرقى والتعاويذ أن يحسن في الوقت نفسه أداء أعماله .

وقد كان كثير من الناس إلى وقت قريب يرون أن « الإيحاء الذاتي »^(١) لا يعنى أكثر من أن ذكر رغبة من الرغبات في صورة اعتقاد ثابت يكفي لإحداث تغييرات واسعة في الشخص وأعماله . فتريد الشخص لنفسه أنه سوف يصبح غنياً بعد أول خطوة في سبيل تحقيق هذه الرغبة في الثروة . ويعبر عن هذا الاعتقاد في صورتي صادفت هوى في نفوس الكثيرين . وقد أوضح « بودوان »^(٢) المعنى الحقيقي للإيحاء الذاتي بدقة فائقة ، غير أن إيمان الناس به لم يكن وليد الحقيقة أو نتائج دراسات (بودوان) ، وإنما كان راجعاً إلى وجود حلم السمو^(٣) اللاشعوري عند الناس .

(1) Auto-Suggestion.

(2) Charles Baudouin.

(3) Fantasy of Supremacy.

وقد قيل إن منشأ النزعة إلى السمو يرجع إلى حياة الطفل قبل مولده ، أى عند ما كان لا يزال جنينا في بطن أمه ، حيث كانت جميع رغباته تتحقق دون جهد أو عناء . وهذا يُشعر الكائن الحى بأن كل حاجاته سوف تنال الإشباع . غير أن الحياة فى العالم الخارجى الذى يخرج إليه تؤكده له عكس ذلك ، إذ فيه يُخبر الخوف والجوع والبرد ، وشتى أنواع المشقة البدنية ، ولكن صيحة واحدة منه لا زالت تستطيع أن تقضى إلى الظفر بمساعدة أولئك الذين يقدرّون على تسكين حياته بما يؤدى إلى راحته . وبمرور الوقت تكثّر مطالبه ، كما يزداد عدد رغباته التى لم يتم لها الإشباع .

ويبدو أن حلم السمو يكون لا شعورياً لا لأنه قد كُتبت ، ولكن لأنه لم يكن شعورياً فى وقت من الأوقات ، فهو لا يعبر عن نفسه بشكل مباشر كما هو الحال فى قول الطفل مثلا : « إني مخلوق واسع المقدرة ، أستطيع أن أفعل كل شىء . » وأن أسمو على كل ما فى هذا العالم ، وليس على سوى أن أبدى ما أشاء من الرغبات ، فإن مجرد نطقى بها يكفى لتحقيقها . » . وهناك نوع من العته تطفو فيه إحدى المعتقدات على السطح ، فيؤمن بها المريض ، ويتأثر سلوكه بها . غير أن تلك المعتقدات تكون لا شعورية عند الرجل السوى ، وتعبّر عن نفسها فى صور مختلفة . ولهذا يسهل علينا أن نفهم عدداً كبيراً من الرجال والنساء بالاعتقاد بأن اكتشافاً واحداً من الاكتشافات قد يبلغ مبلغ القدرة المتناهية الشاملة ... كالاعتقاد مثلاً بأن الدولة التى تسيطر على سر القنابل الذرية تستطيع أن تعمل كل ما يمكن أن يدور بخلد البشر ... أو بأن الأمة التى تمتلك الغازات السامة سوف تسود العالم بأسره عندما تستخدمها فى الوقت المناسب ... أو بأن الحرب البيولوجية سوف تقضى إلى سيطرة الدولة التى تستعملها فى حرب قادمة على الأرض جميعاً .

كل تلك المعتقدات يسهل الإيمان بها لأنها تتمشى مع حلم السمو الذى

نتحدث عنه ، والذي يؤدي وجوده فينا إلى قيام استعداد للإيمان بالقدرة الشاملة في أنفسنا ، أو في أولئك الذين نندمج فيهم . وهكذا يمكن أن نفهم سلطان أساطير الفرادس المفقودة في ضوء ذكرياتنا اللاشعورية عن حياتنا قبل الولادة ، فإن تلك المتعة العظيمة التي يشعر بها المرء أو يتصورها في تلك الفرادس ليست إلا تكيفاً للمستقبل وتظليله بظلال تلك الذكريات الماضية ، وبمثل يمكن تفسير استعداد ملايين الناس في عصور مختلفة ، وبيئات متباينة ، للإيمان بجبروت شخص واحد مثل نابليون أو هتلر أو موسوليني ، وقدرته على عمل كل شيء . مع عجزهم عن أن يدركوا أن كل ما يقوم به مثل ذلك الشخص ليس نتيجة لقدراته الخارقة للعادة ، بل نتيجة لإيمانهم به . ويرجع هذا الاستعداد للاعتقاد بقدرة فرد من البشر إلى استمرار وجود حلم السمو والتفوق .

ونجد في حياة الفرد محاولة مستمرة لإشباع ما يمكن أن نسميه « فضلات الرغبات غير المشبعة » التي تنبت عن هذا الحلم من أحلام اليقظة . فإن جانباً مما نشتهي يمكن إشباعه عن طريق نشاطنا . وذلك هو القدر الذي يتنبأ للتحقيق الفعلي . أما فيما يختص بالباقي فقد يكون نصيبنا منه الحرمان ، مما يؤدي إلى انصرافنا عن العالم الواقعي الذي نجد فيه وحده الإشباع الحقيقي ، ونلوذ بعالم خيالي ، عالم لعب ورؤى وأحلام يقظة .

ويعني انصراف غالبية الأطفال عن رفقاء اللعب بعد بضع سنوات أن تلك الفترة التي يلعب فيها أولئك الرفاق دوراً في حياة الطفل إنما هي فترة نمو ، يصبح الطفل في نهايتها في غير حاجة إليهم . غير أن تلك الفترة قد تستمر مدة ليست بالقصيرة كما حدث لسيدة تبلغ الخمسين من عمرها وتشتغل بالتدريس ، وتحيا حياة رتيبة عادية . فقد ذكرت تلك السيدة أنه كان لها من بين رفيقات خيالها طفلة كبرت معها ، وما زالت ملازمة لها . وكانت تصفها بأنها مخلوقة « روحية » . وقد أصيبت السيدة بصدمة في كبرياتها عند ما لاحظت أن الآخرين يسخرون

منها . كذلك صرحت شابة أخرى في نهاية عقدها الثانى بأن رفيقة خيال طفولتها ما زالت تحتل من نفسها مكاتها الممتازة الأولى . وثمة مؤلف قصصى معروف نشر كتاباً صغيراً يدور موضوعه حول خبراته ومعتقداته الشخصية ، فتحدث عن ذكرياته المبكرة حيث ذكر مربية كانت تحمله إلى أعلى بحيث كان يستطيع أن يبصر ما فى الحديقة التى تقع خلف جدار مرتفع . وذكر بعد ذلك أنه كان يشعر فى مناسبات كثيرة أن يدين خفتين كانتا ترفعانه ، وتعينانه على التغلب على مصائب حياته . غير أن القاعدة العامة هى أن يهجر الفرد السوى رفيق خياله فى غضون بضع سنوات ، فإن ذلك الرفيق يشير ، كما رأينا ، إلى طور من أطوار النمو يمتد خلال الفترة التى يشاطر الطفل رفيقه اللعب فيها ، دالاً بذلك على أنه يحتاز إحدى مراحل نموه الطبيعية . ويبدو أن اختفاء ذلك الرفيق يوحى بأن الطفل قد بدأ ينسجم مع حياة الواقع ، وأصبح يجد إشباعه فى الاتصال برفاق حقيقيين ، وفى نشاطه إزاء الأشياء الواقعية . وينبغى ألا يغيب عن بالنا أنه يكون بذلك فى حالة نمو جسمى وعقلى ، وأنه أخذ يتخلص تدريجاً من ذلك الحرمان الذى كان ينقص عليه حياته فى أيامه الأولى .

ونستطيع الآن أن نلخص بعض هذه الحقائق عن حياة الطفل العقلية ونموه ، وهى الحقائق التى كشف لنا عنها لعبه مع رفقاء الخيال . فنحن قد افترضنا حلم بقطعة محوره رفقاء الخيال ، وهو متصل أوثق الاتصال بفاعلية الطفل الحقيقية فى اللعب ، وفيه يمكن أن نتبين العناصر الآتية :

تعديل فى تخيل القدرة الكلية المطلقة^(١) الذى ينمو ويتطور أثناء حياة الطفل ، والذى يؤدى أخيراً إلى أنواع من النشاط التعبيرى .

(1) Fantasy of Unconditioned Omnipotence - See T. K. Slade - Our Phantastic Emotions (London : Kegan Paul) .

٢ — تعويض عن النقص الذى يكتشفه الطفل فى نفسه ، وعن فشل الآخرين فى الاستجابة لمطالبه .

٣ — « خلع » الرغبات التى لا يمكن تحقيقها فى حياة الواقع بسبب قدرات الطفل المحدودة ، أو بسبب ما يفرضه عليه الكبار من قيود .

٤ — وسيلة للهرب من العالم الواقعى الذى يشعر الطفل حياله أنه لا يشفى غليله ، ومجانبة أنواع الصراع التى تقوم فى نفسه عند ما يعمل أو يلعب مع غيره من الأطفال .

الفصل الرابع

حلم اليقظة والعاطفة

إننا نستطيع فهم التربية في معناها الشامل على أنها توجيه الطفل توجيهاً سديداً مقصوداً ابتغاء إعداد حياة الرجل الذي نرجو أن يكونه . وهذا ما يدركه القائمون على تربية الأطفال بدرجات متفاوتة من الوضوح ، فقد يشرئب هؤلاء بأبصارهم إلى المستقبل ، وقد لا يسترشدون في عملهم بمثل عليا محدودة عن الشخصية ، وقد يقصرون تفكيرهم على مصالحهم الشخصية ، ولكنهم مع كل ذلك يحاولون دوماً تكييف الطفل وفق صورة واضحة في أذهانهم .

ويرى البسطاء من الناس عادةً أن الغرض من التربية هو إعداد الطفل ليكون « رجلاً فاضلاً » ، أو « رجلاً مهذباً » ، أو ما أشبه ذلك . وكثيراً ما نسمعهم يقولون بلهجة التحذير : « لو تركت محمداً يفعل كذا أو كذا فإنه سيصبح كيت وكيت » ، ذاكرين جملة من الصفات المستهجنة . ففسوة الأطفال ، وخشوتهم ، وجشعهم ، وأنانيتهم ، كلها في نظرهم صفات يحتمل أن تتطور إلى عادات سيئة في المستقبل . كذلك نرى أن ميل الطفل إلى القراءة الانفرادية ، وتجنب الصحبة ، والاستسلام لأحلام اليقظة ، من الأمور التي تقضى عادةً إلى تأنيب الآباء وغيرهم ممن يعتقدون أن شغف الطفل بمثل تلك الأمور لا يبشر بخير في مستقبله . وتعتمد نظرتنا إلى هذا الموضوع ، وغيره من الموضوعات المشابهة له ، على فكرتنا عن طبيعة النمو . فنمو الطفل كما نفهمه الآن ينقسم بالولادة إلى قسمين متميزين : فالجسم في أول تكوينه ينشأ عن البويضة الملقحة ، ثم تنقسم هذه

البويضة المرة بعد المرة إلى عدد من الخلايا تأخذ في الانتظام على شكل أعضاء . وتغتذى هذه الأعضاء النامية بجسم الأم الذى يمدّها بالطاقة والعناصر اللازمة للنمو . ويلخص الكائن الحى وهو جنين جميع مراحل التطور التى مرت بها الخلية البسيطة فى طريقها إلى صورة الكائن البشرى الكامل .

ولا ينبغى أن ننظر إلى الكائن الحى على أنه مجموعة من الوحدات المنعزلة المستقلة من خلايا وغدد وعضلات وأوعية دموية ، فإن هذه جميعاً تنظم منذ البداية فى صورة أجهزة لها صفات تشريحية خاصة ، ثم تنظم هذه الأجهزة فى وحدة شاملة هى الكائن الحى الكامل . ويمكن التمثيل لذلك بالسيارة وما فيها من اسطوانات ومحاور وملفات كهربائية وغيرها ، فإن هذه كلها تكون نظاماً للتزيت وآخر لنقل التيار وهكذا . . . غير أن تلك النظم جميعاً تؤدي وظائفها فى وحدة متناسقة عندما تتحرك السيارة . وكما أن السيارة بذلك تصبح نظاماً متناسق الأجزاء . فكذلك الطفل فإنه نظام حى .

ولكن تشبيه الطفل بالسيارة تشبيه ساذج غير دقيق ، لأن السيارة لا تنمو بل تبقى دوماً على الصورة التى خرجت بها من مصنعها ، ولذلك قد يكون تشبيه الطفل بالتجراً أكثر دقة ، فإن المتجر يبدأ حياته على صورة وحدة منظمة كاملة لها مديرها وصاحبها ومجلس إدارتها ، وهو منذ افتتاحه عرضة للتغيير المستمر من حيث التنظيم ، فقد تندمج بعض أقسامه فى قسم واحد شامل ، وقد تتسع أقسام أخرى فتتقسم إلى شعب جديدة . وهذا يشبه ما حدث فى مكاتب البريد فقد ظهرت إلى حيز الوجود على شكل مكاتب صغيرة يقوم كل منها بجميع العمليات البريدية البسيطة ، ثم اتسع نطاق عملها رويداً رويداً حتى تطورت أخيراً إلى تلك المؤسسات الضخمة المعقدة التى نراها الآن . وهذا شأن الكائن الحى فهو يتطور منذ تكوينه تطوراً تدريجياً مستمراً يؤدي به فى النهاية إلى صورته الكاملة المعقدة . وقد اختلفت آراء العلماء فى ماهية النظام العضوى للطفل عند ولادته ،

فإن بعض أجهزته البسيطة التي تضم طائفة بسيطة من أعضاء الحس والأعصاب والعضلات لا يطرأ عليها أثناء حياة الطفل إلا تغيير طفيف لا يكاد يذكر ، أو أنها قد لا تتغير على الإطلاق ، وتلك هي الأجهزة التي تنتج عنها الأفعال المنعكسة . وهناك أجهزة أخرى في مثل بساطة الأولى غير أنها عرضة للتغير والتعقيد . ولقد دلل « بافلوف ^(١) » و« وبشتريف ^(٢) » و« جون ب . واطسون ^(٣) » على أن في الإمكان إحداث تغيرات صناعية في تلك الأجهزة ، فنحن نعلم مثلاً أن رؤية الطعام مثير طبيعي لإسالة لعاب الكلب ، غير أن في الإمكان تدريب الكلب بشكل خاص بحيث أن لعابه يسيل أيضاً عند سماع صوت معين أو رؤية ضوء خاص . والطفل بطبيعته تظهر عليه علامات الخوف عند سماع صوت مرتفع ، ومن المستطاع أن نجعله يشعر بهذا الخوف عند رؤية أرنب أبيض ^(٤) مثلاً . وقد استنتج بعض علماء النفس من أمثال هذه التجارب أن في الإمكان تفسير جميع صور النمو على أنها أنواع من التنظيم لتلك الأفعال المنعكسة التي اعتبروها قابلة للتعديل ، وهي توجد على شكل تركيبات بسيطة في الطفل الحديث الولادة .

غير أن « مكدوجال » ومن يناصرون مذهبه في النمو يهتمون بالتركيبات التي تزاد في درجة تعقيدها عن تلك الأفعال المنعكسة التي ينادى بها أنصار مذهب السلوكية واتباع مذهب الأفعال المنعكسة ، ويطلقون عليها اسم

(١) Pavlov عالم روسي من علماء الفسيولوجيا ، وهو الذي صاغ اسم « الفعل المنعكس الشرطي » . (المترجم)

(٢) Bechtrev عالم روسي آخر من علماء الأعصاب ، ساهم مع بافلوف في إخراج نظرية الأفعال المنعكسة الشرطية إلى الوجود . (المترجم)

(٣) John B. Watson زعيم مدرسة السلوكيين التي تهتم بدراسة السلوك الظاهري ، وتذكر الشعور ، ولا تعترف بطريقة التأمل الباطني . (المترجم) .

(٤) تجربة الكلب وتجربة الطفل والأرنب الأبيض من التجارب المعروفة في ميدان الأفعال المنعكسة الشرطية . (المترجم)

« الفرائز » . وينادون فيها برأى يتلخص فى أن الطفل يولد مزوداً باستعدادات فطرية تجعله يستجيب لأشياء ليست له بها خبرة سابقة ، فهو ينتبه إليها ، ويسلك حيالها سلوكاً خاصاً ، كما أنه يفعل أثناء ذلك بصورة معينة . ويمكن أن نقبس لذلك مثال الطفل الذى يسمع صوتاً مرتفعاً لأول مرة فى حياته ، فهو بمجرد أن يترك سماعه مثل ذلك الصوت يأتى بحركات تدل على الخوف ، ثم يصرخ فرعاً (ويختلف صراخه هذا عن الصيحات الأخرى التى تصدر عنه فى ظروف مختلفة) . ونحن نعتقد أنه ينتابه فى نفس الوقت انفعال خاص نطلق عليه اسم « الخوف » . فالطفل قد تهيأ لهذا النوع من الخبرة لأنه مخلوق بشرى ورث عن أسلافه هذا التركيب الذى بدأ ظهوره فيهم فى الماضى البعيد ، عندما كان « سلوك الخوف » يفضى إلى إقراض حياتهم عند سماع الأصوات المرتفعة فى مناسبات مختلفة . فاستعداد الطفل للسلوك بهذه الصورة يعتبر جزءاً من التكوين البشرى الموروث .

ويمكن إجمال ذلك فى القول بأن الطفل يكون عند مولده مجموعة مؤلفة من التركيبات التى يستطيع كل منها أن يودى وظيفته فى مواقف معينة ، وهى متسقة بعضها ببعض بشكل خاص ينتج عنه كائن حى قادر على الحياة فى العالم على صورة طفل . وبمرور الزمن ينال التعديل هذه التركيبات من حيث تكوينها وعلاقة بعضها ببعض حتى ينشأ عن ذلك فى النهاية هذا الكائن المعقد الذى نعرف فيه الفرد الناضج .

و يستطيع الطفل الصغير فى بدء حياته أن يستجيب لعدد محدود من المثيرات ، فهو يستجيب للشدى بشكل يجعل فى مقدوره أن يمتص منه غذاءه ، ويحفظ بذلك حياته . كذلك يستجيب للمواقف التى تسبب الخوف بصراخ مرتفع يدعو به أبويه إلى إغاثته ، ويستجيب للملاطفة والتدليل بصيحات رقيقة تتم على الرضى

والاستحسان ، ويستجيب للألم والمضايقات البدنية بصياح يدفع الوالدين إلى العناية بأسره ، وهكذا .

تلك كلها أمور هامة صادقة تلائم الطفل . فنحن لا يمكن أن ننظر منه مثلاً أن يبدي حماساً لرؤية العلم الوطنى ، أو أن ينتشى عند سماع الموسيقى الرائعة ، لأن تلك أشياء لا يجوز لنا أن نتوقعها إلا ممن قد بلغ نموهم شأواً بعيداً .

ولنلق الآن نظرة على أم الطفل كما تبدو فى نظره . إنه يهتم بها منذ أول لحظات حياته لأنها مصدر غذائه . وهى الشخص الذى يسرع دوماً إلى مساعدته عندما يكون خائفاً أو متضايقاً . فهو لذلك يربطها بمثل هذه المناسبات وتلك الأحاسيس ، كما أنها ترتبط فى ذهنه بمواقف الحب البسيط عندما تمنحه من ملاطفاتها ما يستجيب إليه بصورة بدائية ساذجة . لذلك يكون أمامنا فى هذه المرحلة المبكرة من حياة الطفل عدد من « الغرائز » (بمعناها الذى أوضحناه) تنبج كلها نمو شخص متميز عن سائر ما فى العالم الخارجى من أشياء مما تكون قد اتجهت نحوه من قبل . والرأى الذى ينادى به « مكدوجال » هنا يتلخص فى أن الغرائز البسيطة تنتظم فى مجموعات تتركز كل منها حول شىء واحد تتخذ منه محوراً لنشاطها . وبذلك يصبح السلوك حيال ذلك الشىء هو نتيجة عدد من صور السلوك الأولية . وينتج عن ذلك انفعالات جديدة مركبة من عدد من الانفعالات البسيطة .

فنمو الفرد ، وفقاً لهذه النظرة ، هو تكوين عدد من العواطف السليمة تحت قيادة واحدة . ويعتبر الفرد كامل النمو إذا استطاع أن يستجيب استجابة ملائمة لشتى المواقف فى العالم الخارجى . وما دام الفرد وحدة كان بين هذه الاستجابات جميعاً تناسق وتوافق ، بحيث يحمل كل منها طابع « الذات » للشخص الذى تصدر عنه . ومن ذلك نستطيع أن ندرك مدى الضرر فى أحلام اليقظة ، أو نفعها ، بالنسبة للأطفال إذا ما بحثنا فى الدور الذى تلعبه تلك الأحلام فى نموهم . أمهى تساعد على ذلك النمو ، وتعين على تقدمه ، أم أنها تعوقه وتؤخره ؟ وهل هى تساهم فى تكوين

العواطف الطيبة ؟ إن لعب الطفل وأحلام يقظته التي يعبر عنها سلوكه إزاء رفقاء خياله حافلة بالدلائل التي تتم على الاتجاه الذي يتخذه الطفل نحو ذاته ، ونحو الأطفال الآخرين ، ونحو سائر الأشياء التي يستخدمها كأدوات للعبه . وللعواطف التي تتمركز حول الذات أو الغير أو الأشياء المادية أهمية كبرى في حياة الفرد . فهل يكون الطفل أثناء لعبه عواطف سليمة ؟ وهل لرفقاء خياله أثر في تقدم نموه أو تأخره ؟ .

قد لا تكون هناك إجابة واحدة شاملة عن تلك الأسئلة . فقد قلنا إن الطفل يهجر رفيق خياله عندما يستنفذ غرضه منه ، أى عندما يكون قد تقدم في النمو بحيث أصبح في غير حاجة إلى رفيق الخيال . وهذا يعنى أنه قد اكتشف ما يفضل ذلك الرفيق ، وهذا لن يكون إلا شخصاً حقيقياً . ولذلك فإن نمو الطفل من ناحية تكوين العواطف الطيبة يتوقف على نوع الشخص الحقيقي الذي يحمله محل الرفيق الخيالى . فإذا كان الطفل الذى يتطلب من رفيق خياله كل الانتباه والإعجاب قد أصبح يجد بعد ذلك إشباعاً في شخص حقيقى يعجب به (أى بالطفل) ويخضع له ، فإنه يكون عندئذ سائراً نحو التكيف السليم للحياة الواقعية ، غير أنه يكون قد أضعف من استعداداته للملازمة بين نفسه وبين زملائه الأطفال الذين يتطلبون منه أن يؤدي بالفعل عملاً يستحق الإعجاب قبل أن يمنحوه إعجابهم .

فالطفلة الصغيرة التي تحيط نفسها بعرائسها ، بدلا من أن تلعب بها ، قد لجأت إلى ممتلكاتها المادية سعياً وراء الإشباع الداخلى . فهي إذن مادية ، بمعنى أنها أصبحت تعلق أهمية على أشياء ليست لها في ذاتها أهمية تذكر ، فمنعت بذلك عاطفة خاطئة نحو الممتلكات والثروة ، كما نمت اتجاهها خاطئاً نحو الناس ، فهي تنزع إلى الابتعاد عنهم بدلا من تكيف نفسها لهم ، وهي تتحول إلى ممتلكاتها على اعتبار أنها أكثر منهم إشباعاً لرغباتها .

ويوحى سلوكها في الوقت نفسه بنوع المساعدة التي يستطيع الكبار أن يقدموها

لها ، فهي كما ذكرنا تطلب منهم أن يلعبوا معها ، غير أنهم لا يستجيبون لرجائها بل يصدونها عنهم ، فتلجأ إلى رفقة خيالها وإلى دُماها . وهي لا تلعب مع رفقة الخيال بل تكتفى بأن تعرض عليها ما تملك من لعب وعرائس . وبذلك تكون كل فاعليتها منصبة على عرض ما تملكه ، وابتداع تعليقات الإطراء وعبارات الثناء على لسان رفقة الخيال . وينبغي أن ندرك من ذلك أن فكرة الطفلة عن طرق اللعب فكرة ضعيفة نافهة . ولذلك يحسن بأحد الكبار أن يلعب معها ، وأن يكتشف لها ضروباً شتى من استخدام الدمى المختلفة في اللعب ، فإن الطفلة بمجرد أن تدرك أن الدمى ما صنعت إلا للعب بها ، لا لتملكها فحسب ، وأن رفقة الخيال يجب أن تساهم أيضاً في اللعب ، فإنها تكون عندئذ قد قطعت شوطاً لا بأس به في تكيف نفسها لبيئتها .

ويشير استبدال المواقف الواقعية بمواقف اللعب ، وإحلال الأطفال الحقيقيين محل رفقاء الخيال ، إلى نوع من استخدام الرموز . وإن كنا لا نستعمل لفظ « الرمز » هنا في المعنى الفني الدقيق الذي يقصره عليه الدكتور (إرنست جونز) وغيره من علماء التحليل النفسي ، كما أننا لا نستعمله في معناه العام الشائع في لغة الكلام العادية . ولقد أكد الكثيرون أن أحلام اليقظة وما يتصل بها من صور الفاعلية تعتبر هرباً من الحياة . غير أن قليلاً منهم من عنى بإيضاح ماهية هذا الهرب وطبيعته . ومن الواضح أنه ليس مجرد مخرج للزغات الغريزية إلا في حالات نادرة تسكن فيها جميع أنواع الفاعلية ، فيبدو الفرد كما لو كان ميتاً . كذلك لا نستطيع الاعتقاد بأن أحلام اليقظة ليست أكثر من بديل تلقائي للنشاط الذي يراد تجنبه ، كما يحدث مثلاً عندما يدعى أحد الأشخاص ارتباطه بموعد ما بغية التخلص من موعد آخر كان قد انتوى الذهاب إليه . ولو كان حلم اليقظة بديلاً فعلاً لوجب علينا أن نبحث في ثنياه وتطوراته عن كل ما يحاول صاحبه أن يتحاشاه . وحتى في حالات « الهرب » يجب أن نبحث فيما إذا كان

التخلص أسراً دائماً ثابتاً مقررأ من قبل ، أم أنه نوع من التراجع الذى يسبق الوثبة الحاذقة . ولو وافقنا على احتمال وجود نوع من الصلة بين الموقف الذى يظهر فى الحلم ، والموقف الذى يجد الحالم نفسه فيه عند محاولته الهرب ، فإننا نستطيع أن نرى فى ذلك ما يشبه موقف التلميذ الذى يظل قابلاً فى مقعده ، يعبث بقلعه على قطعة من الورق أمامه ، مكتفياً بمجرد التفكير والتأمل فى مشاكل الحياة ، بدلاً من أن يهتم إيجابياً بما يحيط به من أشياء واقعية ، أى بدلاً من أن يقف موقفاً عملياً من الظروف المحسوسة التى تتطلب منه الملاحظة والعمل . فهل يمكننا إذن أن نعتبر أن بعض ضروب اللعب ، وبعض صور حلم اليقظة ، تشبه نوعاً من مسائل الجبر من حيث أننا نعوض فيها عن الموقف الحقيقى أو بعض عناصره برقاء خيال أو دى أو مواقف اللعب ؟

يبدو أن بعض نتائج تطبيق العلاج النفسى الحديث على الأطفال تؤيد هذا الرأى^(١) . فالطفل فى العيادة السيكولوجية يكون حراً فى اختيار أدوات لعبه مما يكون مكديساً على الرفوف التى أمامه ، فيتناول منها ما يريد ، ويتدع صوراً من اللعب لا يتطرق الشك إلى أنها ترمز إلى الموقف الذى يسبب له القلق . كذلك يتغير اللعب وفقاً لتطورات هذا الموقف .

ويسط (فردريك ألن) فى مؤلفه القيم « الطب النفسى للأطفال » عدداً من تجاربه التى أجراها على الأطفال ، وهى جميعاً تؤيد هذا التفسير . ومن ذلك مثلاً أن طفلاً كان يخشى مقابلة المعالج ، فكان يشغل وقته باللعب بجنود خشبية . وقد دلت التطورات التى طرأت على هذه اللعبة الحربية فى مناسبات متعاقبة على درجة إدراك الطفل للعلاقة القائمة بينه وبين المعالج ، إذ كان الطفل يغير من وقت لآخر الأدوات التى يلعب بها . فقد بدأ لعبته بالجنود ، ثم استبدل بالجنود تفاحة

(1) See : Frederic H. Allen, M. D, Director of the Philadelphia Child Guidance Clinic : " Psychotherapy with Children " . (London : Kegan Paul : 1947).

(كان يرى في لونيهما الأحمر والأصفر نزعتيه العدوانية وشعوره بالخوف) ،
ثم استخدم بعد ذلك مطرقة وبعض المسامير ، ثم نوعاً من الطلاء . ويوافق
الدكتور (ألن) على أن هذا التغيير في المادة التي يعبر بها الطفل عن نفسه في لعبه
ينم على أن الطفل كان يتقدم حثيثاً نحو درجة من تحقيق الذات أكمل من
سابقها ^(١) .

ويلحق « مكندوجل » أهمية كبرى على نمو عاطفة اعتبار الذات ^(٢) ،
« فالذات » التي يحس الفرد وجودها في نفسه ، و « الذات » التي يدركها
هو وغيره من الناس إدراكاً موضوعياً ، ينبغي أن تنطبق كل منهما على
الأخرى . غير أن الملاحظ بالتجربة أننا لو أعطينا جميع أفراد إحدى الفرق
قائمة بأسماء طلبة الفرقة ، وسألنا كلا منهم أن يدوّن ما يراه من تقدير لجميع
من وردت أسمائهم في القائمة ، فإننا كثيراً ما نجد أن الطلبة إما أن يغفلوا أنفسهم
إطلاقاً ، وإما أن يتساووا عما إذا كان مطلوباً منهم أيضاً أن يضعوا تقديراً
لأنفسهم كذلك . وإذا ما أجيبوا على تساؤلهم بالإيجاب فإن بعضهم يعترض على
ذلك بقوله : « ولكن ليس من الممكن أن يقدر المرء نفسه بنفس الدقة التي
يستطيع بها أن يقدر غيره » . وقد حدث في مجموعتين تتكون الأولى منهما من
ثلاثة وعشرين طالباً ، والثانية من عدد مماثل من الطالبات ، أن طلب من كل
منهم وضع تقدير لأفراد مجموعته من حيث القدرة على الزعامة . وعند فحص
النتائج تبين أن عدد من وضعوا لأنفسهم تقديراً يقارب تقدير المجموعة لهم لا يزيد
على ثلاثة في كل مجموعة ، على حين اختلفت تقديرات الباقين لأنفسهم عن
تقديرات المجموعة اختلافاً كبيراً ^(٣) . ويبدو أن كثيراً من الناس يشقون

(١) المرجع السابق ص ١٦٣ ، والفصل الخامس منه .

(2) Self - regarding Sentiment.

(٣) من بحث المؤلف نشره في « مجلة علم نفس الشواذ » Journal of Abnormal Psychology في يناير ١٩٤٨ .

طريقهم في الحياة وهم يشعرون بأن نظرة الناس إليهم تختلف عن نظرتهم إلى أنفسهم ، غير أنهم كثيراً ما يألّفون ذلك ، ويفسرونه على أساس اعتقادهم بأنهم لم تنبأ لهم بعد الفرصة التي تعينهم على الظهور أمام الناس في صورتهم الحقيقية ، فيكون اللوم إذن واقعاً على الظروف والأقدار . وهناك غير أولئك من يحاول جهده أن يتجنب الحياة الواقعية وما تحفل به من مواقف تؤدي حتماً إلى ظهورهم في صورة تكشف عن ذات أقل مرتبة من تقديرهم لأنفسهم ، فيعتمدون بحلم اليقظة حيث يحيون في عالم مليء بالمواقف التي يتسنى فيها للذات « الحقيقية » التي اتخذت من الخيال لبوساً لها أن تبدو في صورة رائعة سامية .

ويبدو أن لعب الأطفال — كما فسرناه في الفصل السابق — يحتل مركزاً وسطاً بين هذين الطرفين . ولناخذ مثلاً يوضح ذلك لعب الطفل الذي اتخذ لنفسه رفيقة خيالية أسماها (ماري) . كان ذلك الصبي في أحد الأيام في الحديقة يراقب أمه وهي تجمع بعض التوت في وعاء صغير معها . وبعد برهة وجيزة قال لها : « أم ماري تجمع التوت في دلو ! ! » ، فقالت أمه وهي تقدم له بعض التوت : « أحقاً هي تفعل ذلك ؟ » . أخذ الولد التوت وقال قبل أن يأكله : « أم ماري تعطى ابنتها الدلو كله دائماً » .

من الجلي أن ذلك اللعب اللفظي من النوع العدواني . فالصبي يفضل من قدر أمه وأهميتها وكرمها عن طريق مقارنتها بما لأم ماري من تلك الصفات . والمنظر الخيالي بما فيه تلك الأم التي تجمع كميات كبيرة من التوت في دلو كبير ، والتي تدفعها شدة كرمها إلى أن تعطى ابنتها الدلو الممتلئ ، لتأكل منه ما تشاء ، كل ذلك يهدف إلى إفهام الأم الحقيقية أنها ليست ممن يشبعون رغبات الإنسان ، فهي لا تمتلك إلا القليل ، ولا تعطى إلا البذر اليسير . غير أن هناك قلقاً أشد عمقاً من ذلك ، فإن تقدم الطفل في النمو يجعل العالم في نظره أصغر مما كان ، كما أن رغبته في أن تكون أمه وسائر الأشياء التي يريدونها كبيرة توحى بأنه ينبغي أن

يصبح هو كبيراً . فهو يخشى ذلك العالم الذى يجد فيه أن أولئك الذين كان يعتمد عليهم فى الحصول على أمنه وراحته قد تضائل حجمهم ، وقل ميلهم إلى السماح له بأن يفعل كل ما يشاء . ولذلك فإن لعبه يعبر عن رغبة فى استمرار تواكله ، ودوام أمنه .

كذلك يظهر نقده لأمه فى مناسبة أخرى حدثت فى نفس تلك الفترة تقريباً ، فقد أبصر أمه يوماً تعد الطعام ، فدار بينهما الحديث التالى :

— ماذا تصنعين ؟

— كعكة .

— وما هذا الذى بداخلها ؟

— زبيب أحمر

وهنا قال الطفل فى بطاء وتأكيد : — أم مارى صنعت كعكة كبيرة أول أمس .

— أكبر من هذه ؟

— أكبر كثيراً . . وقد وضعت فيها برقوقاً .

هذه الإجابات صدرت عفواً خاطر ، إذ لم يكن من المحتمل أنه كان يفكر فيها من قبل ، غير أنها مع ذلك لا تكشف عن اتجاه مؤقت عابر ، بل عن اتجاه ممكن ثابت أمكن التعبير عنه بواسطة أشياء اتخذ منها الطفل وسائل ملائمة لذلك . فنجد فى كلتا المناسبتين نفس النقد للأم ، ونفس الإشارة إلى أنها أقل مرتبة من الأم الخيالية مما يمكن تلخيصه بالصورة الآتية :

وعاء صغير : دلو — فطيرة صغيرة : فطيرة كبيرة .

زبيب أحمر : برقوق — أمى : أم مارى .

كذلك نجد إشارة إلى تخلى أمه عن إجابة مطالبه ومنحه أقل مما يريد ، وإلى أن الأشياء التى يراها فى عالمه الحقيقى كانت دون ما يتخيله من أشياء ، وهذا يدل

إلى حد كبير على أن الولد قد بدأ يحس بأن عالم طفولته الحافل بالتواكل المتع والأمن الموصول قد بدأ يقلت منه . ومع ذلك نلاحظ في بعض ضروب لعبه بالقَطْر أن رقيقة خياله كانت تشاطره إياها ، وذلك عندما كان يبدى رغبة قوية في قيادة القطر ، وتنظيم خطوط سيرها ، والسيطرة عليها ، والتحكم في حركاتها . كذلك كان كثيراً ما يطلب مساعدة (ماري) في أدوار الحلم الأولى لدرجة أنها تحولت من طفلة صغيرة إلى أخرى كبيرة قوية . ثم أصبح دورها بعد ذلك غامضاً ، إذ لم يكن يزيد على « اللعب معه » ، ومشاهدة ما يطلب منها أن تشاهده ، وإبداء الإعجاب به وقتما يريد ذلك . وهنا نرى كيف أن الصبي على الرغم من أسفه على ترك مرحلة التواكل قد بدأ يسير نحو مرحلة الاستقلال والاعتماد على النفس .

ويتمثل ما ذكرناه عن استخدام الطفل لأدوات لعبه بشكل رمزي في القصة التي أوردها فرويد عن لعب طفل صغير كانت أمه تضطر إلى فراقه كل يوم بعد أن تودعه وداعاً مؤلماً . وعندما تعود إليه في آخر النهار يكون اللقاء بينهما حاراً^(١) . فكان الطفل أثناء غياب أمه يلعب ببكرة خشبية ربطت فيها فتلة من خيط القطن . يدفع الطفل البكرة تحت إحدى قطع الأثاث حتى تختفي عن نظره ويقول : « لقد ذهبت ! لقد ذهبت ! » ، ثم يجذب الخيط لتظهر البكرة مرة أخرى ، فيرحب بظهورها ترحيباً مشوباً بانفعال السرور الشديد .

وقد اعتبر فرويد أن لعبة الطفل هذه مسرحية يمثل فيها اختفاء الأم ثم ظهورها . والحقيقة أننا لا نستطيع أن نجد لها تفسيراً آخر ، إذ من الواضح أن الطفل قد اتخذ من البكرة شيئاً يمثل به الأم .

إن ما ذكرناه يكفي لتوضيح ما نرى إليه . فلعب الطفل يكشف عن إدراكه لعجزه عن الحصول على ذلك اللقاء العاطفي بينه وبين أمه إلا بعد الافتراق عنها ،

(1) S. Freud : "Beyond the Pleasure Principle": - No.4' International Psychoanalytical Library (London : The Hogarth Press and the Institute of Psychoanalysis.)

ولذلك فإنه أصبح يميل إلى تمثيل ذلك الفراق ، فيحصل من وراء هذا اللعب الإيهامى على انفعال الحزن المرتبط به ، كى يستطيع بعد ذلك أن يسعد بنعيم اللقاء ، فهو يعبر فى وقت واحد عن رغبة فى لقاء أمه ، واشتهاء للتحكم فى الموقف بنفسه ، وهذا الاشتهاء ليس إلا تعبيراً عن حلم القدرة المطلقة .

ما الذى يؤدى إليه كل ذلك إذا ما تقدم الطفل فى النمو ؟ إنه قد يفهم الحياة على أنها شىء يضم من الخبرات ما هو سار وما هو مؤلم ، وأن هذه الخبرات يختلف بعضها عن بعض فى درجة الأهمية ، وأنه على الرغم من عدم استطاعته السيطرة التامة عليها فإن فى وسعه أن يفعل شيئاً ما ، وأن يسيطر على نفسه على الأقل نتيجة لازدياد معرفته . وقد ينمو عنده كذلك اعتقاد بأن هذه الخبرات المؤلمة لا بد أن تفضى إلى نتائج سارة ، وأنها لذلك ينبغي أن تقابل بالترحاب — إذ لا لقاء إلا بعد فراق . وتشير قصص (إدجار آلان پو) إلى أن هذا الكاتب ظل طيلة حياته متأثراً باهتمامه بالموت ، لأن الموت مقدمة للحياة السعيدة الخالدة . وقد حدا مثل هذا الاعتقاد بكثير من الكتاب إلى تمجيد الألم من حيث أنه تمهيد لمسرات أعظم وأبقى .

وقد حدث موقف مماثل فى حياة طفلة سعيدة انقلبت تعسه عقب مولد شقيقة لها لأنها اعتقدت أنها قد اغتصبت منها مكاتها عند أمها ، فأصبحت تشعر بأن أمها باتت غير مستطاعة حمايتها من غيره أخيبها الأكبر واعتدائه عليها . وقد حدث مصادفة أن أفزع البنت كلب ضخم ، فندت عنها صرخات قد امتزج فيها الرعب بالألم ، مما دفع أمها إلى ترك وليدها والإسراع لنجدها . وعندما ألقت نفسها بين ذراعى أمها التى أخذت تهديء من روعها عاودتها طمأنينتها ، وأحست أنها قد عادت إلى احتلال مركزها المعتصب . كذلك حاول شقيقها أن يخفف عنها بأن دعاها إلى أن تشاركه اللعب . وبذلك كان الفزع من الكلب مصدر إشباع عاجل لكثير من رغباتها . وبعد ذلك بمدة قصيرة كانت البنت ترى فى نومها رؤى

مرعجة يظهر لها فيها كلب أسود يخيفها . وإذ ذلك لا يسعنا إلا أن نفترض أن الكلب قد ارتبط بإشباع الرغبات الملحة ارتباط السبب بالنتيجة . ويضاف إلى ذلك أن الطفلة بدأت تتوقع وجود الكلاب السوداء في كل مكان ، فكانت لا تجرؤ على الابتعاد عن الحديقة إلا بعد أن تتأكد من خلو الطريق منها . فكل من اللعب في المثال الذى ذكره فرويد ، والرؤى والسلوك فى المثال الثانى توحى بأن إحدى الخبرات ، أو مجموعة منها ، قد أروحت إلى الطفل بأن الحياة تسير وفق نمط معين بسيط يمكن صبه فى قالب تمثلى بواسطة أشياء بسيطة ، كما يمكن تصويره فى اللعب ، وإدخال التغيير والتعديل عليه .

ونلمس فى هذين المثالين دليلا على وجود عدد من المعتقدات والانفعالات اتخذت من الأم مركزاً تدور حوله . فالصبي شديد الاشتهاى لحب أمه ، وهو يتخذ من الموقف الذى يجد نفسه فيه وما يكتنفه من ظروف موضوعاً للتمثيل . والبنت أيضاً تنشد الأمن الذى يتيها لها عندما تكون موضع رعاية الأم ومحط اهتمامها ، وهى كذلك تصوغ الموقف وظروفه فى قالب تمثلى . فنجد فى الحالة الأولى أن الأفكار عن الأم تتضمن أفكاراً عن القراق والأسى ثم اللقاء والسرور . وفى الحالة الثانية نراها تتضمن أفكاراً عن الخوف والأمن . ونلاحظ فى كليهما علاقة اللعب والأحلام وأنواع النشاط الأخرى المشابهة لها بنمو عاطفة تكون الأم مركزها . وقد ذكر (مكدوجل) أن للعناصر التى تكوّن العاطفة دلالة وجدانية تربطها بعضها ببعض ، وتضفى على العاطفة ذاتها لونا من القوة والتماك .

ولن يدهشنا أن نجد فى المادة التى بسطناها ارتباطاً قوياً بعاطفة الأم عند الطفل ، فقد اقتبسناها من أحلام اليقظة واللعب عند أطفال فى حوالى سن الثالثة كانوا فى مرحلة الانتقال من الطفولة إلى الصبا ، أى كانوا قد اقتربوا من تلك المرحلة التى يستطيعون فيها الاعتماد على أنفسهم فى بذل الجهود ، وهى مرحلة تقل فيها حاجتهم إلى العطف والرعاية مما يحتاج إليه صغار الأطفال . فهم قد أصبحوا

شاعرين بأنفسهم ، وأخذوا يتعلمون العناية بأمورهم . وكثيرون منهم لا يكونون واثقين تماماً بأنفسهم ، مما يجعلهم يترددون في هجر طفولتهم دون أن تعلق أبصارهم ولو إلى حين بتلك الفترة التي كان يتم فيها قضاء حاجاتهم بواسطة آبائهم القادرين على كل شيء ، العالمين بكل شيء . غير أن الخبرة قد تعلمهم الارتياح في تلك القدرة المطلقة ، والشك في ذلك العلم الشامل ، كما توحى إليهم بأن الأبوين أصبحا لا يرغبان في أداء شيء لهم ، وأنهما باتا ينتظران منهم أن يؤديوا أعمالهم بأنفسهم .

وهكذا يقف الطفل على أعتاب هذه المرحلة كما يقف المسافر الخائف الذي يضع قدماً على سلم السفينة على حين تظل قدمه الأخرى لاصقة بالأرض التي يخشى أن يغادرها . ولو قمنا بدراسة عواطف كبار الأطفال والراشدين ، وعلى الأخص ما يتصل منها بالبيت والأبوين ، لوجدنا أن ما يقع في تلك المرحلة من حوادث ومخاوف ، وما يظهر فيها من رغبات ، يلعب دوراً كبيراً في تكوين هذه العواطف . كذلك يدل البحث في مكنونات اللاشعور على أن العقد المسكوبة المتعلقة بالبيت والأبوين ترجع نشأتها إلى مثل تلك المصادر . غير أننا لا نملك سجلات عن نمو السوى من الأطفال نستدل منها على مدى ما تلعبه أحلام اليقظة وأنواع اللعب الإنشائي عند الأطفال في نمو العواطف السليمة واتزان الشخصية ولا شك في أن مثل تلك السجلات على أكبر جانب من الأهمية ، ويحتاج جمعها إلى وقت طويل ، لأنها تتطلب فترات غير قصيرة من ملاحظة نمو كل طفل على حدة . وقد يكون في الإمكان أن تتيسر لنا مثل هذه السجلات في وقت قريب .

الفصل الخامس

حلم اليقظة والجماعة

من الممكن أن نقسم أحلام اليقظة عند الأطفال الذين بلغوا سنّاً يستطيعون فيها أن يقصوا أحلام يقظتهم بالكلام أو الكتابة إلى أربعة أنواع ، وذلك على أساس « المضمون الظاهر »^(١) لتلك الأحلام ، أى على أساس عناصرها السافرة التى يكمن وراءها المدلول الحقيقى . وبذلك نستطيع تصنيف مئات الأحلام التى أمكن جمعها من تلاميذ الفرق العليا والدنيا بالمدارس الثانوية والابتدائية ، إلى ما يأتى :

- ١ — حلم المباهاة^(٢) : وفيه يأتى الحالم عملاً من الأعمال التى لا يكون فى استطاعته عادة القيام بها فى حياته الواقعية ، فيكتسب به الإعجاب والاستحسان .
- ٢ — حلم الإقناذ^(٣) : وفيه يقوم الحالم بعمل يغلب أن يكون فوق مقدوره ، ينقذ به حياة أحد الأشخاص (من الجنس الآخر فى الغالب) ، فينال بذلك محبته ، ويكتسب اعتراف أبويه بالجميل ، وإكبار المشاهدين . ومما يجدر بالذكر أن الفتاة التى ينقذ صاحب الحلم حياتها تكون فى معظم الأحيان ذات

(1) Manifest Content.

(2) Fantasy of Display.

(٣) Saving Fantasy وقد ناقش الدكتور إرنست جونز بالتفصيل العوامل اللاشعورية المتضمنة فى هذا النوع من أحلام اليقظة ، وعلاقته بعقدة أوديب فى مقال بعنوان « حلم مذنب » ، نشر فى مجلة « علم نفس الشواذ » فى إبريل ١٩٢٢ . وقد أورده فى الطبعة الثالثة من كتابه : « مقالات فى التحليل النفسى » (الناشر : بالير وترندال وكوكس — لندن ١٩٢٣) .

مركز إجتماعى أسى من مركز منقذها ، غير أن ذلك لا يغير من شعورها نحوه . ويمكن النظر إلى عدد كبير من أحلام المباهاة ، مثل أحلام القنص وإصابة المرمى فى مباريات كرة القدم ، على أنها « أحلام إقناذ » ، وذلك عندما يؤكد الحالم أن إصابته للمرمى قد « أنقذت فريقه » من الهزيمة .

٣ -- حلم العظمة^(١) : وهنا يشغل الحالم مركزاً ممتازاً كمركز إحدى الشخصيات الملكية أو الأبطال . ومن الشخصيات المألوفة فى هذا النوع من أحلام اليقظة عند أطفال المدارس شخصية ملكة الجنيات ، أو زعيم عصاة من اللصوص ، أو « شخص شهير يعرفه العالم أجمع » ، أو بطل عالمى فى الملاكمة .

٤ -- حلم الولاء^(٢) : وفيه يؤدى الحالم صنيعاً لشخص يعجب به ، يحتل عادة منصباً أرقى من منصبه فيحصل من وراء ذلك على محبته ، وتفضيله إياه . وقد يكون ذلك الرئيس من الجنس الآخر . ولكن يبدو لى أنه يغلب أن يكون من نفس الجنس ، وخصوصاً فى أحلام تلاميذ المدارس . ويظهر أن ذلك من الأمور المألوفة للصغيرات المراهقات اللاتى تراودهن كثيراً فى أحلامهن صورة إحدى مدرساتهن .

وفى كثير من أحلام اليقظة هذه إشارة صريحة إلى جماعة من الناس ، فهى لذلك تختلف عن حلم اليقظة أو اللعب الذى يتضمن وجود رفيق خيال واحد ، وغالباً ما تكون وظيفة الجماعة وعلاقتها بالحالم هى الإعجاب بفعاله الجريئة ، أو الاعتراف بعظمته وسلطانه .

وقد ذكر (مكدوجل) فى معرض حديثه عن الفريزة الاجتماعية^(٣) ، أن تلك الفريزة تنشط فى حالات كثيرة يصعب فيها أن نعثر على أثر للتعاطف^(٤) ،

(1) Fantasy of Grandeur.

(2) Fantasy of Homage.

(3) Gregarious Instinct.

(4) Sympathy.

أو ما اعتدنا أن نطلق عليه اسم « الغيرية » . فالغريزة الاجتماعية بهذا المعنى تظهر عند الحيوانات ، لأنها بسبب عجزها عن الدفاع عن نفسها منفردة ضد عدوها تتكفل في جماعات كي تستطيع أن تدرك الخطر الذي يهدد أحدها أو جميعها ، غير أنها بمجرد زوال هذا الخطر تنفصل ، وينطلق كل منها في سبيله .

وكثير من أحلام اليقظة — وخصوصاً عند الأولاد — تدور حول البحث عن شيء ، أو حول مغامرة تشترك فيها الجماعة ، ويكون الحلم فيها هو الزعيم . وقد تكون الجماعة التي تطيعه وتخضع لقيادته فرقة موسيقية ، أو عصابة لصوص ، أو فريقاً رياضياً ، أو فرقة من التلاميذ ، أو جيشاً ، أو أمة^(١) في بعض الأحيان . غير أن هناك فرقاً كبيراً بين حلم اليقظة الذي يكون الحلم فيه هو الشخص الوحيد الذي يدبر الخطط ، ويصدر القرارات ، ويلقى الأوامر ، ويصر على الطاعة العمياء من أتباعه ، وبين حلم اليقظة الذي يظهر فيه على صورة فرد في جماعة من الأقران ، فيتعاون مع غيره في أمور يشتركون جميعاً في تديرها على قدم المساواة . فالجماعة في الحالة الأولى ليست أكثر من صورة مكررة للذات ، لأن الحلم فيها إنما يقوم بصب الثناء والإطراء والإعجاب على نفسه مرات مضاعفة .

ولا يميل صغار الأطفال أثناء لعبهم مع غيرهم إلى تكوين فرق متنافسة ، كما أنهم لا يحبون التقيد بالقواعد المألوفة ، بل يفضلون وضع القواعد لأنفسهم ، ثم يدخلون عليها من التغيير والتبديل ما يعتقدون أنه يكسبهم بعض المزايا والمغانم . فما ينشدونه من وراء اللعب إنما هو الإشباع المحدود « الأناني » . أما ألعاب الكبار من الأطفال ، ممن تجاوزوا العاشرة عموماً ، فتختلف عن ذلك ، إذ نجد في مبارياتهم فرقاً ينافس بعضها بعضاً . كما نسمع أفراد الفريق يتكلمون بصيغة الجمع فيقولون « نحن » ولا يقولون « أنا » ، وهذا يوحي بأن لهم غرضاً

(١) انظر الحالة الخامسة في الفصل الثاني من كتاب « التحليل النفسي في حجرة الدراسة » .
للمؤلف . الترجمة العربية تحت الطبع . (المترجم)

مشتركا ، ومع ذلك يظل هناك فى مثل هذا النوع من اللعب مجال لتقدر من الإشباع الأنانى الذى يتم عندما يتقن أحدهم اللعب ، أو يلعب من أجل فريقه بشكل يستدر إعجاب زملائه . غير أن النصر النهائى للفريق لا يتحقق عن طريق لعب فرد من الأفراد وحده ، وإنما عن طريق المجهود المشترك الذى يقوم به الجميع متعاونين .

ولكن حلم اليقظة سواء أكان من نوع أحلام المباهاة أو العظمة أو الولاء أو الإنقاذ لا يظهر صاحبه فى صورة عضو فى فريق ، فهو لا يتعاون مع الأفراد الآخرين الذين يظهرون فى الحلم ، ولا يعمل إلا من أجل غاياته الشخصية ، وإشباع رغباته الفردية .

والفكرة المركزية فى هذه الأحلام الأنانية هى نفس الفكرة المحورية فى المؤلفات الأدبية التى يتعشقه أصحابها . ومن أبسط صورها أقاصيص المغامرات التى تظهر فى الجرائد اليومية التى تتخاطفها أيدى تلاميذ المدارس ، كما توجد فى الكتب الرخيصة التى يصفها المحافظون من أنصار العصر القديم بأنها « مريعة » ، ويحرصون على أن يخفوا عن أبنائهم أنهم كانوا هم أنفسهم من قرائها فى صدر صباهم ، وأنهم كانوا يستمتعون بها حينئذ قدر متعة أبنائهم بها الآن . وتكون القصة « المريعة » عادة هى قصة الولد الذى يلعب دور الزعيم ، فهو فى بعض الأحيان خادم فى سفينة يتولى قيادة عدد من البحارة الذين ظلوا على ولائهم له ضد المتمردين القساة ، وهو أحياناً أخرى منبوذ لا صديق له يتزعم جماعة من رجال الحدود فى هجومهم على عصابات المنيود الحمر ، أو صبي فقير يهزم « فتوة » المدرسة فيصبح البطل المحبوب بين زملائه . فجميع أوجه النشاط تكون من النوع المخطور فى المجتمع الذى ينتسب إليه الغلام ، مثل سفك الدماء والشجار والقتل ، ولكن ظروف القصة تكون مما يبرر تلك الأعمال . ولقد كان من أثر ظهور طرق القتل الحديثة ووسائل الانتقال ، وانتشار المخترعات العلمية ، والتربية

أن تيسرت لمؤلفي تلك القصص مادة غزيرة وفيرة لم تكن معروفة لزملائهم من قبل . غير أن الفكرة الرئيسية لم تتأثر في جوهرها بكل ذلك . فقايد الطائرة الذى يخلق بطائرته العجيبة في أجواز الفضاء ، والمخترع الشاب الذى يستطيع أن يجعل إحدى النفاثات تتجه إلى هدفها بشكل آلى ، قد يختلفان في الظاهر عن الكشاف الصغير على صهوة فرسه الوحشى ، ولكنهم جميعاً ليسوا إلا الحلم أو القارىء ، وقد تحول في حلم اليقظة إلى إحدى تلك الصور .

ونستطيع أن نؤكد وجود صراع عندما نلاحظ أن أحلام اليقظة التى من هذا النوع ما زالت ملازمة لأولئك الأفراد الذين وصل نومهم إلى المرحلة التى ينبغى عليهم فيها أن يتعاونوا مع غيرهم في أداء أعمال جمعية ، فتراهم يؤدون مثل تلك الأعمال ، ولكنهم لا يشقون منها إلا الإشباع الفردى . فالغلام الذى يشعر بأنه يساهم في حياة الجماعة ، ويتقن الدور الذى عليه أن يلعبه ، ينبغى من الناحية النظرية أن يحصل من ذلك على نوع راق من الإشباع لا يجوز له أن ينشد غيره . غير أننا من الناحية العملية نندر أن نثر على شخص وصل نموه إلى هذه الدرجة من السكالم ، وبخاصة بين التلاميذ أو التلميذات ، إذ نجد في الحياة الواقعية أن استحسان ناظر المدرسة ، أو رضى رئيس الفريق ، أو إطراء الأب ، أو ثناء أحد زملاء ممن يعتد برأيهم يعتبر من العناصر الضرورية للإشباع التام . ومن أمثلة ذلك أننا نجد في كتاب « أيام توم براون المدرسية » أن مجرد وقوف الدكتور (أرنولد) خلف السور لمشاهدة الأولاد أثناء لعبهم يحدث أكبر الأثر في مدى ما يبذلونه من مجهود . ومن المعروف عموماً في المدارس والكليات أن وجود المتفرجين والمناصرين الذين يعرفون كيف يهللون ويصفقون تشجيعاً لكل لاعب بمفرده ، كما يشجعون الفريق جميعه ، له أثر كبير في انتصار الفريق .

ويختلف الأفراد اختلافاً كثيراً من حيث مقدار نجاحهم في اللعب مع غيرهم ، ومدى السعادة التى يشعرون بها لمساهمتهم في نتائج مجهود مشترك . إذ يبدو أن

بعض الناس يسعون دوماً وراء الحصول على ميزة التفوق على أقرانهم ، بينما يبذل البعض الآخر كل جهده في تجنب ذلك . ومن المعروف في الجيش أن هناك فئة من رجاله لا تعمل إلا من أجل أوسمة الشرف وشارات الفخار ، ولا تخاطر إلا رغبة في أن تذكر أسماؤها في النشرات الحربية ، على حين تفرع فئة أخرى من مجرد شعورها بأنها قد أصبحت محط الأنظار ، وإذا ما ذكر عمل من أعمال البطولة أتاه نفر من أفرادها ، أو أشير إلى إقدامهم وتفانيهم في أداء واجبهم ، نراهم يحتجون على الإشادة بذلك بقولهم : « إنهم لم يعملوا أكثر مما يعمله غيرهم » ، فكأنهم يحاولون بذلك الإسراف في الاتجاه المضاد لاتجاه الفئة الأولى ، فإن رغبة الفرد في أن يكون مجرد عضو في الجماعة قد يتم التعبير عنها بالخضوع التام لتلك الجماعة . ونجد بالبحث والدراسة أن هذا الاتجاه لا يقل في درجة الأناية عن اتجاه السيطرة عند الرجل الذي ينشد الزعامة دوماً ، ويسعى سعياً موصولاً وراء التحكم في زملائه ، والظهور عليهم . فالسيطرة والخضوع في سيكولوجية (مكدوجل) يتساويان من حيث أنهما غريزتان من غرائز اعتبار الذات ، وترتبط كل منهما بانفعال نوعي ذاتي يكون موجياً في الأولى وسالباً في الثانية .

فلو نظرنا إلى سلوك بعض الأفراد في الجماعة من زاوية معينة لرأينا فيه نوعاً من الصراع المستمر مع الجماعة نفسها ، في حين يكون سلوك البعض الآخر استمراراً للاعتماد عليها . وكثيراً ما نسمع بعض الناس يقولون من حين لآخر : « إن الحياة في الجيش رائعة ، لأنها خلو من المسؤولية » . وهذا الاتجاه ليس عاماً ، ولكنه موجود فعلاً ، وينبغي أن ندخله في تقديرنا عندما نقوم بدراسة حياة الفرد وسط الجماعة . ولقد أصبحت هذه المسألة من أمهات المسائل الاجتماعية في العصر الحديث ، فإن الدولة قد بدأت تتدخل في أمور كانت من قبل متروكة لتصرف الأفراد . ويقول بعض معارضي مبدأ رقابة الدولة إن شخصية الأفراد لن يتم نضجها واتزانها ما لم يكونوا مسئولين عن سلوكهم وأعمالهم . ولو اعترفنا بصدق

هذا رأى ، بجانب إيماننا فى الوقت نفسه بأن المهام التى تتولاها الدولة لا يمكن تركها فى يد الأفراد ، فإن ذلك سيؤدى بنا إلى التساؤل : ما النظم القائمة — أو الممكن قيامها — التى يستطيع بواسطتها تدريب الأفراد على احتمال التبعات بحيث يدرك كل منهم علاقته بالمجتمع والدولة ، ويشعر بضرورة بذل كل جهد ممكن فى سبيل الخير المشترك ، بغض النظر عن أى مغنم فردى قد يحصل عليه من وراء ذلك ؟

لا نستطيع الإطالة فى مناقشة هذا الموضوع هنا لأنه بحث اجتماعى وسياسى أكثر منه سيكولوجى . ولكن دلائل حلم اليقظة توحى بأن المشكلة التى تكمن وراءه مشكلة واقعية وليست مشكلة أكاديمية جدلية . فإن التهرب من المسؤولية لا يؤدى بالفرد إلى التقدم نحو المراحل التى يستطيع فيها الاندماج فى الجماعة والانسجام معها ، وإنما يوحى بميل نحو ملازمة مرحلة مبكرة من مراحل الطفولة . فالمجتمع أو الجماعة أو الوطن مثلها فى نظر الفرد الملائم لتلك المرحلة المبكرة مثل الأم فى نظر الطفل الرضيع ، فهى التى ترضعه وتحمله وتحميه من شتى الأخطار ، ثم لا تطلب منه شيئاً مقابل كل ذلك لأنه ضعيف الحيلة ، وهذا وحده هو سر تعلقه بها .

ونجد فى أحلام اليقظة السرفة فى الأنانية أن بعض حديثى السن يرون أنفسهم فيها فى صورة « شخص يعرفه العالم أجمع » ، غير أننا لا نعثر فى ثناياها على سبب ، ولو خيالياً ، لذلك . فهم يرون أنفسهم محط إعجاب الجماهير الحاشدة دون سبب يدعو إلى هذا الإعجاب . والموقف الوحيد الذى يشبه ذلك يحدث لكثير من الناس فى وقت مبكر من حياتهم ، وذلك عندما يعرض الأبن صغارها على أنظار حشد من الزائرين والأقارب الذين يجعلونهم مركز انتباههم ، وموضع تعليقاتهم التى تنبئ عن الإعجاب . ويبدو إذن أن حلم اليقظة الذى من هذا النوع يدل على أن جانباً من الحالم على الأقل قد تعلق بطفولته ، وأن هذا

الجانب لم يجد إشباعاً في نشاط الجماعة ، فبحث عنه في خياله . وعندما تتقدم السن بمثل هذا الشخص ، وتطوف بذهنه فكرة الزواج ، فإنه يتطلب أن يكون محبوباً لا من أجل مركزه أو مزاياه أو نجاحه أو مستقبله ، بل من أجل « ذاته وحدها » . وتلك هي الفكرة المركزية في كثير من قصص المغامرات العاطفية التي يدل ذبوعها على أن القراء عامة يطلبون كل ما هو مصطبغ بلون الطفولة .

ولا تختار الجماعة من بين أفرادها من تخصم بشائنها إلا إذا كانت تؤمن بوجود أسباب تدعو لذلك . وقد لا تكون تلك الأسباب وجيهة في ذاتها ، غير أن وجودها أمر ضروري للظفر بإعجاب الجماعة . ولو أن إحدى جماعات التلاميذ أو التلميذات التي ألف أفرادها العمل معاً في المدرسة مدة عامين أو أكثر طلب إليها أن تقدر درجات لأفرادها (أربع درجات مثلاً للقدرة الممتازة على الزعامة ، وصفراً لعدم القدرة على ذلك ، ودرجة أو درجتين أو ثلاث درجات لما بين ذلك) فإن القوائم التي تحصل عليها ستكشف عن قدر مدهش من الاتفاق . فأغلبية القوائم ستشير إلى معامل ارتباط عال مع التقدير العام للفصل . وسوف يحصل بعض التلاميذ على ثلاث درجات أو أربع من جميع زملائهم ، على حين لا ينال غيرهم ولو درجة واحدة . ويحتمل أن نجد بين المجموعة غلاماً يقدر لنفسه أربع درجات ، ويعطى كل من عداه درجة واحدة مستثنياً من ذلك صديقاً له يمنحه درجة تقرب من درجته . وقد أجريت بجانب بعض التجارب التي لم تنشر ، والتي بُنيت عليها هذه الآراء ، تجارب أخرى كان الغرض منها الوصول من سؤال الأفراد إلى الأسباب التي تجعلهم يصدرون مثل هذه الأحكام ، فوجد أن أغلب الأولاد والبنات الذين وضع لهم الفصل كله تقديراً عالياً كانت تقديراتهم لأنفسهم ولغيرهم تتفق مع تقدير الفصل ، إذ كان لها معامل ارتباط مرتفع مع تقدير الفصل ، كما كان حكمهم على مركزهم بالنسبة إلى باقي الفصل يكاد ينطبق على حكم زملائهم عليهم .

أما تقديرات أولئك الأفراد الذين قدروا أنفسهم — ولعلَّ أحد أصدقائهم أيضاً — تقديراً عالياً ، على حين أعطوا درجة واحدة أو صفراً لباقي زملائهم ، فإنها قد دلت على ارتباط منخفض مع تقدير الفصل لهم ، كما أن أحكامهم على مركزهم في الفصل قد اختلفت اختلافاً كبيراً عن حكم زملائهم عليهم ، فكانوا بذلك يؤلفون مجموعة صغيرة يرى الفصل أنها لا تصلح للزمامة . فتقديراتهم جميعها سواء لأنفسهم أو لغيرهم تدل على أنهم قد كيفوا أنفسهم تكيفاً سيئاً للجماعة التي يحيون فيها حياتهم الجمعية .

ولا شك أننا في ميسر الحاجة إلى الكثير من البحث والتجريب قبل أن نستطيع الإطالة في الكلام عن طبيعة هذا الإخفاق في التكيف ، أو تفصيل الظروف التي أفضت إليه . ويمكننا أن نرى كيف أن صاحب أحلام اليقظة المفرطة في الأنانية يحس اشتباءً لنوع من الإشباع يعجز عن الحصول عليه وهو فرد في جماعة . ونستطيع أن نرى في ذلك فشلاً في الانتقال من مرحلة الطفولة . وأسباب ذلك متعددة كثيرة . فقد يحدث أحياناً أن الطفل كان في سن مبكرة من حياته يستمتع برعاية أبويه وعطفهما ، غير أن مولد طفل آخر قد أحدث في الموقف العائلي تغييراً مفاجئاً لم يتح له الفرصة الملائمة لمواجهة مثل ذلك الانقلاب . فثله في ذلك مثل الحاكم المنفي الذي أصبح يقضى وقته لا في مواجهة الموقف الجديد الذي وجد نفسه فيه بل في الاسترسال في الأحلام التي يستمتع فيها بملكه المفقود . وقد بدأ الناس الآن يدركون مشكلة هؤلاء الأطفال . ولم يقتصر هذا الإدراك على الذين يعملون في عيادات الأطفال السيكولوجية فحسب بل تجاوزهم إلى المدرسين والآباء مما أدى إلى محاولة عرض أمثال تلك المواقف بشكل يساعد الطفل على تكيف نفسه لها بسهولة . كذلك يحدث في أحيان أخرى أن يُطلب إلى الطفل أن يعرض نفسه على أنظار الزائرين الذين يسرفون في إطراء محاولاته البدائية في الغناء أو الرقص أو تقليد أصوات الحيوان أو الناس . وإذا لم تتخذ

الحيطة الكافية في ذلك — وهذا أمر قلَّ أن ينتبه إليه الآباء الذين يشجعون أبناءهم على عرض أعمالهم على الزوار — فإن الطفل يتولاه الاعتقاد بأن دوره في الحياة لا يتجاوز هذا الظهور ، وأن سائر الناس ما وجدوا إلا للإعجاب به . وإذا لم يستطع الطفل بعد ذلك تنمية موهبة من مواهبه بحيث تصبح مشاهدته أمراً مثيراً للاهتمام حقاً ، فإنه سيجد عند ما تتقدم به السن أن الناس يرمقونه بنظرات الملل والسآمة ، ويصبح إلحاحه الموصول في طلب الإعجاب والثناء مصدر مضايقة لهم . ولما كان الطفل لا يرضى عن ذلك فإنه إما أن يضطر إلى مضاعفة الجهد لفرض نفسه عليهم فرضاً ، وإما أن ينسحب بعيداً عنهم وقد تولاه الوجوم والاكتئاب . وغالباً ما يحدث نفسه بقوله إن القوم قد اقبلوا عليه ، أو إنهم أصبحوا عاجزين عن ملاحظة علامات الفطنة والذكاء عند ما يرونها . بهذا نستطيع أن نفهم سبب انصراف مثل هذا الفرد عن الجماعة وإخفاقه في تكيف نفسه لها ، وبحثه عن العزاء في أحلام اليقظة المفرطة في الأنانية . فخبراته المبكرة قد جعلته مدللاً ، وجعلته مدمناً على طلب الإطراء ، كما قد تفضى بعض الخبرات الأخرى به إلى أن يصبح شرها بطناً . والحقيقة أن كل طفل نام يحتاج إلى الثناء حاجته إلى الغذاء . ولكنه لن يصح بدناً ونفساً إلا إذا قد مناله الكمية والنوع اللائمين لحاجاته السوية . فكل من الإفراط والتفريط يضعف من أهمية الغذاء والثناء في نظره .

غير أننا لمسنا من قبل وجود عنصر أناني واضح في معظم أحلام اليقظة عند حديثي السن في حدود الأعمار التي تتكلم عنها الآن . وهذا أمر حقيقى قد نجده أيضاً عند بعض من يوحى سلوكهم بأنهم قد لاءموا بين أنفسهم والجماعة التي يعيشون فيها مما يدل على أنهم منقسمون على أنفسهم . فشطرنهم يتقدم تقدماً طبيعياً في طريق التكيف السليم للجماعة ، في حين يميل شطر آخر إلى الارتداد إلى مرحلة مبكرة كان ينبغي أن يخلفها وراءه . وبعبارة أخرى يكون أولئك

الأفراد على أبواب مرحلة انتقال تشبه تلك المرحلة التي كان يقف عندها الطفل الذي ابتدع لنفسه رقاء الخيال ، عندما كان يقف عند الحد الفاصل بين الطفولة والصبا . كذلك يقف الأولاد والبنات الذين نتحدث عنهم بين الصبا والمراهقة . ويمكن دراسة أحلام اليقظة الأنانية في هذه المرحلة من زاوية أخرى ، فهي ترمز إلى الهرب من الجماعة وما تتطلبه من الفرد ، أو ترمز إلى التمرد عليها . ومن المفروض أن الفرد ينسجم مع الجماعة إلا إذا كانت به حاجة لأن يفر منها أو يتمرّد عليها ، أى عند ما يتنازل عن مطالبه ، أو يستطيع إشباعها في داخل دائرة الجماعة ، أو يتمكن من تحقيقها بوسائل لا تتضارب مع مطالبها . والتنازل عن المطالب التي من هذا النوع ليس إلا أمراً ظاهرياً ، لأن ما يحدث في الحقيقة هو أنها تكبت في اللاشعور ، بحيث أن الفرد لا يكون شاعراً بوجودها ، بل يعتبر نفسه راضياً عن حياته الاجتماعية دون أن يدرك شيئاً عن اتجاهاته المنسية التي تأخذ الآن في التعبير عن نفسها بصور يحل مدلولها ، مثل الرؤى وأحلام اليقظة والسلوك المتسم بالأعراض المتعددة الأشكال .

ويستطيع الفرد أن يحصل على الإشباع وسط الجماعة إذا ما كشف أن في مقدوره أن يسهم في شتى الأعمال التي تحفل بها حياة الجماعة ، ويستمتع بالقيام بدوره فيها ، ويحقق الإشباع الأناني الذي ينشده ، لمجرد قبول الآخرين لوجوده بينهم ، واستحسنهم لطريقة القيام بدوره . وقد يكون ذلك من أعسر الأمور عند بعض الأفراد . فالغلام الذي لا يستطيع من الناحية البدنية أن يجارى زملاءه في ألعابهم المدرسية يجد صعوبة كبيرة في تكييف نفسه للحياة الواقعية في المدرسة حيث تعتبر الألعاب على أكبر جانب من الأهمية . وكثيراً ما ينمى في نفسه نوعاً من الازدراء الدفاعي نحو الألعاب والمبرزين فيها ، أو نحو المدرسة كلها ومن يقومون على إدارتها . وفي الناحية الأخرى نجد أن غالبية التلاميذ يميلون إلى احتقار جميع مظاهر الفردية في الزي أو الذوق أو الهوايات ، ويعبرون عن

استهجانهم لذلك بالأسماء المستعارة الساخرة والتهكم المهين . ونجد في قصة « ستوكي وشركاه » (لكبلنج) أمثلة عديدة لذلك .

ويحدث في بعض الأحيان أن يجد أحد الأفراد ممن أوتوا الشجاعة والمقدرة على السعى وراء ميولهم الخاصة أن الجماعة في النهاية ترضى عن العمل الذي أتموه ، فيصبح عندئذ من « القصاصين » الشهيرين ، أو « الملحنين » المعروفين ، أو « الفنانين » النوابغ ، أو « العلماء » المتنازين ، أو غير ذلك ، مما يجعله شبيهاً بصانع مصائد الفيران (في إحدى قصص إمرسون) الذي كان قد برع في عمله لدرجة أن العالم كله قد أصبح يشق طريقه إلى بيته . وبذلك يكون قد حقق الحلم الذي أشرنا إليه في هذا الفصل ، حيث يجد الحالم نفسه مُتَبَوِّناً أسمى المراكز ، يحف به حشد من الجمهور المعجب به . وفي الحالة التي نحن بصدد الكلام عنها نجد أن الجمهور يتجاوز مجرد الإعجاب ، فيهلل للحالم بصفته فرداً من أفراد ، مدعياً أنه لم يؤد عمله إلا من أجل صالح المجتمع . وأنه قد قدم نتائج عمله للجماعة كلها . فتقول الجماعة : « لقد أخرج لنا فلان ذلك العدد الضخم من القصص ! » . ومن جهة أخرى نرى كثيراً من الناس ينطلقون وراء أهوائهم الخاصة فينتجون أعمالاً لا يقبلها إلا الخاصة وحدهم ، ويجدون في ذلك بعض الإشباع ، غير أنهم في الوقت نفسه يشتهون ذبوع الصيت الذي يشعرون بأن عملهم قد وجد صدًى في نفس الجماعة كلها وحاز قبولها . وإذا ما أخفقوا في ذلك فإنهم يُنمّون في أنفسهم نوعاً من العداء يعبر عنه في صورة الهجو والقذح .

ونجد في بعض ضروب أحلام اليقظة الأنانية إشارة إلى ما يعتقد الحالم أن الجماعة تنتظره منه إذا ما تولى قيادها . وهذا ينطبق على الأحلام التي يتزعم فيها غلام جماعة من الرجال . ففي إحدى قصص الأولاد نقرأ عن موظف صغير السن في أحد المصانع يلعب دوراً رئيسياً في إحدى حركات الإضراب ، فيكشف للرجال عن خداع زعمائهم وزيغ نوايا مديريهم ، وعندئذ ينصبه الرجال زعيماً

عليهم ، فيقوم بعرض مطالبهم على صاحب العمل ، ثم يقنعهم بالعودة إلى أعمالهم . ليست هذه القصة أكثر من حلم يقظة أنقن صوغه ، وهو قد يتجاوز في تفاصيله ودرجة تماسكه حلم التلميذ العادى ، غير أنه لا يختلف عنه في جوهره ، فهو يؤكد أهمية النفاذ إلى أعماق الصدور ، وإدراك ما يعتمل فيها من دوافع ، وهو يقسم الناس إلى طائفتين متميزتين ، طائفة مفرطة في الطيبة وأخرى مسرفة في الشر ، إحداهما صديقة والأخرى معادية . والزعيم هو الذى يعرف كيف يلجأ إلى الطائفة الملائمة . فهنا نرى صورة للمجتمع ، أو لجماعة الناس الذين يحيا الفرد بينهم ويعمل معهم . ومن الجلى أنها صورة مسرفة في البساطة .

وتؤكد بعض أحلام اليقظة الأنانية الأخرى أهمية امتلاك سر من الأسرار ، وكتامنه عن الغير واستغلاله . وقد صيغت هذه الفكرة أيضاً في قوالب قصصية مختلفة ، فيكون السر في بعض الأحيان شيئاً يهيمس به رجل على شفا الموت في أذن غلام يكون قد ترفق في معاملته ، أو يكون مكتوباً بالشفرة التى يحل البطل رموزها كما في قصة « حشرة الذهب » (لإدجار ألان بو) . وفي « كنوز الملك سليمان » (لريدار هجارد) نجد السر في خريطة رسمها بدمه على قطعة من القماش رجل قبل أن يموت ، على حين نجد السر في قصة « هى أو عائشة » لنفس المؤلف مكتوباً بلغة قديمة على قطعة من الخزف ظلت محفوظة عدة قرون لدى عائلة الرجل الذى قام بالبحث عن الكنز الخبوء . وقد يصحب البطل في رحلته رفيق واحد ، أو يشترك معه فيها رفيقان أو ثلاثة ، كما أنه قد يأخذ معه في بعض الأحيان جماعة كبيرة من الرجال . وتشق القافلة طريقها عادة في بلاد مجهولة حيث تقابل أقواماً غريبة أطوارهم ومعايشهم ، وتصادف كثيراً من المخاطر والأهوال . وقد يضطر الصبى إلى الاعتماد على مهارته الشخصية في القتال ، أو على خبرة زميله الأكبر منه سناً الذى يقدم له العون ، دون أن ينبغى من وراء ذلك أكثر مما يجده من الإشباع في خدمة زعيمه . وقد تنقسم الجماعة إلى فريقين يكون أحدهما موالياً للزعيم ، في

حين يتآمر الفريق الآخر عليه ، ويتحين الفرصة للإيقاع به والقضاء عليه بمجرد اكتشاف الكنز السرى . وهذه هي فكرة قصة « جزيرة الكنز » (لوربت لويس ستيفنسن) .

ويلاحظ الطفل في وقت مبكر من حياته أن الكبار يتحدثون فيما بينهم عن أشياء كثيرة لا يفهمها ، ويدرك من ذلك أنهم يعرفون الكثير مما يحمله هو ، فينشأ عنده اعتقاد بأن قوتهم وميزاتهم إنما ترجع إلى تلك المعرفة التي يمتلكونها دونه . فالطفل يتنابه العجب لكثرة ما يقرؤه والده فيسأله عما يوجد في تلك الكتب . وعندما يحاول أبوه إخباره عن ذلك فإنه كثيراً ما يجد من العسير عليه أن يصدق أن أباه ينفق من وقته كل ذلك القدر في أشياء ضئيلة الأهمية بهذا الشكل ، ويرتاب في أنه لا بد يخفى عنه شيئاً . ومن أمثلة ذلك أن (لويس كارول) عثر وهو صغير على جدول لوغاريتمات فسأل أباه « تفسيراً » لمحتوياته ، وكلما حاول الأب ذلك صاح لويس الصغير في صبر نافذ : « لا . لا . فسر له لي ! » وأخفق الأب رغم محاولاته المتعددة في إشباع فضول ولده ، لأن الغلام ، على ما يظهر ، كان يعتقد بأن تلك الأرقام التي تظهر أمامه على صفحات الكتاب تخفى سرّاً لا يريد أبوه أن يطلعه عليه .

كذلك يعلم الطفل أن الكبار يتحدثون عن أمور عدة لا يريدون أن تصل إلى مسامعه ، ويدرك أيضاً أن الكثير من إجاباتهم عن أسئلته ليست سوى محاولات للهرب من القول الصريح . كما قد يحظرون عليه في بعض الأحيان إلقاء أسئلة عن موضوعات معينة مثل الأمور الجنسية وولادة الأطفال . ولقد كان ذلك مألوفاً في الجيل الماضي أكثر منه في الآباء المستنيرين من جيلنا الحاضر ، فترى الآنسة (باربارا كارتلاند) تستطيع أن تقول في كتابها « سنوات المضيق »^(١) الذي نقص فيه تاريخ حياتها : « لم أكن أعلم قط شيئاً عما يمكن أن أعبر عنه

(1) Barbara Cartland : « The Isthmus Years »

بشكل يتناسب مع مقتضيات الأدب بلفظ « الزواج » إلى أن بلغت التاسعة عشرة تقريباً ، وُطلبت يدى للزواج خمس مرات . كذلك كان الأطفال فيما مضى كثيراً ما يباهون زملاءهم بأى نوع من المعرفة يكونون قد التقطوه فى مثل تلك المسائل ، فكان زملاؤهم يصفون مشدوهين إلى ما يسردونه عليهم منها ، كما أن مثل تلك المعلومات كانت تعطى صاحبها نوعاً من الامتياز الموقت على أقرانه .

فى جميع هذه الأحلام ، سواء أكانت من الأحلام غير الناضجة عند صغار الأولاد ، أو من القصص المتقنة التى يجد أولئك الأولاد متعة فى قراءتها ، يكون زعيم الجماعة هو الشخص الذى يملك من المعلومات قدراً أكبر مما يملكه أتباعه . فهم بدونهم لا يستطيعون العثور على الكنز الذى سوف يقتسمونه . ونجد الدافع إلى هذا الاعتقاد فى نظرة الطفولة إلى الأب الذى يحيط بكل شئ علماً . وما زال الإيمان بأهمية العلم بكل شئ ملازماً لكثير من الناس . وقد ذاع فى العصر الفكتورى انتشار عدد من المجلات التى لم تكن لتزيد على مجموعة من المقطوعات عن معلومات قديمة لا تنفع أحداً ، ويقابلها فى المجلات الحديثة تلك الأبواب التى تنشر تحت عنوان « ماذا تعلم ؟ » ، و« هل تعرف ؟ » .

ومما هو جدير بالاهتمام أن نذكر أن القبائل البدائية كانت تعنى كثيراً فى حفلات التدشين بتلقين الصبى الأسرار التى يحتفظ بها رجال القبيلة وخدم ، وهى لا تضم طائفة من المعلومات عن الأمور الجنسية فحسب ، بل إنها تتناول كذلك أسرار القنص والحفلات الخاصة بالرجال . فالغلام لا يصبح رجلاً بمجرد اجتيازه لتجارب شعائر القبيلة ، وإنما لأنه قد صار على علم بالأشياء التى تعتبر من الأسرار التى تحرص القبيلة على إخفائها عن النساء والصغار ، وهى أمور محظورة عليه أن يفشيها وإلا عرّض نفسه لعقاب الموت .

لذلك ينبغى أن نتوقع اختلافاً فى نظرة الغلام الذى تؤكده أحلامه يقظته ناحية

المعرفة عن نظرة الغلام الذى تكون أحلامه مسرفة فى إبراز الفعل والعنف . فإن النوع الأول يوحى بالانطواء^(١) إذ يحاول دوماً أن يصل إلى أهدافه عن طريق تدبير الخطة ، فى حين يتم الثانى على ميل نحو الانبساط^(٢) لأنه يدرك غايته بطريقة المجهوم . غير أننا يجب أن نذكر فى ذلك أن حلم اليقظة يعبر عن ناحية واحدة من مجموع تركيب الفرد ، وأنها لا تصادف فى الحياة الواقعية أنموذجاً خالصاً لأحد النمطين .

وتعتبر القصة البوليسية الحديثة من الصور الهامة لحلم اليقظة المتصل بناحية المعرفة . ويرجع ظهور هذه القصص إلى (إدجار ألان بو) الذى كتب « جنابات قتل فى شارع مورج » ، و « الخطاب المسروق » ، و « سر مارى روجيت » ، وقصة أخرى أقل شهرة من الثلاثة السابقة هى « أنت الرجل » . وقد ذاع هذا النوع من القصص وبخاصة بعد نشر مغامرات « شرلوك هولمز » (لكولمان دويل) ، كما ظلت الطبقات الرخيصة للروايات التى من هذا النوع تنشر للأولاد عدة سنوات ، وقد نالت انتشاراً كبيراً فى أوساطهم . فكثير منهم يولع بفكرة اكتشاف الأشرار وغفابهم ، وهؤلاء يرون أنفسهم فى حلم اليقظة وهم يقتفون أثر المجرم ، فينالون بذلك ثناء المجتمع . وهم يستطيعون ذلك بسبب تفوقهم على المجرم فى الذكاء وسعة الحيلة ، أو فى العلم والمعرفة . ويكونون فى أغلب الأحيان أشخاصاً غامضين لا يثيرون رغبة المجرم فيهم ، قادرين على حل المعميات ، كما أنهم يكونون أشد فطنة وأدق ملاحظة من رجال الشرطة الرسميين . فنرى (دوين) مثلاً فى أفضل قصص (بو) يصل إلى سر الجريمة باستخدام الذكاء المنطقى . ونجد (شرلوك هولمز) النامض يلجأ إلى الاستدلال العقلى واستغلال المعلومات القديمة ، كما يستخدم كثيراً من المهارة البدنية . كذلك نلاحظ أن رجل البوليس السرى

(1) Introversion.

(2) Extraversion أو Extraversion

في روايات (أوستن فريمان) ليس رجالاً منطقياً فحسب بل وعالمياً ألعياً كذلك ، يمتلك معملاً كامل المعدات ، ويستمتع بقسط وافر من العلم .
ففي جميع هذه الأحلام نجد مجرمًا قد انقلب على المجتمع ، واتخذ منه عدوًّا له ، وبطلاً يستغل تفوقه في العلم فيحظى من وراء ذلك بإعجاب الجماعة ، غير أنه في كل ذلك يكشف عن تفوقه على الشخص الذي عهد إليه المجتمع بمهمة المحافظة على الأمن والقبض على المجرمين . (فدون) ينجح حيث أخفق ضباط الأمن العام الفرنسيين ، (وشرلوك هولمز) يدلل على جهل مفتشى « سكوتلنديارد » وغباثهم ، والدكتور العالم في قصص (أوستن فريمان) ، على الرغم من علاقته الطيبة مع السلطات ، يكشف لهم دوماً عن ضعف حيلهم وذلك بمساعدته الموصولة لهم في هتك سر الجرائم الغامضة . والحقيقة أن ما يؤكده كل هؤلاء للجماعة هو بمثابة قول الواحد منهم : « لقد أسأتم الاختيار ، وكان الأجدى بكم أن يقع اختياركم علىّ أنا » .

ويمكن التوسع في دراسة الدوافع التي تكمن وراء فكرة القصة البوليسية بشكل تفصيلي يتجاوز كثيراً ما نستطيعه هنا . ويكفي أن نعلم أن الحالم بابتدائه الضحية والجريمة والجرم ورجل البوليس إنما يعبر في وقت واحد عن عدائه للجماعة التي تصورها الجريمة ، كما أن عداءه لمرتكب الجرم يظهر من سرد محاولات رجال الشرطة لاقتناصه والاقتصاص منه . فحلم اليقظة جميعه ليس إلا قصة صراع بين عداء الصغير للجماعة من جهة ، واتفاقه معها من جهة أخرى .

ويظهر بعض الأجانب في عدد من أحلام اليقظة عند الأطفال ، فيكونون أحياناً مجرد أفراد غرباء غريبى الأطوار ، أو يكونون في أحيان أخرى زوجاً أو ألماناً أو صينيين على وجه الخصوص . وهذه الشخصيات تكون في العادة مقتبسة من الكتب أو أفلام السينما أو أحاديث الناس العادية . ولكن الطفل يستخدمها بطريقة الخاصة ويدخلها في أحلام يقظته . فقد يتخذ من الزنبي صديقاً

يدخل السرور على نفسه بتبريجه ، أو شخصاً يذكّره « بالعم توم » ، كما أنه قد يصوره على شكل رجل متوحش مسلح بالخراب . أما الصينى فيكون فى العادة شخصاً غامضاً ، يمكن التهديد وراء نظراته الضيقة ، كما يظهر الألمانى فى صورة العدو ، وذلك بسبب الحرب الأخيرة .

فالأجنبى فى نظر الطفل ، كما هو فى نظر الكثرين منا ، شخص ليس من الجماعة التى ننشئ إليها ، ولذلك يسهل أن يكون موضع البغض والكراهية . والرجل الإنجليزى العادى يكره الأجانب ولا يثق بهم ، غير أن أولئك الأجانب قد يلقون معاملة حسنة رفيقة فى كثير من البلاد الأخرى . ومع ذلك يحتمل أن يتضاعف شعور الإنجليز بالبغضاء نحو الأجانب عندما تكون مصالحهم القومية مهددة ، أو عندما تنشط أنواع معينة من الدعاية المقصودة التى ترمى إلى تلك النتيجة . وقد يتخذ هذا الشعور عند الطبقات الدنيا منهم مظهر النهب والسلب والاعتقال . ولكنه يعبر عن نفسه عامة فى صورة أعمال مدبرة تؤدى إلى نتائج قاسية حاسمة . ومن الجلى أن هناك بعض العلاقة بين كراهية إحدى الدول الأجنبية ، وإعلان الحرب ضدها . غير أننا لو حاولنا القول بأن البغضاء وحدها هى سبب الحرب فإننا نكون عندئذ مغالين فى تبسيط أسباب الحروب أكثر مما ينبغى .

ويندر أن تكون أسباب الحروب فى هذه الأيام فى مثل بساطة أسباب الحروب فى العصور الماضية ، عندما كان مجرد اختلاف تافه بين حاكين كافياً لإثارة جعيم الحرب بين بلديهما ، أو يوم كانت تنشب الحروب لمجرد رغبة إحدى الدول فى امتلاك أراضى دولة أخرى أو نهبها . أما الآن فيبدو أن الحروب تنزع إلى اتخاذ صبغة تأديبية . إذ نرى إحدى البلاد تكيل اتهاماتها لبلد آخر ، فإن لم تتلق الرضية الكافية ، فإنها تعلن عليها الحرب لعقابها .

وقد أشار الأستاذ بوفيه فى كتابه « عاطفة المقاتلة » ^(١) إلى أن القتال بين

(1) P. Bovet « The Fighting Sentiment »

الأولاد يقع عادة عقب محاولة أحدهم اعتراض سبيل الآخر . فقد يمسك غلام كبير برسغى ولد صغير ويحول دون تحريكه إياها ، وعندئذ يحاول الصغير تخليصهما بركل خصمه ، فيتفادى الكبير تلك الركلات ، ويظل قابضاً على الرسغين ، فلا يلبث الآخر حتى يصرخ ويصيح فى احتياج شديد . وإذا أطلق غريمه يديه فإنه حينئذ يلقى بنفسه عليه ويضربه بشدة ووحشية .

وما يجدر بالملاحظة أن ما يسبق الحرب من احتجاجات إحدى الدول على تصرفات بلد أجنبى تتخذ صورة اتهامات تدعى فيها الدولة المحتجة أن أعمالها قد عوّقت ، كالقول بأن : « ... يحولون دون قيامنا بكذا أو كذا من الأعمال » . فهذه الدولة تعترض سبيل نمو التجارة المشروعة لدولة أخرى ، وتلك تقاوم حصولها على مستعمراتها ، أو تعرقل توسعها الحيوى .

ونستطيع أن ندرك بسهولة أسباب ذلك ، فإن عدداً كبيراً من الناس يحيون حياة حافلة بالحرمان . وتشير كثرة حدوث أحلام اليقظة ، وذبوع الأحلام النعمة التى تظهر على صورة أفلام أو قصص مغامرات عاطفية ، إلى نفس الاتجاه ، لأن هذه جميعاً ليست سوى أنواع من الإشباع الخيالى لل رغبات التى أصابها الحرمان فى الحياة الواقعية . ولو أننا أضفنا إلى مصاعب العيش الحقيقية ، من حيث المأوى والكساء والغذاء ، نقص الإشباع النفسى ، لأمكننا أن ندرك مقدار مافى الحياة من سخط ومتاعب ، وما يصحب ذلك من إيمان « بضرورة علاج تلك الحالة » .

أولئك المحرومون هم المستمعون الذين يوجه إليهم الساسة خطاباتهم ، موحيين إليهم بأن حالتهم لن يتيسر علاجها إلا بتغيير الحكومة القائمة لأنها سبب آلامهم وشقائهم ، وهكذا يستطيع الخطيب اللبق أن يقنع سامعيه بأن الحكومة وحدها هى المولومة على ما يعانونه من حرمان فى حاجاتهم الخاصة والعامة . ولما كان عدد كبير من أولئك الناس لا يستطيعون إدراك ماهية متاعبهم ، فإنهم يجدون إرتياحاً فى صب اللوم على كل هؤلاء الذين جعلوا منهم كبشاً للفداء كما يبدو فى نظرهم .

ولعل الأجنبي هو الذى يُتخذ وسيلة لتحقيق هذه الغاية . فمن المبادئ السياسية التي كانت شائعة من قبل ، أن في الإمكان تحويل انتباه أفراد الشعب عن الأمور الداخلية بواسطة حرب خارجية . ولا زال الخطيب الماهر في بعض البلاد يستطيع إقناع الناس بأن ارتفاع الأسعار ، والفقر ، وسوء الحالة المعيشية ، البطالة ، وحتى الأمراض والأوبئة ، إنما ترجع جميعاً إلى الأجانب ، فيندفع الشعب على الفور إلى مطالبة حكومته باتخاذ إجراءات شديدة ضد أولئك الأجانب ، وقد ينضم إليه في ذلك بعض المتعلمين من الرجال ممن يدركون تماماً براءة الأجنبي من مثل تلك الاتهامات ، كما أنه قد يساورهم نفس شعور الحقد ، فيأتون من الأعمال الحمقاء ما لا يصدر إلا عن الجبهة من أبناء وطنهم .

وكثيراً ما يقال للإنجليزى الذى يعيش خارج بلاده : « أنا لا أحب الإنجليز لانهم . . . » وتكمل الجملة بعبارة عامة . ولو أجاب الإنجليزى بقوله : « لست أصدق ذلك ، فإنك كنت دوماً ظاهر الودّ نحوى » ، فإنه يتلقى الجواب الآتى : « ولكنك لا تمثل الرجل الإنجليزى العادى » . هذه العبارة الأخيرة تضم الحقيقة بين ثناياها ، فإن الأجنبي المكروه ليس هذا الفرد أو ذاك ، ولكنه « نوع » ، أى شئ . خيالى .

وقد أجرى منذ بضع سنوات استفتاء كان الغرض منه اكتشاف رأى الأطفال في الأجانب . وقد يكون لفظ « الأطفال » هنا ضيق المعنى ، لأن البحث شمل عدداً من التلاميذ يتراوح سنهم بين السابعة والسابعة عشرة في عدد من المدارس الثانوية والابتدائية في المدن والقرى . وأمكن جمع ما يقرب من ثلاثين ألفاً من آرائهم ^(١) ، وجدفياً تكرار وصف الزوج بأنهم قوم طيبون يزرعون لهم الموز ، أو أنهم مجرد مهرجين يثيرون الضحك ، والألمان بأنهم علماء نوابغ أو

(1) Green and Herbert — « Racial Prejudice in School Children » — Kwartalnik Psychologiczny (Poznan, Poland) 1930 .

قتلة قساة القلوب ، أما الأسباب فقوم غلاظ الأكباد ، يقضون جل وقتهم في مصارعة الثيران ، والبريتونيون ذوو شجاعة فائقة ، والأمريكيون أناس مغرمون بالتفاخر ، والصينيون رجال ذوو مكر ودهاء ، يدمنون تدخين الأفيون ، لهم عيون منحرفة ، وهم خونة يميلون إلى القسوة ، ويكثر من اختطاف الأطفال .

وقد أمكن التأكد من مصدر تلك الآراء ، إذ مما لا شك فيه أن الكتب والأفلام قد لعبت دوراً كبيراً في تزويد أصحابها بالمادة التي دخلت في تركيب أفكارهم . فالكتب المدرسية ، والمعلومات الدراسية ، وأفلام السينما ، والأحاديث المنزلية كانت في مجموعها مصدراً للمادة لا تقل عن مادة الكتب الأخرى ؛ ويلاحظ أننا نؤكد « المادة » لا « الأفكار » ، لأن من الجلي أن الطفل نفسه هو الذي صاغ أفكاره من المادة التي تجمعت لديه ، وذلك تحت تأثير الأهواء والميول القائمة . ومن الواضح أيضاً أن الطفل يتناول بالتغير والتبديل ما تزوده به من معلومات كي يعبر بواسطته عما كان يعتقد من قبل ، ويمكن أن تقتبس على سبيل المثال حالة غلام من كاردف كان قد وصف الصينيين بالقسوة ، وعندما سئل عن سبب ذلك أجاب : « رأيت ذات مرة رجلاً صينياً يضرب غلاماً في الطريق . » وقد يدهشنا أن نعلم عدد المرات الكثيرة التي رأى فيها ذلك الغلام رجلاً غير صينيين يضربون الصبية في طرقات الحى الذى شب فيه ، ومع ذلك فإنه بسبب حالة واحدة معينة أصدر حكماً عاماً صارماً على أبناء دولة يقرب عدد أفرادها من أربع مائة مليون نسمة .

وقد يدفعنا ذلك إلى التساؤل عما إذا كان من الضروري إتيان جماعة متماسكة أن يرمى أفرادها كل فرد أجنبي عن جماعتهم بعين الريبة والكراهية . وقد لمسنا من قبل أدلة تنم على أن الطفل عند اقترابه من السن التي تهيئه للدخول في زمرة الجماعة — ويكون ذلك في العادة حوالى سن الحادية عشرة وما بعدها — يكون

(م — ٨)

في حالة صراع إذ تتجاذبه نزعاته الأنانية من جهة ، ونزعاته الاجتماعية من جهة أخرى .

وكل ما يشد أزر النزعات الاجتماعية سوف يعين إذن على دفع الطفل إلى حظيرة الجماعة وإبقائه فيها ، وجعله يشعر بالأمن داخلها . فإذا كانت هذه الجماعة فرقة من فرق الكشافة فإنه سوف يرتدى لباسها الخاص كي يشعر بأنه واحد من أفرادها ، ويستطيع الإعلان عن ذلك لغيره ، كما يصبح متميزاً عن ليسوا من الكشافين . وإذا كانت الجماعة مدرسة فإنه سيلبس الزي الخاص بها ، وغطاء الرأس المميز لها ، وذلك للأسباب نفسها . كما أنها إذا كانت إحدى منظمات الأطفال المنتشرة في هذا البلد فإنه سوف يضع شارتها في عروة سترته ، وقد يضاف في بعض الأحيان إلى تلك الشارات التي ترمز إلى الزمالة والأخوة بعض العبارات السرية والرموز الاصطلاحية . فإذا كانت الجماعة أكبر من ذلك كالدولة مثلاً فإنه عندئذ سيستطيع التخاطب بلغة خاصة تميزه عن أولئك الذين لا يتكلمونها ولا يفهمونها ، والإقامة في مكان من العالم يغار على سلامته ، وأن يحمي العلم الوطني ، ويفخر بتاريخه وتقاليده قد لقبها . كل تلك الأشياء تكون ملكاً له لأنه أصبح عضواً في مجتمع ، فهي مقام إيجابية .

ويمكن أن تقوى الرغبة في الظفر بتلك الميزات إذا مابدأت آراء الغلام عن ليسوا من جماعته تصطبغ بالأزدهاء والمقت . فعندما دخلت بريطانيا الحرب ضد ألمانيا عام ١٩١٤ ، وهبَّ (كتشير) يناشد الرجال الصالحين للخدمة العسكرية للتطوع في صفوف الجيش ، أصبح السؤال الآتي : « لماذا لا ترتدى الزي العسكري ؟ » يستخدم كتعريض مهين بأولئك الشبان الذين حالت بعض الأسباب دون استطاعتهم الانضمام إلى المحاربين . و بنفس الطريقة يتجه الشعب بتفكيره نحو الأجنبي ويسأله : « لماذا لا تكون فرداً من أمتنا ؟ » ولن نجد من بين الإجابات التي قد تمنَّ له ما هو في صالح الأجنبي . والمعنى الوحيد التي كان يخامر نفس

من يلقي السؤال الأول وهو : « لماذا لا ترتدى الزي العسكري ؟ » هو أن ذلك الشخص بثيابه المدنية ليس إلابيانا ، خائر العزيمه ، خائناً . كذلك لا يكون الاجنبى واحداً منا لأنه يتكلم لغة غير مفهومه تختلف عن لغتنا ، ويلبس ملابس غريبة عنا ، ونجد فيه بدلا من الفضائل التى نتحلّى بها عدداً من الرذائل التى نقشعر لها أبداننا . وهو بجانب ذلك يعترض سبيلنا . فنحن إذا لم ننسب إلى جماعتنا القومية فإننا نبقى خارجها مع ذلك الأجنبى .

بذلك يعتبر الاتجاه إزاء الأجنبى فى جميع أنحاء العالم عنصراً من عناصر القوة فى العاطفة الوطنية ، وهو يشتد بطبيعة الحال ويقوى عندما يكون تماسك الأمة ضعيفاً . وعلى الرغم من أن الكره الواضح للأجانب يتم على حركة قومية قوية ، فإنه ليس دليلاً على أمة قوية ، بل يدل فى الحقيقة على ضعفها . وهذا يمثل بمنتهى الدقة موقف الغلام قبل مرحلة المراهقة ، فهو يشعر شعوراً معيناً نحو الجماعة ، ولكنه لا يكون على تمام الثقة من أن مكانه فيها ثابت مكين ، ولهذا قد يشعر بضرورة الإسراف فى تأكيد الأشياء التى تشير إلى عضويته الكاملة فى الجماعة ، والإفراط فى كره الصفات التى تجعله غير صالح لها ، وهو يدرك وجود تلك الصفات فى نفسه إدراكاً قوياً غير أنه ينكرها تماماً ، وهكذا يستطيع أن يتخذ من الأجنبى ضحية يلصق بها جميع نقائصه وأخطائه ، معتقداً أنه يتخلص منها بذلك .

إن هذه المسألة على أكبر جانب من الأهمية من الناحية التربوية . فلو أن بغض الأجانب يعنى أن الولد قد استطاع أن يتخلص من عناصر الصراع الداخلى بإلقائها على شخص خيالى أو « نموذج » يعتقد أنه يمثل أفراد أمة أجنبية ، وأنه بذلك قد مهد الطريق أمام نموه السوى ، فعندئذ يكون ذلك البغض قد حقق بالفعل غرضاً نافعاً ، ولكن الفسكرة ذاتها خاطئة زائفة ، يفضى قيامها إلى قدر كبير من سوء التفاهم الدولى ، ويؤيد قيام الحروب ، ولذلك ينبغى اكتشاف شىء آخر يصلح أن يكون بديلاً منها ، ويؤدى نفس وظيفتها السيكولوجية فى النمو

دون أن يكون له نتائجها الخطرة ، والأمل كبير في أن يتحقق ذلك في المستقبل القريب . ومن المؤكد أنه إلى أن يحين ذلك الوقت فأنا لن نستطيع الاكتفاء بالاعتماد على مجرد قيام الاتصال العادي بين الشعوب ، أو على إنشاء « صداقات القلم » بين الصغار في الأمم المختلفة ، أو الاهتمام بحمل الدروس المدرسية مصدراً للأنباء الصحيحة عن الشعوب الأخرى ، فإن كل ذلك لن يجدي فتيلاً في تصحيح الأفكار الخاطئة التي تملأ ذهن أطفال قد نما عندهم من قبل استعداد لكره كل ما هو أجنبي عنهم ، فلا يرون فيمن يصادفهم من أجنبى على جانب كبير من حسن الأخلاق ، وما يصل إليهم من أصدقاء من الخارج ، أكثر من مجرد دليل على ما للقاعدة العامة من استثناءات ، وعلى أن هناك ، حتى في البلاد الأجنبية ، أفراداً يختلفون عن النوع العادى . وقد أدى فحص أوراق الإجابة عن الاستفتاء الذى أشرنا إليه إلى استنتاج أن تلاميذ الفرق العليا بالمدارس الثانوية ، ممن يعتبرون على أبواب الحياة الجامعية ، لا يختلفون من حيث ما يشغل أذهانهم من ألوان الهوى والتحزب عن تلاميذ المدارس الابتدائية الذين لا يتجاوز سنهم سبع سنوات ، وإن اختلفوا عنهم من حيث اللباقة في الدفاع عن آرائهم .

ويمكننا كذلك أن نرى أن هذه المرحلة التي يستطيع الصبي فيها أن يعمل مع الفريق كمضوفيه ، أو يكون راغباً في ذلك على الأقل ، تعتبر من أهم مراحل النمو ، فإن فترة الانتقال من المرحلة الانانية إلى المرحلة الجمعية فترة صراع شديد . ومما هو جدير بالاهتمام أن ألعاب « الفريق » توصف غالباً بعبارات حربية ، ويُنظر إليها على أنها موقعة صغيرة ، فيقال إن الفريق قد أحرز « الانتصار » ، وإنه قد « هزم » منافسه ، وإن « القتال » كان عنيفاً عندما حاول الفريق المهزوم أن « يقاوم في عناد » . . . إلى غير ذلك .

فالفريق المنافس يشبه إذن ذلك الأجنبي الذي تكلمنا عنه لأنه يحمل اسماً مختلفاً ، ويلبس أفراداً زياً من لون مغاير للون الذى اتخذ الفريق لنفسه ، كما أنه

يلعب تحت قيادة زعيم آخر .

ويمثل الفريق جميع أنواع المجتمعات ورابطات الإخاء التي قد ينضم إليها الصبي مدة من الزمن . فكلها ترمى إلى محاربة شيء أو تأييده والدفاع عنه ، ولكل منها مجموعة خاصة من القواعد ، وغرض مشترك تسعى إليه ، ونجد في الفصل والأسرة نواحي معينة تشترك فيها تلك الجماعات والفرق ، غير أن الفصل والأسرة ليس لهما غرض مشترك واضح المعالم يمكن صوغه في صورة بسيطة مثل التي نصوغ فيها غرض الفريق . فالولد يرتبط بأسرته ، ويدافع عنها ويخلص لها ، لا لأنه يدرك الغرض المشترك بينهما ، ولكن لأن الرابطة التي تصله بها رابطة خنان واعتراف بالجميل . وعندما يصل إلى السن التي تتيح له الاهتمام بالجماعة يصبح وقد تجاذبه البيت والفريق ، وغالباً ما ينتصر الفريق على البيت . فكان الفريق يساعد الولد بطريقة أخرى على بلوغ مرحلة نمو أرقى من سابقتها ، ويعينه على الفطام من نظام قد استنفذ غرضه منه ، ويتمثل هذا الصراع القائم بين مطالب كل من البيت والجماعة في الصورة التقليدية للجندي الشاب وهو يودع أباه وأمه على باب كوخهما كي يسرع إلى الانضمام إلى فرقته التي تمر أمامه .

وقد أصبح من مألوف الأمور الآن في المدارس الثانوية تقسيم المدرسة إلى عدد مناسب من الأقسام التي نطلق عليها عادة اسم « الأسرة » ، والحقيقة أن كل أسرة من هذه الأسر تعتبر فريقاً . فهي تتخذ لها اسماً خاصاً ولوناً مميزاً ، ثم تتنافس فيما بينها على إحراز التفوق في الألعاب المختلفة ، والمباريات الرياضية ، وأحياناً في التمثيل والأدب أو الأشغال اليدوية . وقد اقتبست فكرة الأسر من « المدارس العامة » حيث تكون الأسر فيها وحدات حقيقية تتكون من مجموعات من الأولاد يعيشون معاً في القسم الداخلي ، ويشرف على كل مجموعة عميد من المدرسين . كذلك نرى في بعض المدارس أن الفصل الواحد يقسم إلى فرق ينافس بعضها بعضاً في المواد الدراسية ، وبذلك يعمل كل تلميذ لامتلاكه أجل إحراز التفوق

نفسه ، بل فى سبيل رفع فريقه إلى القمة . لذلك يمكن أن يلعب نظام الفرق ونظام الأسر ، إذا أحسن استخدامها ، دوراً كبيراً فى مساعدة تلاميذ المدارس الثانوية على تكييف أنفسهم لحياة الجماعة .

ولعل حركة الكشفة والمرشدات تعتبر من أنجح المحاولات فى مضمار إشباع الحاجات النفسية للأولاد والبنات فيما بين العاشرة والرابعة عشر ، فإن الهدف الذى ينصبه أمام أعينهم هذا النوع من النشاط ليس هدفاً بسيطاً واحداً ، بل إنه يجمع بينهم كى يشتركوا فى القيام بأعمال متنوعة ، مما يجعلهم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم فريق واحد . ويبرز توحيد الزى ناحية انتسابهم إلى جماعة واحدة ، فينتمى ذلك فيهم شعوراً بتمايزهم عن غيرهم ممن لا يملكون حق ارتداء ملابس الكشفة . كذلك يطلب منهم دائماً أن يراعوا النظافة فى شئونها ، والأناقة فى هئامهم ، وموالة ارتداء الزى الكشفى . ومن الممكن أيضاً استخدام شعارهم المعروف وهو « كن مستعداً » فى إشعارهم بالأخطار التى يتعرض لها فى العالم الخارجى أفراد ليسوا مستعدين لها . فكأن الكشفة بذلك تستغل الحافز الذى يحتمل أن يكون هو الذى حدا بالفرد إلى تكوين الجماعة . وفى الوقت نفسه يكون الإشباع الأمانى ميسوراً لأفراد فريق الكشفة أو المرشدات عندما يستغلون خبرتهم ومسانهم فى تقديم المساعدة إلى الغير ، أو يظفرون بالشارات المختلفة التى نراها على صدورهم وأكمامهم مثل شارات المهن والأقسام . فكان الحركة جميعها نوع من التدريب الرائع النافع فى تلك المرحلة الدقيقة التى يكون الولد فيها شاعراً بالصراع الداخلى القائم بين الحوافز المختلفة التى تدفعه حيناً نحو الميول الفردية ، وحيناً آخر ناحية مصلحة الجماعة .

ويكثر الحديث فى هذه الفترة « الحرجة » عن ألوان الصراع التى كثيراً ما تدفع الأولاد إلى ارتكاب أعمال عدوانية ضد الجماعة ، أو ضد هؤلاء الذين تمثل السلطة التى فى أيديهم ما ينال الأولاد من حرمان على أيدي الجماعة . ويناقش

(هيلى) فى كتابه « الصراع العقلى وانحراف السلوك ^(١) » — وهو من أوائل الكتب القيمة فى هذا الميدان — طبيعة الصراع الذى يكمن وراء مظاهر هذا الجناح عند الأحداث . فقد يتخذ التمرد صورة الفرار من البيت ، أو الهرب من المدرسة ، أو الكذب ، أو إنزال الأذى بالغير ، أو سرقة زملاء ، أو الاشتراك فى إحدى العصابات التى تتكون بقصد السرقة ، والشجار مع العصابات الأخرى ، والسطو على المتاجر ، وغير ذلك من الأعمال التى تقع تحت طائلة القانون . ويمكن التمثيل لهذا الصراع بحالة غلام كان يعتبر من أحسن الأعضاء خلقاً فى أحد أندية الصبيان ، ولكنه فى إحدى الليالى اقتحم النادى خلصة بعد إغلاقه ، وحطم كل ما وصلت إليه يده . وعندما اكتشف أمره بعد ذلك لم ينكر ارتكابه لما حدث ، بل اعترف صراحة به ، دون أن يستطيع إبداء سبب لذلك .

وقد كانت الفترة التى نتكلم عنها موضوع دراسة فى السنوات الأخيرة ، وإن كانت الأسباب التى أفضت إلى بحثها تختلف عن دواعى هذه الدراسة . فنجد فى تقرير هادو ^(٢) ميلاً إلى اعتبار أن سن الحادية عشرة هى السن التى ينبغى عندها انتقال التلاميذ من المدرسة الابتدائية إلى مدرسة ثانوية من نوع يناسب استعداداتهم ، ويلائم نوع الأعمال التى يعتمرون القيام بها فى مستقبل حياتهم . على حين يعتقد عدد من المشتغلين بالتربية من مدرسين وإداريين أن تلك السن لا تلائم هذا الانتقال ، ويقترحون أن يتم ذلك فى سن الثالثة عشرة . وقد أجريت تجارب كثيرة فى هذا الموضوع ، ويبدو منها أن بعض النتائج توحى بأن المدرسة الثانوية أكثر ملاءمة للتعليم الذى يبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة منها لمن لم يتجاوز الحادية عشرة . وتنادى فئة ثالثة من الباحثين ، استناداً إلى نتائج أخرى غير السابقة ، بأن الفرق الأولى من المدرسة الثانوية ينبغى أن تنظم بشكل يلائم من

(1) W. Healy : « Mental Conflicts and Misconduct » .

(2) The Hadow Report .

بلغ سن الحادية عشرة ، إذ أنه يكون عندئذ أكبر من أن تناسبه المدرسة الابتدائية . ويمكن الرد على كل ذلك بأن في الإمكان جعل الفرق العليا من المدرسة الابتدائية ملائمة لحاجات التلاميذ الذين تتراوح أعمارهم بين الحادية عشرة والثالثة عشرة .

ويبدو أن الجدل القائم يشبه ما ألف الناس قيامه في الأسر التي ينتقل فيها الأطفال من عناية المربيات إلى أيدي المربين الخصوصيين ، حيث تدعى المربية أن الطفل قد حرم عنايتها في وقت مبكر ، على حين يحتج الرائد بأنهم لم يعهدوا بالطفل إليه إلا في وقت متأخر . وما دمنا نحاول أن نناقش المسألة من ناحية المناهج ومواد الدراسة فإن الجدل لن ينتهي بقول فصل . والنقطة القوية في حجج المطالبين بتأخير سن الانتقال هي أن قليلا من الأطفال من يُظهر في سن الحادية عشرة ميلا قويا لاتجاه معين . كما أن اختبارائنا المهنية لم تصل بعد إلى درجة الكمال التي تجعل في استطاعتنا أن نعتمد عليها في التنبؤ بمستقبل الطفل وهو ما زال في سن الحادية عشرة .

غير أننا إذا نظرنا إلى هذه الفترة التي تقع بين الحادية عشرة والثالثة عشرة على أنها فترة انتقال — وإنها في الحقيقة كذلك — فيمكننا عندئذ أن ندرك أن من الأفضل نقل الطفل عند هذه السن من المدرسة الابتدائية ، لا إلى مدرسة ثانوية من النوع المألوف ، بل إلى مدرسة تنظم نواحي النشاط فيها على أساس الحاجات النفسية لتلاميذ هذه السن ، فإنهم بذلك يستطيعون أن يتغلبوا على ذلك الصراع الذي يحول استمراره دون صلاحيتهم لعضوية الجماعة ، كما يمكنهم أن يدّلوا باختيارهم لأنواع النشاط التي يساهمون فيها على الميل الذي يتخذ أساسا لتحديد نوع التربية التي تلائمهم في المستقبل .

الفصل السادس

حلم اليقظة والخيال العاطفي

كتب الأستاذ (ستانلي هول) في كتابة عن المراهقة ، وهو من أوائل الكتب في هذا الموضوع ، ما يأتي : « يعتبر البلوغ تاريخ ميلاد الخيال ، وحلم اليقظة هو ضوء الشفق الذي ينبئ عن إشراق الخيال . وإذا كان الخيال خصباً غنياً فإنه يستطيع إكمال كل نقص ، إذ يمنح الضعيف جسمًا رياضيًا بديعًا ، ويهب السائل المعدم ثراءً عريضاً . ولا يدخل في حسابه مقتضيات الزمان أو المكان . فهو في إيجاز ملكة للتعويض والتكميل ، وفي دنياه تتحقق جميع الأمناء . وتدل مئات من الأحلام التي سجلت في غير هذا المكان على أن الكثيرين من الأطفال الأسوياء لا يجدون أن كل ما يحيط بهم قد تضائل لحسب ، بل إنه قد أصبح أيضاً قائماً معتمداً إذا ما قورن بأحلام اليقظة . فسن الطفولة تكون مفرطة في النقص إذا أفقرت من ألوان الخيال . وإذا لم يكتمل نمو الملكات النقدية التي تعمل فيما بعد على القضاء على تلك الخيالات والأوهام ، فإن الصغير قد يصبح ذاهلاً عما يجري حوله ، أو ناسياً لما يدور في بيئته تمام النسيان ، فلا يستجيب لندائها ، إذ يكون زمام أحلامه قد أفلت من يده فتصبح ألواناً من (الحصار) . ولا نكون مخطئين إذا ما وصفنا حالات الاستغراق والغيوبة بأنها نوع من الانتشاء بخمر الخيال ، وتلك حالة كثيراً ما تنقلب عادة مكينة ، غير أنها بحكم طبيعتها لا تكشف عن نفسها للغير إلا في أنواع من الاتجاهات العصبية ، واضطرابات في الاستجابات العادية ، مما يعزوه أفلاطون إلى طبيعة الفيلسوف الحقيقي . وإلى تلك المرحلة التي

تعتبر عتبة للحياة النفسية السوية يرجع كثير من القصص الذائعة ، ورقاء الخيال ، والحيوانات التخيلية التي يستحيل أن يقرّ علم الحيوان وجودها ، وكذلك قصص المغامرات العاطفية التي يكون مؤلفوها هم دائماً الشخصية المركزية فيها ، والتي تكون في ذلك الوقت مصطبغة بلون الحقيقة إلى درجة كبيرة ، ولكنها وفقاً لقوانين الظواهر النفسية المتصلة بالمراقبة ليست ثابتة بل عارضة ، بحيث أن كل ماتحفل به من مناظر قد يعاود الظهور في روايات أخرى^(١) .

وهكذا يتنبأ « ستانلي هول » بالآراء التي أصبح علماء التحليل النفسي يؤكدونها فيما بعد عن أحلام اليقظة ، وعلاقتها بالقيود التي تفرضها ظروف الواقع علينا . غير أنه لا ينبغي لنا وقد اتسعت معلوماتنا عن حياة الأطفال المبكرة ، وبلغنا في ذلك شأواً بعيداً ، أن نقرّ « هول » على رأيه القائل بأن ظهور أحلام اليقظة يبدأ عند سن البلوغ . كما يجب أن ننظر إلى رفاق الخيال ، والحيوانات التخيلية ، والقصص الذائعة على أنها بقايا أحلام يقظة حدثت في أوقات مبكرة . غير أن ما يسترعى الاهتمام في أحلام اليقظة عند المراهقين هو « صبغتها العاطفية » .

ونجد في العادة أن حلم اليقظة العاطفي يصور الحالم في صحبة شخص من الجنس الآخر ، فقد يسير الاثنان جنباً إلى جنب ، أو يجلسان متجاورين ، أي أنهما يكونان عموماً معاً . وينصب التأكيد في غالب الأحيان على الوسط الذي يوجدان فيه ، ذلك الوسط الذي يوصف دائماً بأنه مفرط في البهاء والروعة . ويكون المنظر غالباً في الهواء الطلق حيث تضيئ عليه التلال والأشجار والغابات والحدائق والزهور جمالاً رائعاً . أما إذا كان المنظر داخلياً فإن الغرف تكون « أنيقة » ، أو « جذابة » أو « مؤثثة بأفخر الرياش » . ويتوقف مدلول تلك الألفاظ على اطلاع الحالم وخبراته إلى حد كبير . وتوصف الحالات الوجدانية التي تصحب مثل هذا الحلم بأنها سعيدة ممتعة . وقد يذكر الحالم في بعض الأحيان أن لفظ « السعادة » لا يصف

الخبرة التي مر بها وصفاً دقيقاً ، لأن السعادة ذات صفة فريدة ، فيقول : « كنت كما لو أتى رُفعت عن الأرض » ، أو « أحسست بأنى أخف من الهواء » . وليس هناك ما يوحى بأن تلك الوجدانات قد تكون ذات صبغة شهوية ، كما أن الحالم لا تساوره أية رغبة شعورية في إمكان ذلك ، وإلا فإنه ما كان ليقص حلم يقظته بمثل تلك الصراحة . وينبغي ألا يغيب عن بالنا أنه على الرغم من اهتمام الصبيان والبنات كل منهم بالآخر ، وميلهم إلى التواجد معاً أثناء سنوات المراهقة المبكرة ، فإن الكثيرين منهم لا يكون عندهم وعى جنسى ، وإنما ترجع الانفعالات السارة في حلم اليقظة إلى مجرد اجتماع الجنسين ، على الرغم من أن الحالم لا يدرك في وضوح السبب الذى يجعل ذلك الأمر يؤثر فيه مثل هذا التأثير الممتع . كما أن تلك الانفعالات قد تنسب في بعض الأحيان إلى رواء المنظر ، أو أريج الزهور ، أو أهازيج الطيور .

وعلى الرغم من أن اعترافنا بحدوث أحلام اليقظة المبكرة يضطرنا إلى الاختلاف مع « هول » في أن المراهقة هي « تاريخ ميلاد الخيال » ، فإنه لا يسعنا أن نشك في اختلاف أحلام اليقظة العاطفية عن الأحلام التي سبقتها في مراحل النمو المبكرة من حيث كثرة ما تحفل به من صور مختلفة . ويبدو أن الخيال في سن المراهقة يكون أكثر نضجاً منه قبل ذلك . وكل ما يحدث في هذه السن هو أن الذكاء الذى تقيسه اختباراتنا العقلية ، يكون قد بلغ أقصى نموه ، ولعل هذا الاتفاق لا يخلو من مغزى ودلالة .

وقد يكون غنى أحلام اليقظة العاطفية بشتى ألوان الصور راجعاً إلى ما تيسره الخبرات السابقة للأفراد من مادة تشتق مباشرة من الحياة نفسها ، أو من الكشِب وسائر المصادر التي تزود المراهقين بالمعلومات ، وكذلك إلى أن أحلام المراهقة تكون مسبقة بأحلام الطفولة المتأخرة والصبا ، وينبى أن ندخل في حسابنا أيضاً

ذلك الكبت الشديد الذى يصيب الحوافز الجنسية (بمعناها المألوف) ، وما يرتبط بها من انفعالات عنيفة .

وقد قصت فتاة فى السادسة عشر من عمرها تقريباً ، وهى من عائلة رقيقة الحال تعيش فى إحدى ضواحي لندن ، أنها كانت ترى كل ليلة ، قبل ذهابها إلى فراشها ، حلم يقظة تظهر فيه حجرة جميلة ذات ألوان هادئة ، عاجية أو قرنفلية ، بها نافذة ضيقة تحتها مقعد ذو وسائد . ولا تذكر الفتاة إذا كان بالغرفة أزهار ، ولكنها تذكر أن هذه الحجرة كانت تضوع بأريج الزهور . وكانت النافذة تطل على الحديقة حيث تبدو أشجار الفاكهة وقد تفتحت أزهارها . وكان يجلس إلى جوارها على المقعد ذى الوسائد شخص يبادلها حديثاً فيه عذوبة ورقة . . . يستطيع من قرأ شيئاً عن الشعر الغزلى ، وخاصة تلك القصائد الشرقية التى تمثلها « أنشودة سليمان » أصدق تمثيل ، أن يدرك على الفور مغزى تلك الصور التى كان يتكرر ظهورها فى أحلام اليقظة عند الفتاة . غير أن تلك الأحلام جميعاً ، على ما بها من متعة ورواء ، كانت فى نظر الفتاة غريبة غير مفهومة ، إذ هى لا تذكر من خبراتها الماضية ، أو مما قرأته فى الكتب ، ما قد يوحى إليها بتلك الرموز التى استخدمتها . ولذلك فإنها أخذت تفخر بأن أحلام يقظتها كانت من ابتكارها . وقد وصفت تأثيرها الوجدانى العام بأنه من النوع الذى يورث اللذة والراحة النفسية .

إننا نرى فى هذا الحلم أيضاً رفيق خيال يذكّرنا برفقاء الخيال الذين لاحظنا وجودهم فى لعب صغار الأطفال وأحلام يقظتهم . فهل نستطيع إذن أن نفترض هنا وجود حالة كبت ، ونكوص إلى مرحلة مبكرة ، بدلا من الانتقال إلى مرحلة متقدمة من مراحل النمو السوى ؟ قد يكون الأمر كذلك . ولكن الأكثر احتمالاً هو أن الرغبات الأنانية التى تميز المرحلة المبكرة لم يتم التخلص منها ، بل أنها كُبتت ، فعادت الآن إلى الظهور تنشد الإشباع . فنظر الغرفة الهادئة ، العبقة بالعطر ، ذات الألوان الهادئة ، تشبه إلى حد كبير « البرج العادى » ، أو الحصن

الصغير الذي سُجنت فيه (رابونزل)^(١) ، أو البرج الذي كانت (سيدة شالوت)^(٢) تجلس فيه إلى مغزلها ، وتطيل النظر في مرآتها . فهو يشير إلى الانسحاب من العالم الخارجى ، وهذا هو ما يعنيه ابتداء رقص الخيال ، أو الانشغال بالذمى واللعب .

فنحن إذن أمام حالة « هرب » من العالم الواقعى الذى تعرفه الفتاة . فهى تقضى نهارها فى المدرسة حيث تقوم بأعمال تتطلب انتباهها الشعورى ، وجهدها الإرادى ، وتشارك مع زميلاتهما فى أداء ضروب شتى من النشاط العادى ، وهذا مفروض أنه يشبع جانباً من حاجاتها النفسية . ولكن يبقى بعد ذلك جانب آخر من الرغبات والأمانى التى لم تنل الإشباع ، فلا تجد الفتاة وسيلة إلى ذلك الإشباع الذى تشبهه إلا عند الابتعاد عن مدرستها وأسرتها ، والانفراد بنفسها ، حيث تستطيع أن تخلق لنفسها ملجأ موهوماً ، ورفاقاً خياليين ، تستمتع بصحبتهم . وعندئذ تسلم عيونها لسلطان النعاس بعد أن تكون قد أصابت إشباعاً ملائماً ، وإن كان غير كامل .

ويدور حلم هذه الفتاة حول أمر يحتاج إلى دراسة ومناقشة . ويدرك من قرءوا كتاب « تأويل الرؤى » لفرويد^(٣) ، أو رسالة « نظرية الرمزية » لإرنست جونز^(٤) ، أن الرموز المختلفة التى ظهرت فى الحلم إنما هى قبل كل شئ وسائل غير مباشرة لتمثيل جسد الفتاة ، غير أن الفتاة لا تشعر بأنها كذلك ، ولهذا نراها تتحدث فى غير موارد عن اللذة التى تشعر بها عند تأملها ، وتصفها بالجمال .

(١) بطلقة قصة خرافية لويليام موريس . وهى طفلة صغيرة ذات جدائل مفرطة فى الطول والجمال من الشعر الذهبى . سجنها إحدى الساحرات فى البرج فكانت تدل شعرها ليتخذ منه أميرها الم محبوب سلعاً يصعد عليه إليها (المترجم)

(٢) ذكرها (تينسون) فى إحدى قصائده الشهيرة ، وكانت لا ترى العالم إلا خلال مرآتها . (المترجم)

(٣) Sigmund Freud : « The Interpretation of Dreams » .

(٤) Ernest Jones : « The Theory of Symbolism » .

وتلك هى النظرة العاطفية إلى الجسد البشرى . ولقد أطنب كتاب المدرسة الرومانتية ، مثل (بيرون) و (مور) وغيرها ، فى التعبير عن الإعجاب بالجسد البشرى ، فكانوا يقارنون أجزاءه بكل ما فى الأرض والسماء من أشياء تصلح لتلك المقارنة . وقد سائرهم « شكسبير » فى ذلك ، غير أننا نجده فى لحظات التفكير الهادئ يصف تلك الموازنة بأنها موازنة « زائفة » . ولا شك أن مما يثير الاهتمام أن نجد فتاة صغيرة السن تستخدم خيالها فى حلم يقطبها ، دون قصد ، لنفس الغرض الذى كان يرمى إليه أشد الشعراء العاطفيين إسرافاً . أليس حلم يقطبها جميعه يبرز جمال جسدها — من حيث بهاء الصورة ، ورقة اللون ، وأريج الزهر ؟ — ، وكذلك حقها فى الإعجاب والاستمتاع به إلى أقصى حد ، حتى ولو شاركها غيرها فى ذلك ؟

ولا شك فى أن تلك النظرة إلى الجسد نظرة وثنية غير أخلاقية . وقد بذل مجتمعنا كل جهد مستطاع للتخلص منها ، كما أن كثيراً من المذاهب الدينية تعارضها فى شدة وعنف . وهى أيضاً تخالف معظم ما تعلمته الفتاة ، وما شئت عليه فى البيت والمدرسة منذ نشأتها الأولى .

ونستطيع أن نملأ صفحات كتاب باقتباس مقتطفات من أقوال الفلاسفة ، ورجال الدين ، والفنانين ، وعلماء التشريح ، والمؤلفين ، والشعراء ، وكلها تعبر عن آرائهم فى جسد الإنسان ، وعلى الأخص جسد الأنثى ، وتتراوح تلك الآراء بين القول بدمامة الجسد البشرى ، أو الإشادة بجماله ونبله . « فسفر التكوين » مثلاً يذكر أن الإنسان قد صيغ على صورة الخالق ، ولذلك لا يرى حرجاً فى التحدث عن جماله « الإلهى » ، بينما يرى (شوبنهاور) أن الرجل لا يرى فى جسد المرأة أى جمال إلا عند ما يكون واقعاً تحت سلطان الشهوة الجنسية . ويقال أن محلى أثينا شعروا باستحالة ارتكاب (فيرن) أى جرم وهى على تلك الدرجة من الجلال الطاغى الأخاذ ، ويبدو أن (سويغت) كان يرى أن للبشر

عادات بغيضة ، وشكلا كريهاً ، بحيث أننا لو قارناهم بالخيال لكانوا مثاراً للسخرية . ولذلك نجده يصورهم في (ليليت) على شكل أقزام كى يظهرهم في صورة مخلوقات قيئة تثير الاحتقار ، على حين يصورهم في (بروبدنجناج) عمالقة ، بقصد الإسراف في تضخيم نقائصهم وعيوبهم . ولكن (ملتون) ، على الرغم من أنه كان من طائفة للمتطهرين ، فإنه قد عبر بتحفظ عن تقديره لجمال حواء قبل الزلة ، ولهباء صورة (أورورا) و (ونييرا) .

غير أن اهتمام الطفل الصريح بجسمه ووظائفه ، واستمتاعه بذلك ، يصطدم بحظر الآباء وغيرهم ممن يكون عليهم أن يعلموه الرعاية الصحية لوظائف الجسم ، ويطلبون منه في إصرار أن يساير مقتضيات العرف الاجتماعى . فيتعلم الطفل من ذلك أن كثيراً من الأمور السارة الممتعة في نظره يعتبر « قدراً » أو « غير لائق » ، ويحد نفسه مضطراً لقبوله على أنه كذلك ، دون أن يستطيع بإدراكه الضئيل أن يدرك الأسباب التى تدعو لمثل تلك التقديرات . كذلك يتعلم أن يكون « نظيفاً » و « محترماً » و « حسن السلوك » و « متواضعاً » ، إلى أن يأتى عليه وقت يشعر فيه بنجل حقيقى من مخالفة العرف المفروض عليه . فيكون قد كبت بذلك أشياء كثيرة أودعها عقله اللاشعورى ، ولكن الخوافز التى كانت تقضى إلى إتيانه ما كان يأتية من أعمال قبل فرض تلك القيود تظل ناشطة فعالة ، فتدفعه إلى مخالفة قواعد العرف مادام فى استطاعته أن يتجنب حدوث صدام بينه وبين المجتمع ، ولذلك يرحب الكثير من الناس بفترات الاستحمام التى تتاح لهم فى المصايف الساحلية ، أو معسكرات العراة .

ولكن يبدو أن التغيرات الجسمية التى تصحب المراهقة تؤدى بالفرد حتماً إلى توجيه انتباهه إلى جسده ، مما يجعل الحافز إلى تبين مافى الجسد من جمال وإثارة يعاود التعبير عن نفسه ، ويصبح ذلك على أكبر جانب من الأهمية البيولوجية لأن الفرد يحب ، عندما يكون راغباً فى الزواج ، أن يظهر جسده بديعاً

جذاباً في أعين أفراد الجنس الآخر . ولكن قوة الكبت تحول دون التعبير المباشر عن جمال الجسد ، فيتم ذلك التعبير بصورة رمزية . ويمثل الحلم الذي بسطناه ذلك كما أن في استطاعتنا أن نذكر له أمثلة أخرى كثيرة .

فلم البطل الذي أشرنا إليه من قبل يتكرر حدوثه للصبيّة ، غير أن صورته تكون قد نالها التغيير والتعديل . ويمكن اقتباس الحالة الآتية لتمثيل ذلك تمثيلاً واضحاً : يرى الحالم حصاناً قد جمح برا كبه ، واندفع في طريقه ، ويكون ذلك الراكب فتاة . ودون أن يكثرث الحالم بما قد يتعرض له من أخطار يسرع نحو الحصان ، ويمسك بلجامه فيوقفه ، ثم يعين الفتاة على الترتل ، ويصحبها إلى حيث يقابل والديها اللذين يقدمان له شكرهما ، ويدعوانه لمرافقتها إلى بيتهما ، حيث يكرران له الشكر ، ويثنيان على بطولته .

نلاحظ في هذا الحلم عناصر تشترك فيها أحلام يقظة البطولة عند صغار الأولاد ، غير أننا نرى في الوقت نفسه فروقاً تضاف عليه لونا « عاطفياً » ، فالشخص الذي ينقذه البطل فتاة ، وليس هناك وجود لجمهور المعجبين ، وهذا يوحي بأن استحسان الجماعة لأعمال البطولة ليس جزءاً من الإشباع الذي ينشده الحالم .

كذلك نجد عنصراً هاماً آخر . فالغلام الذي قص الحلم ذكر أن أبوي الفتاة كانا من طبقة اجتماعية تسمو على طبقته ، مدّلاً بذلك على أنه ما كان يستطيع دخول بيت الفتاة أو التعرف إليها واكتساب صداقتها لولا ما أوتيّه من شجاعة ونخوة . فهو إذن قد تمكن بإقدامه من أن يعبر الثغرة الاجتماعية التي تفصل بين طبقتيهما ، وأن يتغلب على المعارضة التي تقيمها التقاليد العتيقة . فهو قد استخدم القوة في إقناذ الفتاة من الجواد الجامح ، كما أنه أخذها من والديها برضاها . فكأنهما بذلك قد قبلا التوفيق بين مركزين اجتماعيين مختلفين .

ونجد أنواعاً شتى من التعبير عن فكرة « التوفيق » هذه في كثير من الكتب التي ليست سوى صور مختلفة لحلم اليقظة ، إذ نرى في بعض منها شخصاً

يمثل النظام القديم ، أو أحد النبلاء الفرنسيين ، أو واحداً من أولئك السادة الأمريكيين الذين حاربوا في صدر شبابهم من أجل اتحاد الولايات الأمريكية في الحرب الأهلية ، وأن هذا الشخص يصطدم بالنظام الجديد السائد ، الممثل في الشاب الذي وقعت ابنته في غرامه . وقد تتخذ القصة بعد ذلك تطورات مختلفة ، غير أن الخاتمة تكون إجمالاً كما وصفناها في حلم اليقظة عند المراهق . فبطولة الشاب تترك في نفس الأب أثراً عميقاً يقضى إلى التوفيق بين الرجلين ، وزواج الشاب بالفتاة .

ولسنا في حاجة لأن نؤكد أن الشاب الذي يظهر في حلم اليقظة يكون صاحب الحلم نفسه أو مثلاً له . فالكهل رمز ذلك النظام القديم ، الذي يكون الشاب متمرداً عليه ، يمثل القوم الذين حاولوا أن يفرضوا على البطل بالقوة مثلاً عملياً ومعايير خاصة . وأولئك هم بالترتيب الأب ، فأفراد الأسرة ، ثم من يأتي بعدهم من المعلمين والأطباء ورجال الدين . وهم جميعاً يملكون سلطة يحاولون فرضها عن طريق سمو مركزهم ، وعلو منزلتهم . ويكبر الأطفال ويسعون في الحياة دون أن يحسوا كرهاً نحو آبائهم ، فإن الرغبة في موتهم أو رحيلهم أو تغييبهم مدة طويلة مستمرة تكون قد كبتت في اللاشعور منذ وقت طويل . ومع ذلك نجد الحياة الأطفال تاريخاً حافلاً بضروب التمرد العرضي على النظام في المدرسة والبيت والكنيسة ، مما يشير إلى استمرار بغضهم للسلطة ، حتى ولو كان الذين يستخدمونها ممن يحبهم الفرد من نواح كثيرة . فنرى بعض الأولاد يكتثرون الهرب من المدرسة ، كما أن بعضهم تظهر عليه من حين لآخر أمراض عصبية تنبئ له التغييب عن المدرسة . وحتى أولئك الذين يكونون متقدمين في دراستهم ، ومحبو بين من مدرسيهم ، لا يكتفون ابتهاجهم بحلول موعد انتهاء موسم الدراسة . وكثيراً ما يُسر الأولاد كذلك لتغييب أحد مدرسيهم بسبب المرض ، وزيارهم يعبرون عن ذلك بأشكال مختلفة تتضمن في جملتها ما معناه : « حسناً ! الآن سوف يتاح لنا

وقت هادىء لفترة من الزمن » . وتمر بالمدرس حالات كثيرة من الأفعال الصيانية التى تنبىء عن روح المشاكسة ، مثل المخالفات البسيطة للنظام ، الأمر الذى لا يعود على مرتكبيه بشىء من النفع ، ولكنه يكون مجرد تعبير عن كراهيته لسلطة المعلم . وتقضى مثل تلك الأفعال إلى نتيجتين : فهى تسبب مضايقة للمعلم ، وتثير غضبه فى بعض الأحيان ، كما أنها تضطره إلى أن يوجه انتباهاً خاصاً إلى التلميذ كفرد . فمن الناس من يفضل أن يعامل معاملة سيئة كفرد على أن ينال معاملة حسنة يشترك معه غيره فيها . وكم رأينا أثناء الحرب ، والسنوات التالية لها ، كثيراً من الناس يصرون على طلب معاملة خاصة تختلف عن تلك التى يعامل بها غيرهم وذلك من حيث كميات التموين والوقود . ونحن بطبيعة الحال لا نغنى بقولنا هذا أولئك الذين كانت بهم حاجة ماسة إلى تلك المواد ، بل أولئك الذين لم يكن لديهم على الإطلاق سبب يبرر تلك الرغبة . فكانوا يضيعون وقت الموظفين سدى لغير ما سبب سوى كرههم للمساواة بغيرهم فى المعاملة . لأن بعض أنواع تقدير الذات تؤكد لنا اختلافنا عن غيرنا من الناس مما يفضى إلى كراهية النظم والقوانين التى تضع الأفراد جميعاً على قدم المساواة . وهى تعبر عن نفسها بإظهار مميزاتنا على غيرنا عن طريق المطالبة بالمعاملة الخاصة ، والإعفاء من القوانين ، وعن طريق ردود الأفعال التى تتيح لنا التعويض عن إحساننا اللاشعورى بالدونية .

ومما لا شك فيه أن هذه الاتجاهات ترجع إلى سن الطفولة المبكرة . فالوليد شخص ممتاز ، يتمتع بمعاملة خاصة من والديه ، وخصوصاً إذا كان الطفل البكر ، أو كان أصغر الأبناء . ويحتمل ألا تكون تلك الفترة حافلة تماماً بذلك القدر من السعادة التى ينسبها الشعراء إليها . ولكن مميزاتنا الكثيرة لا تقدر إلا بعد فقدها ، وعندئذ يحدث إسراف فى الإشادة بمحاسن الطفولة المبكرة ، مما يجعلها تبدو كما لو كانت فترة نعيم مقيم . وقد كان الناس يجدون فى هذا الوم متعة كبرى

كما أن البشرية قد جنت منه نفعا متعدد الصور ، إذ حاول عدد من الأفراد الأكفاء إبدال الحقيقة وصباها في قالب ذلك الحلم من أحلام اليقظة الذى يدور حول ذلك السكال المفقود ، فحاولوا أن يقيموا على الأرض فرادس ومجتمعات كاملة ، وكانوا يحسون فى ذلك بما يشبه المتعة التى يحس بها أولئك الذين ينطلقون وراء آمال عريضة ، وغايات بعيدة ، قد لا يتحقق منها شئ ، على الإطلاق . ولقد أفادت جهودهم الكثيرين غيرهم . ولكن جنة الأطفال لن تستمر فيها الدعة والسلام ، إذ يقتحمها عليهم الأب الصارم المتسلط الذى يفرض النظام عليهم ، ويطلب منهم أن يكونوا مسئولين عن أعمالهم . وهنا تصبح تلك الجنة الوداعة الآمنة بيئة جافة مجربة . ولذلك نرى (سندرلا) تطيل التفكير ، أثناء عملها بالمطبخ ، فى تلك الفترة التى كانت تنعم فيها بحنان أمها وعطفها ، قبل أن تنجى تلك المرأة التى أكرهتها على القيام بعملها البغيض . ولا تنتهى حياة الواقع وما فيها من متاعب وآلام إلا عند ما يظهر الحب الذى يرفعها ثانياً إلى علياء سمائها المشتهاة ، ويشاطرهما حياتها فيها .

ويندر بغير التحليل أن يستطيع الراشد أن يتذكر طبيعة اتجاهه اللاشعورى أو مداه ضد الأب الذى يكون قد ارتبط بالقيود المفروضة عليه ، لأن هذا الاتجاه ينمو عادة فى الوقت الذى يبدأ الطفل فيه أن يدرك أن أباه ليس فى الحقيقة محيطة علماً بكل شئ ، أوله قدرة شاملة ، أو معصوماً من الخطأ . وقد استطاع (إدموند جوس) فى كتاب « الأب والابن ^(١) » أن يستعين بذكريات طفولته فى تقديم وصف رائع لهذه المرحلة . فالرغبات العدائية ضد الأب تحسبت كبتاً تاماً لدرجة أن معظم الرجال والنساء لا يكون فى مقدورهم أن يؤمنوا بإمكان

(١) Sit Edmund Gosse : "Father and Son" والمؤلف كان من أبرع النقاد والكتاب فى إنجلترا ، كتب تراجم حياة عدد من العلماء ، وكان أميناً لمكتبة مجلس اللوردات عام ١٩٠٤ . وقد كتب « الأب والابن » عام ١٩٠٧ ، ويعتبر هذا الكتاب قصة حياته المبكرة ، (المترجم)

وجودها إطلاقاً . وهم إذ يعترضون بحجة على تأكيد وجودها ، بدلا من مقابلة ذلك التأكيد بابتسامات الاستخفاف ، إنما يتيحون لنا أن نفترض وجود أسباب تدعو إلى الاعتقاد بأن الأمر مدلولاً شخصياً بالنسبة إليهم ، ولو أن مجرد اعتراضهم واحتجاجهم لا يقطع طبعاً بوجود تلك الرغبات المبكرة . وتؤيد ملاحظة نمو صغار الأطفال بشكل دقيق منزله عن الهوى ، وجود رغبات عدائية قوية ضد الأب منذ وقت مبكر ، حتى ولو ظهر على الطفل في بعض الأوقات ما يوحي بأنه يكنّ لأبيه أشد الحب .

وقد نخيل إلينا أن هناك تناقضاً في القول باجتماع حب شخص و بغضه في آن واحد . ولكن تلك حقيقة واقعة تؤيدها أمثلة كثيرة . غير أن بغض الأب ، والخوف منه ، وحبه ، لا يمكن أن تجتمع معاً في عاطفة متزنة مرتبطة بالأب . فكلما ازداد الطفل فهماً للأسباب التي تحددو بالأب إلى فرض النظام ، فإن الخوف والعداء لا يموتان ، بل يظلان كامنين في أغوار اللاشعور ، ويكونان على أهبة الاستعداد للارتباط بالأشخاص أو النظم التي تقسر الفرد على أن يمر ثانية بمثل تجاربه المبكرة مع أبيه ، مما يؤدي إلى أن يتخذ من أولئك الأشخاص ومن تلك النظم « بدائل للأب »^(١) وهكذا فإنه قد ينقل عدائه القديم لأبيه إلى المدرس ، أو إلى رجل الدين ، أو إلى الطبيب . كما أنه قد يحوله نحو نوع معين من الدين ، أو الآلهة ، أو « رأس المال » ، أو « العمل » ، أو « الاستعمار » ، أو قد ينقله إلى زعيم سياسي معين ، أو حزب من الأحزاب ، أو بعض أنواع الحكومات . ولذلك نرى من حين لآخر أفراداً يعتقدون مذاهب سياسية تخالف المذاهب التي كانت تحظى بتأييد آبائهم ، ثم نجدهم بعد ذلك يؤازرون حزب الأب بعد فترة مقاومة يكونون قد قاموا أثناءها « بدراسة » السياسة ، مما يجعل في استطاعتهم أن يقنعوا أنفسهم بأن تحولهم كان نتيجة للتفكير السليم المتزن .

(1) Father Substitutes.

ومع ذلك لا ينكر أحد أننا عندما نحاول اكتشاف السر في إصرار أحد الأفراد على معارضة مذهب سياسي أو ديني فإننا كثيراً ما نجد قائماً على أهواء قد تغلغلت جذورها في أعماق اللاشعور ، كما نجد أن الفرض من دراسته لتلك المذاهب لم يكن إلا وليد الرغبة في إقناع نفسه بسلامة اتجاهه . وبذلك تكون النتيجة سابقة على الدراسة . وقد يظهر الاتجاه العدائي في العطف على الثوار عامة ، أو تأييد حركات المعارضة أيا كان لونها . وعندما تصادف أشخاصاً في مظهر وادع يقعون في دورهم في دعة واطمئنان ، ويأخذون في التعبير الهادئ عن إقرارهم لتلك الفصول الغنية في فلسفة (نيتشه) ، أو يتحدثون عن استحسانهم لأعمال القسوة والوحشية التي تصدر عن دكتاتور في إحدى البلاد البعيدة ، فإننا عندئذ نستطيع أن نستنتج وجود نظام لا شعوري من الاتجاهات ، أي عقدة^(١) ، من النوع الذي نتكلم عنه .

فموقف الخيال العاطفي الذي يظهر في حلم اليقظة ، أو القصة الشبيهة به ، أو في الحياة الواقعية في أحيان كثيرة ، يضم ، صراحة أو ضمناً ، شخصاً أو عدة أشخاص يذكرون الفرد بأبيه في طفولته . فالسيدة التي يريد الرجل الزواج منها تكون من أسرة ينبغى الحصول على موافقتها حتى يمكن للزواج أن يتم . كذلك نجد أن كلا من الدولة والكنيسة على السواء تفرض على الزواج قيوداً مدنية ودينية . كما ينبغى بجانب ذلك كله مراعاة العرف المألوف والنظم السائدة . فالزواج عليه أن يتحمل مسئوليات تقتضيه عادة أن يستقل بشئونه الاقتصادية قبل الزواج . وكل تلك الأمور مجتمعة تعنى قيام عقبات تعرقل تحقيق الرغبة في الزواج وتدور بعض أحلام اليقظة العاطفية ، وبعض قصص المغامرات العاطفية ، حول أبطال يستطيعون التغلب بالقوة على كل تلك الصعاب ، كما في قصيدة « لو كينفار » للروائي الشهير « ولتر سكوت »^(٢) . كذلك نرى التمثيل للزواج باستيلاء الزوج

(1) Complex.

(2) Sir Walter Scott : "Lochinvar".

على الزوجة ما زال سائداً في حفلات الزواج عند بعض الشعوب .
وقليل من النظم ما يشبه نظام الزواج من حيث ما يحف به من قيود وقواعد
وهذا يصدق على الشعوب البدائية صدقه على حضارتنا الحديثة . ولهذا نجد في
إنجلترا مطالبة مستمرة بتغيير بعض القيود ، أو تعديل بعض القواعد . كذلك
نلاحظ أن الزواج من أكثر النظم تعرضاً للدعابة . ولقد أثبت فرويد في كتاب
« سرعة الخاطر واللاشعور ^(١) » أن كثرة الفكاهات تنمّ على عداوة نحو الشخص
أو النظام الذي يكون محور النكتة .

ويمكن وصف الموقف بشكل بسيط . فأمامنا رجل متقدم في السن يسيطر
على فتاة ، والجماعة كلها من ورائه معترفة بحقوقه ، مؤازرة لها . ولدينا شاب قد
اعتزم أن يأخذ الفتاة زوجاً له ، ولكنه يلقي معارضة من الرجل الآخر الذي
تعضده الجماعة . فلا بد له إذن من التغلب على تلك المقاومة .

وتتخذ المعارضة صوراً شتى يكون لكل منها مدلول خاص في ضوء
ما ذكرناه عن العلاقة القائمة بين الأب والابن في مرحلة الطفولة المبكرة . فقد
يكون الشاب ابناً لعائلة منافسة ، كما في « روميو وجوليت » (لشكسبير) ،
أو يكون فقيراً ، أو من أسرة أدنى في المركز الاجتماعي من الأسرة التي يرغب في
مصاحبتها ، أو على دين يختلف عن دين الفتاة ، أو أجنبي الجنسية ، أو يحترف
عملاً لا يرضى عنه والد الفتاة .

وهنا يعود الصراع بين الابن و « بديل الأب » مرة أخرى إلى الظهور ،
غير أن الهدف المنشود يكون في هذه المرة مختلفاً . وقد يحدث قتال مسلح بين
قبيلة الفتاة وأتباع الفتى ، أو قد يلتقي ممثلو الطرفين لمحاولة الوصول إلى حل ودي .
وقد تصور قصة الغامرة العاطفية ، مثل قصة « ابنة اللورد أولين » ^(٢) ، كيف
أن الأب القاسي يرفض الإذعان . ثم مقدار ما ينتابه من الغم عندما يرى ابنته

(1) Sigmund Freud : "Wit and the Unconscious".

(2) "Lord Ullin's Daughter"

تتزع منه ، بعد أن تكون قد فضلت فتاها عليه ، ومدى خيبة آماله إذ يبصر الاثنين ينطلقان معا ، ويخلفانه وراءهما نهبا للندم وفريسة للأحزان . ولهذا القصة صور كثيرة متنوعة ، ولكن معظمها يدور حول الطريقة التي يستطيع بها الشاب أن يقضى بفعاله أو مهارته أو بطولته على كل معارضة ويكسب الفتاة . فهو ينتصر على الأب ، ويجرده من كل ماله قيمة في نظره ، شأنه في ذلك شأن سائر المنتصرين .

وقد تكلم (ميرديث) عن الحب على أنه « كرنيقال الأنانية » ، إذ من المؤكد أن فترة الخيال العاطفي في حياة الشاب هي الفترة التي تعود فيها إلى الظهور ، في صورة موشاة ، أحلام اليقظة الأنانية التي حدثت له من قبل في فترة النمو المبكرة ذات الصبغة الأنانية . ومما لا يخلو من مغزى أن يكون من بين عادات الزواج السائدة أن يلبس العروسان يوم زفافهما فاخر الثياب . ويركبان عربة أزيمة يتبعها لفيف من المعارف والاصحاب . كما أنهما في بعض البلاد قد يضعان تاجين على رأسيهما ، أو يدعوان باسم الملك والملكة . والزواج في مثل تلك المواقف التمثيلية يحتل مركز أيه لأنه أصبح رب أسرة . وذلك نفس ما يحدث له في الحياة الواقعية . ويوحى حلم اليقظة العاطفي بأنه على الرغم من التعديلات التي أدخلها رقينا الاجتماعي ، وتقدمنا الاقتصادي ، على المعنى الحقيقي للزواج ، وصوره الظاهرية أيضاً ، فإن مدلوله السيكولوجي بالنسبة للعقل الباطن ما زال مرتبطاً بأسلوب الخيال العاطفي البسيط الذي أتينا من قبل على وصفه .

ويمكننا أن نرى في مجتمعنا الحديث زيادة كبيرة في عدد القيود التي تعترض سبيل الشباب . فقد كان في وسع كل شاب فيما مضى أن يرغب في الزواج ، وأن يستقر في أسرة خاصة به ، وذلك بمجرد تجاوزه التاسعة عشرة من عمره ، أو ربما قبل ذلك . ولكن ذلك ليس في مقدورنا الآن ، فإن مطالب الحياة المتحضرة قد أفضت إلى ضرورة نحصيل العلم إلى سن متأخرة ، يعقبها التدريب المهني وفترة

التمرين ، وهذا يجعل كسب التوت قبل من العشرين أمراً متعذراً . يضاف إلى ذلك ان مستويات الحياة قد أصبحت مرتفعة ، كما أن نفقات الضروريات قد تضاعفت . فالمساكن غير مريحة ، وإيجاراتها عالية ، والأثاث غالى الثمن ، ونفقات المعيشة فى ازدياد مطرد . كل ذلك يعنى أن عهد الشباب سيكون قد أدير قبل أن يصبح الفرد فى مركز يتيح له أن ينشئ بيتاً ويعول زوجة . وغالباً ما يؤجل الزواج أكثر من ذلك فى حالة أصحاب الحرف والموظفين وغيرهم .

ومن نتائج ذلك أن يجد الصراع الذى رأيناه يعبر عن نفسه فى صورة « كسب » امرأة بأخذها من أيها ، صورة أخرى من التعبير ، إذ أن العداء اللاشعورى نحو الأب يتجه بشكل شعورى نحو النظام الاجتماعى القائم الذى ينظر إليه على أنه نظام عتيق يقاومه جماعة من الشبان الأقوياء المتحمسين الذين يبتغون الفرصة لإقامة نظام أفضل . وهذا يفسر قيام حركات الشبان فى بعض البلاد منذ أكثر من قرن . وإن مما يؤسف له أن تكون جماعات الشبان هى التى آذرت حركات موسوليني فى إيطاليا ، وهتلر فى ألمانيا .

ومن السهل طبعاً أن نشير إلى أن (وليام بت) كان رئيساً لوزراء بريطانيا العظمى وهو فى سن الحادية والعشرين وقد كنا نجد فى الماضى أن زعماء الأمم ، وقادة الجيوش ، وأساتذة الجامعات ، ومستشارى الملوك ، كانوا من الشبان الذين لم تكن سنهم قد تجاوزت تلك السن التى ما زال فيها شباب اليوم يوالى دراسته . غير أن من الإنصاف فى الوقت نفسه أن نذكر أن ما نراه اليوم من المطالبة « بإتاحة الفرصة للشبان » لا يرجع إلى أن من ينادون بها يعتقدون أن لديهم من الكفاية ما يؤهلهم لشغل مثل تلك المناصب الخطيرة ، بل يرجع إلى ذلك القلق الذى يعبر عن نفسه بهذه الصورة . ومن الواضح أن عدم الرضى هذا ينبغى أن يكون مشعوراً به . فالحياة قد تغيرت فى نواح شتى بحيث أن المسؤوليات الملقاة على عاتق الشبان قد أصبحت مضاعفة ، كما أن ما ينشده أولئك الشبان من

إشباع بات يؤجل إلى آجال غير محدودة . كذلك ليس لدينا إلا القليل من النظم التى تستطيع أن تعوضهم عن ذلك الإشباع المشتهى الذى سلبوا إياه . يضاف إلى هذا إن طرائقنا فى الحياة قد أصابتها تغييرات شتى دون أن يحدث ما يقابلها من تكيف ملائم يجعل تلك التغييرات ثابتة محتملة . ولو حاولنا أن نبحث عن أسباب هذا التوتر الذى يفضى إلى قيام حركات الشباب ، أو أردنا أن نفهم الماهية الحقيقية لعدم الارتياح القائم الذى له ما يبرره ، لن نجد ذلك فى تلك العبارات المتزنة المثيرة للجدل التى تحفل بها نشرات الدعاية لتلك الحركات ، بل نجده فى أحلام اليقظة التى تجد فيها الرغبات الجوهرية الملحة حاجتها من التحقيق . ففى حلم اليقظة العاطفى نعثر على المدلول الحقيقى للعالم الجديد الذى ينشده الشباب . كما نلمس كيف أنه إذا أحقق فى الحصول عليه فى العالم القائم ، فإنه يسعى للوصول إليه كالمحروم ، عن طريق تلك الحركات التى قد تكون متزنة أو عنيفة ، أو يحاول أن يظفر به بين الظلمات فى دور الخيالة .

الفصل السابع

مراحل النمو

نستطيع الآن ، وقد فصلنا الأنواع المختلفة لأحلام اليقظة التي تحدث في فترات مختلفة من حياة الكائن البشرى قبل البلوغ ، أن نبحث فيما إذا كانت هذه الفروق في طبيعة حلم اليقظة تقابل فروقاً في الفرد . وهذا يؤدي بنا إلى بحث الوسيلة التي يتطور بها الفرد من طفل إلى راشد .

إن من الآراء التي قلَّ أن نجد من يؤمن بها اليوم أن الطفل يصبح راشداً بمجرد تقدم سنه نمو جسمه ، بحيث يمكن اعتباره منذ البداية « رجلاً صغيراً » . وذلك هو ما تشير إليه الأقوال الآتية التي نسمعها في بعض الأحيان مثل : « أنت في سن تؤهلك لأن تعرف أكثر من ذلك . » ، أو : « إنك كبير لدرجة تكفى لأن تفعل هذا بنفسك ! » .

وكما أن ازدياد حجم الطفل أمر واضح ملموس ، كذلك القول بأن هذا النمو ليس مطرداً ولا متماثلاً حقيقة لا تحتاج إلى برهان . وهناك ارتباط إلى حد ما بين السن والنمو ، وهو الذي يعنيه الناس عند ما يتحدثون عن طفل أكبر أو أصغر من سنه ، أو عند ما يحكمون ، بدرجة لا بأس بها من الدقة ، على سن الطفل من النظر إلى حجمه . ولكن لو كان هذا النمو عملية ثابتة مطردة بحيث يكون الرسم البياني لعلاقة السن بالحجم خطاً مستقيماً ، ما كنا نستطيع عندئذ أن نتكلم عن « مراحل النمو » . غير أن النمو في الحقيقة ليس مطرداً ، كما أنه ليس طائشاً بدون غاية أو غير خاضع لأي نظام لجميع الأطفال يمرون في أعمار متشابهة إلى حد ما

وفترات من النمو السريع وفترات من النمو البطيء ، وتختلف هذه الفترات طولاً وقصراً ، وهذا يوحى بأننا لا نكون مخطئين إذ نتكلم عن « مراحل النمو » . على أن كل ما يقال عن مراحل النمو عند الأطفال إنما يصدق من الناحية الإحصائية فقط . مثله في ذلك مثل سائر الآراء العامة الشبيهة به . فلو قلنا مثلاً أن النمو . يكون سريعاً في فترة معينة من العمر فإننا نجد أن عدداً من الأطفال يكون نموم السريع قد بدأ عند سن مبكرة عن ذلك ، وعدداً آخر عند سن متأخرة ، على حين يكون النمو السريع عند باقي الأطفال ، وهم الغالبية ، منطبقاً على القاعدة العامة ، إذا كانت تلك القاعدة صحيحة . فمثل هذه التعميمات لا بد أن تقوم على أساس ملاحظة عدد كبير من الحالات ، كما أن النتائج ينبغي أن ترتب في جداول ، وأن تفحص فحصاً علمياً رياضياً ، بحيث لا نصل إلى قاعدة صحيحة بوجه عام فحسب ، بل تكون لدينا أيضاً فكرة واضحة عن مدى اطراد هذه القاعدة .

وليست « مرحلة النمو » — على أحسن الاحتمالات — أكثر من فكرة مبدئية . فنحن نتكلم مثلاً عن « الطفولة المبكرة » ونقول إن الخصائص البارزة في هذه الفترة هي « الاعتماد على الغير » ، إذ يعتمد الطفل على أمه بصفة خاصة ، أو على من يقوم مقامها . ونحن لا نستطيع أكثر من ذكر آراء عامة مبدئية عن الاعتماد على الغير أو الاعتماد على النفس ، لأننا لا نستطيع أن نقيسها بنفس الدقة التي نقيس بها الطول أو الوزن ، أو حتى بتلك الدقة التي نقيس بها الذكاء الآن ، لأننا لا نملك آلات قياس تتيح لنا قياس هذه الخاصية البارزة في الطفولة ، أو اختبارات نحصل منها على نتائج ذات قيمة في هذا المضمار . كذلك لا نستطيع تكوين فكرة واضحة تماماً عن مدى تأثير الطفل بالعوامل في تكوينه ، أو إلى تأثير من يحيط به من أفراد ، وما يستجيب له من

نظم . إذ لا شك في أن كثيراً من الأمهات يملن إلى إطالة فترة التواكل هذه ، سواء أكان ذلك عمداً أم عفواً ، لأن بعضهن يعتقدن أن فترة الطفولة فترة حافلة بالمسرات لدرجة أن الطفل ينبغي أن يستمتع بها أطول وقت ممكن . كما أن بعض الأمهات يجدن متعة في تلك الخبرة التي يتيحها لهن شعورهن بأنهن عنصر ضروري في سعادة شخص آخر ، على حين تهتم مدارس منتسوري ومدارس الحضانة بتشجيع الطفل منذ البداية على أن يكفى نفسه بنفسه ، وألا يعتمد على غيره قدر المستطاع ولذلك تتوقف درجة الاعتماد على النفس التي تظهر في سن معينة على اتجاه البيت أو المدرسة ، وسائر التأثيرات الأخرى التي يكون الطفل معرضاً لها ، كما تتوقف على درجة النمو الجسمي والعقلي للطفل .

ومن النظريات التي كان لها أثر كبير في تفكيرنا عن مراحل النمو النظرية التي تسمى « بالنظرية التلخيصية »^(١) ومؤداها في إيجاز أن « نمو الفرد يعتبر تلخيصاً لنمو الجنس » . وإذا طبقنا هذا الرأي على الجنس البشرى فإنه يعنى أن الطفل يلخص أثناء تطوره ، من بويضة ملقحة إلى مخلوق كامل ، قصة التطور البشرى من الخلية الحية إلى الإنسان الناضج . ويستحيل أن يكون مثل هذا القول صحيحاً إلا بشكل عام . ولا بد أن نتوقع كثيراً من السخافات إذا أسرفنا في الاعتقاد بأن حياة الكائن البشرى القصيرة صورة دقيقة مصغرة لتاريخ الإنسان الطويل . غير أننا نستطيع أن نرى في تلك التغيرات التي تطرأ على الجنين منذ تكوينه حتى ولادته سلسلة من تغيرات الصورة السريعة التدريجية التي يمر بها قبل أن يصل إلى صورة الطفل البشرى المعروفة . فالجنين يتخذ صوراً تشترك معها فيها الكائنات الدنيئة التي افترض بعضها في حين ظل البعض الآخر باقياً . وهكذا نراه يمر أثناء الفترة التي تتوسط بين الحمل والولادة بسلسلة من الصور تنتهى إلى صورة الفرد البشرى .

(1) Recapitulation Theory.

ولا يتأثر نمو الجنين في تلك الفترة بالعوامل الخارجية إلا قليلاً . وأقصى ما يمكن عمله عندئذ هو تيسير الظروف الصحية الملائمة للحامل ، وتوفير الغذاء الكامل لها ، حتى يستطيع جسدها أن يستجيب لحاجات الطفل النامي . غير أن الطفل عند ولادته لا يكون تام النمو ، وهو يشبه في ذلك الحيوانات العليا كالقردة والنسائس ، والحيوانات آكلة اللحوم على وجه الخصوص . ويظل نموه عرضة للتأثر بعوامل مختلفة طيلة العشرين عاماً الأولى تقريباً . ولذلك يمكن النظر إلى تربية الطفل على أنها محاولة مقصودة من ناحية الأب والمجتمع لتوجيه ذلك النمو بحيث يفضى بالطفل في النهاية إلى أن يصبح الراشد الذي نريد أن يكونه . ويستحيل أن نفكر في نمو الفرد دون أن ندخل في حسابنا مختلف التأثيرات التي تكون في بعض الأحيان عرضية عشوائية ، كما تكون في أحيان أخرى مستمرة مقصودة .

وقد أصاب (كارل جروس ^(١)) عند ما أشار إلى أن الذي يلعب من الحيوانات العليا هي صفاتها التي لم يكمل نموها ، فتؤدى أنواعاً من النشاط قد يبدو غير ذي جدوى وقت القيام به ، ولكنه يعدّها لضروب النشاط النافع الذي سوف يعينها على الحياة عند ما تكبر . وهذا صحيح بالنسبة للحيوانات آكلة اللحوم . فالتقطيطة إذ تطارد أوراق الأشجار المتساقطة فتطبق عليها مخالبها ، ثم تتركها ، ثم تعود الانقضاض عليها قبل أن تذهب بعيداً عن متناول مخالبها ، إنما تقوم بنشاط يعدّها لصيد الفيران بشكل جدى . كذلك نرى الجرو يحمل الأحذية ويخفيها ، أو يمزق الأبسطة بأنيابه ، وهذا لا يخرج عما يعمله في المستقبل بما يصل إليه من اللحم والعظام . وليس في كل ما قلناه ما يوحى بأن التقطيطة تعتقد أن ورقة الشجر فأر ، أو أنها أثناء لعبها تفكر في الفيران على الإطلاق ، ولكنه

(١) Karl Groos — عالم ألماني عني بدراسة اللعب في الحيوانات .

يعنى فقط أن مظاهر النشاط فى هذا اللعب تتخذ اتجاهات معينة تدخل فيما بعد فى أعمال الحياة الجدية ، وتكون وظيفتها وقت اللعب إعداد القטיפطة لحياتها المستقبلية . فكان القטיפطة تتعلم من لعبها كيف تصبح قطة ناضجة .

غير أن العلاقة بين مظاهر النشاط فى لعب الأطفال وبين حياتهم فى المستقبل ليست على هذه الدرجة من الوضوح . ولا تصلح نظرية (كارل جروس) للتطبيق على الأطفال إلا بشكل عام . فلعب الطفل مران لجسمه ، وتدريب له على ضبط حركاته واستخدام حواسه ، فهو لذلك يساعده على تكوين جسم سليم يستطيع توجيهه وضبطه . أما اللعب العقلى الذى ناقشناه أثناء كلامنا عن أحلام اليقظة فإنه يُفضى إلى تنمية الخيال . وهو فى الوقت نفسه يستعين بالخيال والحكم والذكاء . ولهذا يمكننا أن نعتبر أن الطفل ينمى نفسه بوسائل ليس لها بحياة المستقبل ذلك الارتباط الوثيق الذى لمسناه وانحأ فى لعب القטיפطة والجرو ، ولسكنها مع ذلك تعدده لشتى الأعمال التى يؤديها الرجل الناضج فى حياته المعقدة غير الطبيعية . فكل ما ينمو عن طريق اللعب يصبح صالحاً للتطبيق فى ميدان العمل .

والفرق البارز بين اللعب والعمل هو أن الفرد يلعب من أجل اللذة التى يحصل عليها من وراء لعبه ، دون النظر إلى أية غاية أخرى قد يصل إليها . أما فى حالة العمل فإن الفرد يقوم به سعياً وراء غاية ينشد الوصول إليها . ولهذا نرى الفرد فى لعبه ينزع إلى تعقيد النشاط وإطالته أو تكراره . أما فى العمل فإنه يميل إلى تقصير مدته كي يصل إلى تحقيق الغاية منه بأسرع ما يمكن . ونحن نقصد بهذا طبعاً تلك الأنواع المتطرفة من اللعب والعمل ، لأننا كثيراً ما نجد اللعب ممتزجاً بالعمل فى ظروف شتى من النشاط فى الحياة العملية . وهذا يفسر استمتاع كثير من أصحاب الحرف بأداء عملهم ، وأسفهم عند انتهاء أعمالهم حتى ولو كان ما أنتجوه قد أَرْضاهم .

ونرى فى بعض أنواع لعب الأطفال صوراً من النمو تبدو متمشية مع النظرية التلخيصية . فالغلام الذى يرمى قطعاً بحجر يقوم بعمل كان فى وقت من الأوقات من الأعمال الهامة بالنسبة إلى أجداده الذين كانوا يعيشون على قتل الحيوانات يمثل هذه الوسيلة . وصغار الأطفال الذين يجمعون أشياء مختلفة تتراوح بين الحصى الملون وطوايع البريد إنما يسترجعون بذلك حياة تلك الشعوب البدائية التى كانت تقتات بما تجمعته من مختلف الأشياء كالخار والمثار والحشرات وجذور النبات .

فالنظرية التلخيصية تمثل الكائن الذى لم يكمل نموه كأنه يُجرى على نفسه تجارب فى عالم أكثر بساطة من عالم الكبار ، ويستخدّم فيها رموزاً بدلا من الأشياء الحقيقية . وفى الوقت نفسه تغنيه عناية الأبوين عن السعى فى سبيل الغايات الحقيقية . فالقطيطة تستغلّ فى نشاطها ورقة الشجر التى يسهل إمساكها ، وهى لا تتساءل عما إذا كانت ستطعم من لعبها هذا أم لا . والطفل يأتى نفس ما تفعله القطيطة ، وذلك عند ما يحيا فى عالمه الخيالى الذى يحفل بالذمى ورفقاء الخيال . وهو يعد نفسه بذلك دون وعى ، للعالم الذى سوف يكون عليه أن يلاثم بينه وبين نفسه فيما بعد . وما يدل على أن ذلك اللعب يؤدى إلى الغرض المقصود منه أن الطفل ينصرف فى الوقت المناسب عن رفاق خياله ، ويأخذ فى الاهتمام برفقاء حقيقيين .

ويدو أن الولد فى حوالى سن العاشرة يكون قد اكتشف أن ذلك النشاط الذى يشعر بأنه لذيق فى ذاته يمكن أن يوجّه بشكل يفضى إلى ما قد ينشده من نتائج . فهو يستطيع أن يعمل لنفسه نماذج من الطائرات ، والطيارات الورقية ، واللعب المختلفة ، أو أن يصنع أشياء أخرى قد يبيعها . وهذا نفسه ينطبق على البنات مع بعض الفروق ، فالحيّاكة والغزل وأشغال الإبرة ليست سارة لمحبس ، بل ومفيدة أيضاً . وقد كان الناس منذ أقل من قرن يستخدمون عدداً كبيراً من البنات والصبية فى الصناعة . فكان ذكاء الولد ، أو الفتاة ، فى سن العاشرة يبلغ

فى النمو مبلغ ذكاء الراشد العادى تقريباً . كما ينمو شعوره بالمسئولية ، فيستمتع بما يقوم به من نشاط ، ويفخر بما تنتجه يده من نافع الأشياء . ولم يكن أولئك الصغار يستخدمون دوماً فى أداء أعمالهم يميلون إليها ، أو فى صنع أشياء يعجبون بها . ولذلك لم يكن كثير من أولئك الأطفال الجياع تقريباً يجدون أية متعة فى الساعات الطويلة التى يقضونها فى مصانع نسج القطن أو مناجم الفحم . وهذا (شارلز ديكنز) مثلاً لم يكن ليحس أية لذة فى لصق البطاقات على علب الطلاء . ولكن مما لا شك فيه أنه كان هناك أيضاً جانب كبير من الأعمال التى يجد الأطفال لذة فى القيام بها ، والتى كانت تساعد نموهم مساعدة نافعة ، وإن لم تكن مقصودة .

غير أن ذلك لا يعنى العودة إلى تلك الأيام الماضية ، أو النكوص إلى حالة ذلك المجتمع الذى نأمل أن يكون قد مضى إلى غير رجعة . ويبدو أن الطفل قد نال من وراء ما حدث من تطور بعض الغنى ، كما أنه قد أصاب بعض الخسارة . فهو من ناحية قد أصبح غير مرهق بالعمل ، أو عرضة للاستغلال غير المشروع ، ولكنه من ناحية أخرى قد حرم بعض الفرص التى تتيح له أن ينمى نفسه طريق الوان من النشاط يشعر فيها باللذة التى يشعر بها فى لعبه ، كما يشعر بالمتعة التى يحصل عليها من الاضطلاع بالمسئوليات ومن إشباع نزواته الابتكارية عن طريق إنتاج أشياء نافعة . فالطفل الذى يتعلم كيف يسلخ أرنباً ، وينظف جلده ، ويعدده ليصنع لنفسه منه زوجاً من قفازات الفرو التى يدفىء بها يديه أثناء الشتاء القارس ، لا يكون قد تعلم فقط طريقة استخدام بضعة أدوات ، أو معالجة بعض المواد ، بل إنه يكون أيضاً قد كوّن اتجاهات نحو نفسه ونحو جهوده ، وهو اتجاه يزداد قوة كلما لبس الولد قفازه . فهو إذن قد نعى احترامه لنفسه وثقته بها ، كما أنه قد قطع شوطاً كبيراً فى اكتساب نظرة الراشد إلى نفسه وإلى العالم . ولو أمكن ربط هذا النشاط ربطاً معقولاً بالعمل المدرسى ، فإن الولد يصبح مزوداً

بمثيرات نافعة تدفعه إلى القيام بأنواع أخرى من النشاط ، واكتساب معرفة جديدة .

نستطيع إذن أن ننظر إلى تلك الفترة التي يكون الطفل فيها قادراً على اللعب ، وعلى أن ينمى عن طريق هذا اللعب إدراكه أن هذا النشاط يمكن استغلاله للوصول إلى غايات حقيقية ، وإنتاج أشياء مفيدة ، على أنها فترة واحدة من مراحل النمو ، تمتد على وجه التقريب من حوالى سن الثالثة إلى ما يقرب من سن الحادية عشرة . غير أن هناك بطبيعة الحال حالات شاذة يرجع بعضها إلى تأخر النمو ، والبعض إلى تأثير المدرسة أو البيت . ومهما كان الأمر فإن هذين الحدين ليسا أكثر من رقمين لهما مدلول إحصائى .

وقد ظهرت مرحلة هامة فى نمو البشر عندما بدأ الناس ينتظمون فى جماعات دائمة ثابتة نسبياً ، مما أتاح لهم صيد الحيوانات الكبيرة . وربما كان جمع الأشياء من الأعمال الفردية ، كما كانت الحال فى كثير من الأحيان . أو من الأعمال التى قد يشترك النساء فيها مع الأطفال ، أما صيد الحيوانات الكبيرة المفترسة فلم يكن ممكناً إلا بتعاون الرجال بعضهم مع بعض ، واستخدامهم الأسلحة ، وموافقتهم على الانضواء تحت لواء زعيم يدينون له جميعاً بالطاعة . ونجد درجة من النمو شبيهة بهذا عند الولد فى حوالى سن الحادية عشرة ، حيث يكون قد نمت نفسه من الناحيتين العقلية والجسمية عن طريق نشاطه فى اللعب ، وأصبح يشعر بالمسئولية التى لا بد منها لكل من يقبل الخضوع لرياسة غيره ، كما أنه أصبح يستطيع استخدام الأدوات والأسلحة ، ويتقن بعض الفنون البسيطة . وتنفضى به نزعانه الاجتماعية إلى أن يجد لذة فى صحبة غيره ، وأن يشعر بالتجاوب العاطفى معهم ، وأن يستمتع بالنشاط الجمعى الذى يهدف إلى تحقيق غايات مشتركة . فيصبح ميالاً إلى الاشتراك فى الرحلات التى تنظمها فرق الكشف ، وما يشبهها من الجماعات ، ويحب الانضمام إلى عضوية نوادى الصبيان ، والمساهمة فى الحياة الجماعية ، كما يقبل اللعب (م — ١٠)

كفرد في فريق ضد فريق آخر . وتعتبر هذه المرحلة التي تستمر حتى سن السادسة عشرة من أهم مراحل النمو في حياته .

وهذه المرحلة من مراحل النمو ، التي نطلق عليها اسم المراهقة ، قد خصصت لها كتب عدة . ويعتبر المجلدان الكبيران اللذان كتبهما (استانلى هول ^(١)) عنها ثمرة لإحدى المحاولات الأولى التي كانت تهدف إلى تجميع الحقائق المعروفة عن الشباب ، وربطها بالترقى الاجتماعى والدينى والأخلاقى للبشر عموماً . ومن الواضح أن نظرة (هول) إلى الموضوع ، وطريقة معالجته له ، كانتا متأثرتين بالنظريات الاجتماعية والإنسانية السائدة فى عصره . ومن المؤلفات الحديثة فى هذا الموضوع كتاب « سيكولوجية المراهقة » للأستاذ « فاو ل د . بروكس ^(٢) » الذى يهدف إلى « وصف طبيعة المراهقة والنمو والترقى ، بغية تسهيل التنبؤ الصحيح بالسلوك ، وتوجيهه التوجيه الملائم ، وضبطه خلال السنوات الأخيرة من العقد الثانى من العمر » . وربما كانت معظم الكتب عن الشباب والمراهقة قد كتبت لهذا الغرض أى بقصد إرشاد المعلمين ، ورؤساء الأندية ، ومنظمى حركات الشباب ، إلى الطريقة المثلى فى معالجة شتى المواقف العملية التى تصادفهم .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن حلم اليقظة المؤلف عند المراهق يكون مصطبغاً باخيلال العاطفى ، وأن جانباً على الأقل من نظرة الحالم إلى العالم عامة ، وإلى مشاكل حياته خاصة ، يكون كذلك أيضاً . ولهذا يبدو أن كثيراً ممن كتبوا عن المراهقة قد عالجوا موضوعها معالجة عاطفية أكثر منها واقعية ، لأنهم اعتمدوا فى كتابتهم على ذكرياتهم التى اتخذت لوناً مثالياً . فما لاشك فيه أن وصف المراهق بأنه « شخص جديد » ، أو أنه قد مرَّ « بميلاد جديد » يدل على نزعة خيالية عاطفية . والحقيقة أن المراهق ليس كذلك على الإطلاق ، فهو ليس أكثر من

(1) « Adolescence » — n ls. Stanley Hall.

(2) « The Psycgology of Adolescence, » by Fowler D. Brooks .
(London : George G. Harrap d Company, Ltd. : n. d.) Preface, P. vii.

نتاج نموه السابق ، وسنواته التكوينية الأولى وماتلاها ، فهو شخص تام ، تعترضه مشاكل جديدة بالنسبة إليه ، نشأت عن نموه البدنى السريع ، وازدياد ترقيه العقلى والمطالب الجديدة التى يفرضها عليه المجتمع الذى شب فيه وكبر .

كذلك رأينا أن الأولاد ، والنبات ، فى سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة يكونون قد أصبحوا مستقرين نسبياً . فنجد فى المجتمعات التى تقل من حيث التمسك عن مجتمعتنا الحالى أن الغلام يستطيع أن يكفى نفسه بنفسه ، ففى وسعه أن يجمع ما يقتات به من ساحل البحر أو الاشجار أو الأرض . كذلك يمكنه أن يضيف إلى غذائه بعض الحيوانات التى يمسكها بالمصايد والفتاخ . أو يقتلها بالأحجار والعصى . ويكون فى مقدوره أن يصيد السمك من الجداول ، وأن يمارس بعض الحرف البسيطة التى تيسر له المأوى وأدوات الصيد والأسلحة ، وأن يقوم ببعض الزراعة . وبجانب ذلك يكون قد نما إلى الدرجة التى تجعله يعمل من أجل الآخرين ويشارك معهم فى صيد حيوانات أكبر من التى كان يقدر على صيدها بمفرده .

غير أن هذا الاستمرار يضطرب عند بدء المراهقة لتدخل عامل جديد هو نمو الجهاز التناسلى عند الولد والبنات على السواء . فالأعضاء الجنسية الرئيسية كانت موجودة منذ الولادة ولكنها لم تكن تؤدى وظيفتها . غير أنها تكون الآن قد بدأت فى القيام بعملها بطريقتين : فهى غدد جنسية تفرز الحيوانات المنوية عند الذكور ، أو البويضات عند الإناث ، كما أنها غدد صماء تصب فى الدم هرمونات لها تأثير واضح فى النمو الجسمى والعقل . كذلك يكبر حجم أعضاء التناسل عند البنين والبنات . ونلاحظ فى الذكور ضخامة الصوت وعمقه ، ونمو شعر اللحية والأبطان والعانة ، وزيادة الطول وزيادة سرعة ، واشتداد قوة الأطراف والصورة التى تمثل المراهق هى صورة شخص لا يسيطر على حركاته سيطرة تامة ، أميل إلى النخافة منه إلى الامتلاء ، مضطرب فى أفعاله ، يعوز أعضاءه التناسل ، سريع الشعور بالحرج ، قوى الشعور بذاته .

أما في الإناث فنلاحظ بروز النهدين ، وتكون طبقات من الشحم تحت الجلد مما يعطى الجسم استدارته ونعومته « النسائية » ، وظهور شعر العانة والإبطين ، وتغير الصوت بالتدريج إلى صوت النساء ، ويشير ظهور هذه الخصائص الجنسية الثانوية إلى أن البنت قد أصبحت على وشك النضج الجنسي ، أى على وشك الصلاحية للزواج من رفيق من الجنس الآخر ، وإنسال الإطفال .

ومن دلائل البلوغ في البنات ظهور دورة الحيض ، وفيها تغادر الجسم البويضة التي لم تلحق مصحوبة بمواد أخرى مشتقة من جدران الرحم . أما إذا تم تلقيح البويضة فإنها تظل متحدة بالرحم حيث تنمو إلى جنين . ولكنها إذا بقيت دون تلقيح فإن الأنسجة التي كانت قد أخذت في النمو لاستقبالها تصبح غير ضرورية فتتمزق ، وتخرج من الجسم بقاياها مصحوبة بالدم ومعها البويضة المعطلة . وبذلك يكون الحيض الأول دليلا قاطعا على أن الغدد الجنسية عند الفتاة قد بدأت تفرز البويضات ، وأن الفتاة قد أدركت سن البلوغ .

أما في حالة الولد فليس ثمة من سبيل إلى مثل هذا الدليل الحاسم عن وقت البلوغ . ويدل الاحتلام ، أو ظهور حيوانات منوية في البول ، على أن الولد قد أصبح بالغاً ، ولكنه لا يحدد الوقت الذي حدث فيه ذلك . ويقول البعض بأن في استطاعتنا أن نفترض بلوغ الغلام عندما نلاحظ الظواهر الثلاثة الآتية معا وهي : كثافة شعر العانة والتوائه ، وتغير الصوت ، وظهور الشعر تحت الإبطين . ويرى (بروكس) أن الولد الأمريكى يصل إلى هذه المرحلة في المتوسط بين الرابعة عشرة والنصف ، والخامسة عشرة على وجه التقريب . على حين وجد (جودين) أن هذا المتوسط عند الفرنسيين هو الخامسة عشرة والنصف تقريبا .

وتدل البحوث التي أجراها (اتكنسون) على البنات الأمريكيات (واقتبسها عنه بروكس في كتابه) على أن الحيض الأول حدث لما يقرب من سبعة آلاف بنت عند سن تتراوح بين الثانية عشرة والسابعة عشرة ، فيكون المتوسط بالضبط

دون الرابعة عشرة . ولكن هذه الأعمار التي تتراوح بين حوالى الرابعة عشرة والنصف والخامسة عشرة للأولاد الأمريكيين ، والرابعة عشرة للبنات الأمريكيات ، ليست سوى أرقام احصائية ، فهي بذلك معايير يحتمل وجود انحرافات كثيرة عنها .

والمشكلة التي تواجه المراهق هي — إلى حد كبير — مشكلة التوافق بين اهتماماته الجديدة المرتبطة بنضجه الجنسي وبين الشخصية التي يكون قد كونها . وهي مشكلة يخفق الكثير من الناس في حلها بأنفسهم ، فإنهم قد يستطيعون إدارة أعمالهم بأنفسهم ، ولكنهم يفشلون فيما يختص بمشاكلهم الغرامية ، كذلك قد ينجحون في انتقاء مرءوسيههم ، ولكنهم يخفقون في اختيار زوجاتهم . وقد ذكر « داود » في الزبور أن من الأشياء التي لم يستطع فهمها « طريقة معاملة الرجل للفتاة » .

ويؤخر النضج الجنسي عند الكائنات البشرية . وهناك من الأدلة ما يثبت أن ذلك يرجع إلى الغدة التيموسية^(١) ، فإن هذه الغدة تكون كبيرة أثناء الطفولة ، ولكنها تأخذ في الضمور بالتدريج حتي تختفي تقريباً في حوالى سن الرابعة عشر ، حيث لا يبقى منها بعد ذلك إلا أثر ضئيل عند الراشد العادى ، ومن المعتقد أن هذه الغدة ، أو إفرازها الداخلى ، يؤثر في النمو الجنسي تأثير « الهرمالة » ، ولها فوق هذا بعض التأثير في النمو الجسمى . غير أن الغدة التيموسية قد تظل باقية عند بعض الأفراد ، وهم الذين لا يتم نضجهم الجنسي قط ، بل إنهم يظلون محتفظين بطابع الأطفال . فإذا كان هذا صحيحاً أمكننا أن ندرك أهمية الدور الذى تلعبه هذه الغدة ، إذ أنها بتأخيرها النضج الجنسي تتيح للفرد فرصة للنمو الجسمى والعقلى

(١) Thymic gland — هى إحدى غدد الطفولة ، وتسمى أيضاً بالصغرية ، وموقعها فوق القلب . أما غدة الطفولة الثانية فهى الغدة الصغورية . وكلا الغدتين تضم عادة قبل البلوغ . ويقال إن عملهما مضاد لعمل الغدد التناسلية (المترجم) .

الذى يعينه على احتمال ما يتطلبه الزواج من مسئوليات . ولا شك أن نظام الأسرة ، والمجتمع عموماً ، يتوقف على تلك المسئوليات والالتزامات نحو الزوج والنسل .

ومما هو جدير بالملاحظة أننا قد تكلمنا في هذا الفصل عن النضج الجنسى ، لا عن بدء ظهور عنصر جنسى فى حياة الفرد كما كان يعتقد الكتاب السابقون . فالنضج الجنسى لا يعنى سوى أن الفرائز الجنسية قد اتجهت نحو شىء جديد محدود . وإن هذا الاتجاه يصحبه تطور جسمى يولد استعداداً لموازته . ويكون هذا الشىء الجديد رفيقاً من الجنس الآخر . كذلك يعين هنا النمو الجديد فى الجهاز التناسلى الفرد على التلقيح . بيد أن الفريزة الجنسية ذاتها كانت موجودة من قبل ولكنها كانت متجهة نحو الأم أولاً ، ثم الذات ، ففرد من نفس الجنس ، وكل هذه أطوار لم تبلغ حد الاكتمال لأن النضج الجنسى لم يكن قد بلغ حداً يتيح لها ذلك .

ومن الواضح أن لفظ « الجنس » فى استعمالنا لا يقصد به المعنى الذى كان سائداً فيما مضى ، أو المعنى المألوف فى الكتابة الأدبية ، فقد كان لفظ « الجنس » يعنى العلاقة القائمة بين الراشدين من الرجال من ناحية ، والناضجات من النساء من ناحية أخرى . ولو أنه كان يمتد فى بعض الأحيان فىشمل العلاقات الشاذة مثل « الانحرافات الجنسية » التى تقوم بين فردين من جنس واحد ، أو العلاقات الجنسية المصحوبة بالعنف والقسوة . فكأن « الجنس » والأمور الجنسية ، تتضمن علاقة بين الكائنات الحية التامة النضج ، ولا تشمل الصغار إلا عندما يحاول بعض « الأشرار » منهم تقليد الكبار .

غير أن علماء النفس الذين حاولوا فهم طبيعة الفرائز الجنسية خلال الخمسين السنة الأخيرة قد استطاعوا أن يضاعفوا معلوماتنا عن هذا الموضوع . وإننا مدينون بالكثير مما نعرفه الآن إلى (سيجموند فرويد) الذى تمكن من تحديد الماهية الجوهرية لتلك الفريزة ، ووصف مظاهرها المختلفة فى حياة الفرد

منذ الطفولة المبكرة حتى سن الرشد . كذلك لاحظ (وطسون) ، الذى تختلف آراؤه عن آراء علماء التحليل النفسى ، أن الأطفال يستجيبون بشكل معين للتربيت على سطح الجلد . وإذا غرضنا النظر عن مصطلحات السلوكيين المتطرفين فإننا نستطيع أن نقول إن الأطفال يحدون لذة فى التربيت ، وإن حساسية جلدهم هى علة حصولهم على تلك اللذة . غير أن هناك ، كما أشار (هافلوك إيلس) ، مناطق معينة من سطح الجسم ذات حساسية خاصة ، ومنها على وجه الخصوص تلك المناطق التى يتصل فيها سطح الجلد بالأغشية المخاطية الداخلية مثل الشفاه ، وسطح الأنف الداخلى ، والأعضاء التناسلية ، والشرح . فالطفل يجد لذلك لذة فى عملية المص (بغض النظر عن استقبال الطعام) ، ولمس الشفتين ، وحك الأنف ، والعبث بأعضاء التناسل ، والتبرز . وتلك اللذة ينبغى النظر إليها من هذه الزاوية على أنها جنسية ، وهى مرتبطة بزوال التوتر .

فالطفل الصغير يشعر بلذة صريحة من كل تلك الأشياء ، ولا يتخلص من هذه الوسائل السهلة التى تيسر له أن يشق من نفسه مثل تلك اللذة إلا عن طريق الكبت ، وهو يظل مستقبلاً بعضاً منها إلى وقت متأخر ، وهذا يفسر عناق المحبين وتقبيل بعضهم بعضاً .

وعندما يبدأ الطفل فى اختيار الصحاب ورفقاء اللعب بعد ذلك يختارهم من نفس جنسه ، وتكون غرائزه الجنسية فى هذا الوقت كامنة ، واهتمامه بالبنات ضعيفاً أو معدوماً . ولا يهتم الأطفال بالمناظر الغرامية فى أفلام السينما ، أو فى قصص الحب ، بل إنها تسئهم ، ويصفونها بأنها سخيفة مثيرة للضجر . وإذا أراد المؤلف إظهار فتاة فى إحدى قصص المغامرات فإنه يصورها فتاة رياضية تجيد ركوب الخيل والقنص مثل البطل نفسه ، قادرة على الجلد والاحتمال مثله . غير أنها عرضة لارتكاب الأخطاء ، والوقوع فى المآزق التى يستطيع البطل إنقاذها

منها بتمارتها وإقدامه . فهو في علاقته بها ليس إلا صديقاً أو بديلاً للأب ، على حين يكون دورها الإعجاب الشديد به .

فالغريزة الجنسية إذن لا تظهر لأول مرة في حياة الفرد وقت البلوغ ، بل إنها تعبر عن نفسها قبل ذلك في صور مختلفة . واهتمامات الطفولة تكبت في اللاشعور كبتاً تاماً أو جزئياً ، فتظل تؤثر في السلوك الشعوري بشكل غير مباشر ولكنه أكيد . وعندما يهتم المراهق بأفراد الجنس الآخر يظهر ذلك بشكل غامض غير محدود . فالشاب الذي يحس ميلاً إلى إحدى الفتيات قد لا يعترف في كثير من الأحيان بأنه قد مال إليها « لأنها فتاة » ، بل إنه قد يرجع ذلك الميل إلى وضاعة محيائها ، أو أناقة زيتها ، أو رشاقة مشيتها ، أو جمال صوتها ، أو حسن ذوقها ، أو إلى « عبارة فاهت بها » ، أما السبب الحقيقي في جاذبيتها فإنه كامن في ثنايا خبراته الماضية . وكثيراً ما يكون أول « حب » للأولاد والبنات على السواء نحو من هم أكبر منهم سناً من الأفراد ممن يذكرونهم بأحد الأبوين من الجنس الآخر . وقد يميل شاب إلى فتاة لأنها عرفت كيف تبدو إعجابها بذكائه ، أو تشيد بقوته البدنية ، أو بإتقانه الرقص ، أو بأناقة هندامه . فتكون عندئذ قائمة بدور « رفيق الخيال » الذي يبدى الإعجاب به ، أو بدور الجمهور المصفق الذي كان يترأى له في أحلام يقظته . فكأن هناك عناصر طفولة واضحة تدخل في تكوين اتجاهه نحو البنات .

ويدفع نضج الجسم والغريزة بالشاب إلى الزواج من قد يقع اختياره عليها لتشاركه حياته . ولكن المسألة لا تتم بمثل هذه السهولة . صحيح أن كلا من الذكر والأنثى يعتبر فرداً قادراً على تقرير ما يريد ، ولكنه أيضاً قد شب في أحضان أسرة ، ثم وسط جماعة أكبر من الأسرة ، فتكونت لديه بذلك أفكار معينة عن الصواب والخطأ ، وعن الخير والشر . وتعلم كيف ينبغي أن يكون

سلوكه إزاء قوانين الجماعة وعاداتها ، وكيف يهتم بنتائج هذا السلوك . فيصبح لازماً عليه قبل أن يفكر في العيش مع شريك حياته أن يكون قادراً على القيام بمطالب تلك الحياة المشتركة من الناحية الاقتصادية ، وأن يحصل على موازنة الأسرتين ، ويخضع لمقتضيات عرف الجماعة وقانونها . والقليلون هم الذين يستطيعون ذلك بمجرد تفكيرهم في الزواج لأول مرة .

فلا يدهشنا إذن أن نجد أن المراهق إذ يقف على عتبة الرجولة ، يهتم بالأحزاب السياسية الإصلاحية أو الثورية ، وينادى بإلغاء كثير من الأشياء التي تحول دون إشباع الرغبات الغريزية . ويدبر الخطط لانقلابات اجتماعية تقضى على كثير من العقبات الاقتصادية . كذلك لا يدهشنا أن نجد أن الحرمان من تحقيق الرغبات يدفع حديثي السن إلى السعى وراء إشباعات بديلة يحصلون عليها من الرسم ، والموسيقى ، والشعر والقصص الخيالية . وقد يستمر هذا الاهتمام بالسياسة أو الفن عند ما يكتشف المراهق في نفسه القدرة على النجاح فيهما .

أما في المجتمعات البدائية فإن الأمر يكون أبسط من ذلك وأقل تعقيداً ، لأن الغلام ينال من التلقين والإعداد ما يكفي لتبنيه حياة الراشد ، وعندئذ يكون حراً في الزواج . وتوجد في العادة نظم تحدد له اختيار رفيقة حياته من بين فتيات طائفة معينة . كذلك تحدد العادات له كيف يُرضى أهل الفتاة ، ويعوضهم عنها لأنهم هم الذين كانوا خلقاء إن يجنوا ثمار عملها . فكان الفرد في مثل ذلك المجتمع البدائي يخضع ، إلى حد ما لقيود تشبه القيود التي يفرضها علينا مجتمعاتنا الحديث ، ولكنها أقل منها عسراً ، لأن الفتى يستطيع الزواج بمجرد اعتباره بالغاً ، بينما يدرك الفتى أو الفتاة ، في العصر الحديث أنه لا بد من مرور أعوام طويلة قبل أن يتسنى له تحقيق أمله بالزواج ممن وقع عليها اختياره .

من هذا نستطيع أن نرى علاقة أحلام يقظة المراهق بظروف المراهقة . فبعض أحلام اليقظة تعبر عن تحقيق الظروف التي تتيح التغلب على ما يعترض سبيل إشباع رغبات الحالم من عقبات ، كما أن البعض الآخر يضع الحالم في بيئة تتحقق فيها رغائبه ، رغم أن هذا التحقيق يتم في صورة رمزية مقنعة بسبب الكبت . وتلك هي الصور العامة لأحلام اليقظة التي تحدث عادة في هذه المرحلة ، وهي بطبيعة الحال عرضة لتغيرات كثيرة من حيث التفاصيل ، والمادة ، ومدى اصطبغها باللون الواقعي أو إسرافها في الخيال .

الفصل الثامن

حلم اليقظة والأدب

قد يتوقع القارئ عند قراءة عنوان هذا الفصل أننا سنحاول تفسير جميع أنواع الأدب على أساس أحلام اليقظة وحدها ، أو القول بأن الأدب الخيالي جميعه ليس إلا صوراً لفظية لأحلام اليقظة ، ولا شيء أكثر من ذلك . ولكن التجارب قد علمتنا أن نكون دوماً على حذر فيما يختص بالنظريات التي تحاول تفسير الأمور ، على ما بها من تعقيد ، يارجاعها إلى سبب واحد ، وإنكار كل ما عداه . فالقصص البسيطة المألوفة التي ظهر منها حتى الآن عدد كبير ذاع وانتشر بين الأطفال والقراء العاديين ، والتي غالباً ما تدور حول فكرة واحدة بعينها فلا تتغير فيها سوى المناظر والشخصيات . إذا كانت تلك القصص تذكرنا بأحلام اليقظة عند الأطفال ، فإنها لا يمكن أن تكون مجرد سرد لتلك الأحلام ، ولا شيء أكثر من ذلك ، بل إننا لا شك واجدون فيها أموراً سيكولوجية أخرى تتصل بها أشد اتصال .

ويمكن أن نتخذ من موضوع الإنشاء التالي مقدمة لبحث هذا الأمر ، وهو موضوع كتبه غلام في الثانية عشرة من عمره ، وهو تلميذ في مدرسة ابتدائية بإحدى مدن إقليم صناعي . لقد كتب المعلم الجزء الآتي على السبورة ، وطلب إلى الأولاد أن ينقلوه في كراساتهم ، وأن يتخذوا منه بداية لقصة مبتكرة .

« في مساء السبت الماضي ، غادر والدا (توم) المنزل ، بعد أن وضعوا طفليهما الصغيرين في فراشهما : وتركوا البيت في رعاية (توم) . »

وهذا ما كتبه الغلام دون مساعدة أحد :

« بعد برهة وجيزة وصلت إلى أنف « توم » رائحة شيء يحترق . فاقتربت من غرفة النوم حيث اكتشف أن الطفل الصغير قد عبث بالثقاب فأشعل النار في المنزل .. عندئذ نزلت مسرعاً أنشد النجدة ، فقابلت رجلاً أخبرته بما حدث ، فاندفع في عجلة لإيقاظ الطفلين ، بينما انطلقت أنا في طلب سيارة الحريق التي أقبلت بعد قليل ، وبدأت تطفي النيران . وبعد أن تم ذلك عاد والدائ وأبصر ما حدث . وعند ما أراد أبي الاطمئنان على الطفلين وجد أن الصغير قد أصيب بجروح بالغة نقل بسبيلها إلى المستشفى . أما الآخر فقد احترق ذراعه . وقد قال لي أبي إنه لن يغادر المنزل في أمسيات السبت بعد ذلك . »

وقد ذكر الغلام أثناء مناقشته في هذه القصة أنه لم يحدث له من قبل قط شيء شبيه بما كتبه ، كما أنه لا يتذكر أنه قد قرأ قصة من هذا النوع . غير أننا ينبغي أن نصدق قوله هذا دون تحفظ . فبينه قريب من إحدى محطات الحريق واهتمام الأولاد بمثل هذا المكان أمر مألوف . كذلك كانت بضع حرائق قد شبت من قبل في المناطق المجاورة لبيته يضاف إلى كل ذلك أنه لم يكن من المحتمل أنه لم يقرأ أو يسمع عن بعض حالات الإيقاظ من الحريق . فضلاً عن أنه لا شك كان يعلم أن المصابين ينقلون إلى المستشفى على وجه السرعة . وبذلك تكون خبراته المباشرة وغير المباشرة قد زودته بالمادة التي استطاع أن يصوغ منها صورة جديدة تختلف عن كل ما صادفه من قبل حياته . فالقصة تشبه حلم اليقظة من هذه الناحية .

بيد أن هناك أموراً أخرى غير تلك . فإن الغلام ، بعد أن كتب جملتين ، توقف عن الكلام عن (توم) ، وبدأ يتحدث عن نفسه . فهو قد أصبح (توم) ونلس في هذا الاندماج في شخصية البطل قدراً كبيراً من السذاجة . وهنا تتخذ القصة على الفور صبغة من الجسدة والصراحة أكثر وضوحاً من

قبل . إذ تصبح شخصياتها حية ، كما تزداد علاقة تلك الشخصيات بالكاتب وضوحاً كلما تقدمت القصة .

ولو نظرنا إلى القصة على أنها حلم يقظة فإنها سوف توحى إلينا بنتائج معينة عن الولد نفسه ، فإن الحادثة كلها تنتهى بنتيجة معينة هى وعد الأب بأنه لن يغادر البيت فى أمسيات السبت بعد ذلك . ولور بطناً ذلك باعتماد الولد على مساعدة رجل لم يُسمَّه فى الجزء الأول من القصة — حيث ينقذ الرجل الطفلين ، فيتيح للولد فرصة للاسراع فى طلب سيارة الحريق والحصول على مساعدة رجال المطافىء — فإننا سنجد أماننا غلاماً يظهر فى صورة « البطل » ، بمعنى أنه استطاع أن يضمن مساعدة أناس أكثر منه قوة . فهو إذن ليس ممن يستطيعون مواجهة مشكلات الحياة فى ثقة واطمئنان ، بل ممن يئشُدون العون والمساعدة دائماً .

كذلك نلاحظ عداء نحو « الصغير » ، ودلائل على امتداد ذلك العداء إلى الأم . فهي لا تلعب أى دور فى القصة ، كما أن حلم اليقظة لا يعبر عن أى رغبة فى إبقائها فى البيت ، بل إن تلك الرغبة تقتصر على الأب وحده . وينصب اللوم فى كل ما حدث على « الصغير » الذى ينال عقاباً صارماً ، ويغادر البيت إلى المستشفى أما الطفل الآخر فقد أصابته بعض الحروق أيضاً ، ولكنها لم تكن فى خطورة إصابات أخيه ، ولذلك بقى فى المنزل . لهذا يبدو أن الحادث جميعه يهدف إلى إعادة الأب إلى جوار ابنه ، وهذا كما رأينا من دوافع أحلام اليقظة عند الاولاد فى مثل هذه السن .

ويجدر بنا أيضاً أن نوجه بعض العناية إلى عناصر البطولة فى سرد حلم اليقظة فمن الواضح أن الولد قد حصل على مساعدة رجال المطافىء ، إذ هم الذين قادوا سيارة الحريق إلى المنزل ، وقاموا بإطفاء النيران . ولكننا مع ذلك لا نعثر على أية إشارة إليهم . فإن السلام لم يزد على أن قال : « . . . انطلقت فى طلب سيارة الحريق التى أقبلت بعد قليل وبدأت تطفى النار » فكان الولد وسيارة الحريق

هما البطلان ، أما دور رجال المطافئ فقد قُنع . ولقد كان من الممكن أن يقوم الولد في حلم اليقظة بقيادة سيارة الحريق واستعمالها في إطفاء النار ، ولكن لم يكن من المحتمل أن يكتب مثل هذه المبالغات في موضوع إنشائي يقرؤه مدرسه وزملاؤه . فكان هناك إذن مستويين من الرقابة يقومان بين الحلم والتعبير عنه ، إذ يوجد أولاً « الكبت » الذي يحول دون وصول أشياء كثيرة إلى الشعور ، وثانياً « القمع » الذي يحد من التعبير عن الأفكار الشعورية ، سواء أكان هذا التعبير بالقول أو بالكتابة .

فمن الواضح أن الأسرة قد انقسمت إلى قسمين : فالولدان الصغيران قد أصبحا محط رعاية الأم ، أو من يقوم مقامها ، بسبب الحادث ، وهذا يتيح الفرصة لأن يصادق الغلام أباه الذي لن يغادر المنزل في المستقبل كي يستطيع أن يحمي البيت من عبث « الصغير » ، أو يساهم في تلك الحماية على الأقل . وبذلك يحتمل جداً أن يكون أماننا أحد أحلام اليقظة التي تدور حول شعور الأخ الأكبر بأنه قد أصبح مهملاً لأن أبويه قد خصا بعنايتهم إخوانه الصغار .

ولو نظرنا إلى الأمر من ناحية الأب لوجدنا أن ما عمله الولد لا يعتبر شيئاً يذكر ، لأن سرده إياه ليس أكثر من مجموعة من العبارات البسيطة المتعاقبة التي لا تكشف عن أى إلمام بالحيل الفنية التي يستطيع بها أن يبرز الأجزاء الهامة في قصته بشكل يثير القارئ ، ويجذب انتباهه ، ويولد فيه الترقب والاهتمام . وكل تلك أشياء يسهل على الكاتب أن يتعلمها ، شأن سائر الفنون الأخرى . وقد استطاع (ستيفنسون) إتقانها بالمناجزة المضنية على التقليد .

ولقد كتب الكثيرون عن موضوع استمتاع الأطفال بالأدب . ومن المنفق عليه عامة أن التصور يلعب دوراً هاماً في تقدير الأدب وتذوقه . ولذلك يستعين المدرسون بالوصف الدقيق ، واللوحات والصور ، والرسوم التخطيطية ، محاولين أن يوضحوا بها للأطفال ما يريد المؤلف التعبير عنه ، حتى يستطيعوا أن يعيشوا بقدر

الإمكان في جو ما يسمونه أو يقرءونه . فلكي يتذوق الطفل الأدب ينبغي عليه أن يحيا مع (وردسورث) في جو تلك الخبرات الخيالية التي يوحى إليه بها في وصف أقليم البحيرة ، وأن يصحب (ماسفيلد) في رحلاته على السفن التي يصفها ، كما يتأمل حقول الخريف النضرة مع (كيتس) ، أو يعيش بين سطور قصائد (سكوت) . وهذا هو ما نقصده بالتصور . وبعض الأطفال يمتازون على غيرهم بقدرتهم على أن يتصوروا أن موضوع تفكيرهم قد أصبح شيئاً حقيقياً . وقد يتجاوز تصورهم حدود ما يضعه الكاتب في بعض الأحيان . فقد سمعت طفلة ترجمة لإحدى قصائد (آرثر والي) اليابانية البسيطة ، وعندئذ أخذت تصف القرية التي ورد ذكرها في القصيدة وصفا احتوى على عناصر لم تكن في القصيدة على الإطلاق .

ومثل هذا التصور ليس نتيجة لمجرد استقبال سلبي من ناحية الطفل لتفاصيل قد زوده بها المدرس أو المؤلف ، بل إنه يكون تصوراً ناشطاً إنشائياً . ومن الخطر أن يتجاهل هذه الحقيقة أولئك الذين يبالغون في تأكيد أهمية التصور في تذوق الأدب ، فيهملون كل ما عداه .

وقد وجهت الأستاذة (أوليف هويلر) منذ بضع سنوات نقداً إلى الفكرة القائلة بأن تذوق الأدب لا يزيد على التصور إلا قليلاً . ونشر النقد على صورة دراسة سيكولوجية لهذا الموضوع في مجلة علم النفس البريطانية^(١) . ويتلخص رأي الأستاذة (هويلر) في أن محاولة ربط تذوق الأدب بالتصور ليست خاطئة ، ولكنها تخلو من الدقة . ونادت بوجود عامل آخر أطلقت عليه اسم « البقاء »^(٢) الذي قالت بأنه لا يقل في الأهمية عن التصور . وذكرت أن : « الاستمتاع الكامل بإحدى القصائد لا يكون ممكناً إلا إذا امتزجت الصور ، وما تحمله من

(1) Olive Wheeler : An Aanalysis of Literary Appreciation - The British Journal of Psychology, General Society, Vol. Pr. 111, January 1923.

(2) Duration.

معان ، بالانفعالات المصاحبة لها ، وتدخل بعضها في بعض . وإن ما أسميه « البقاء » هو ما ينتج عن هذا الامتزاج من تدفق مستمر للفكر والوجدان ، أو حركة دائمة موصولة .

وتقول الأستاذة (هويلر) إن أبحاثها تشير إلى أن محاولة تكوين الصور ، وإضفاء الوضوح والتفصيل عليها ، يعوق تذوق الأدب . وقد يصبح التذوق في بعض الحالات سهلاً بالاستعانة بالخبرات الماضية التي ألم الطفل لأول مرة عن طريقها بالأشياء التي يحاول المدرس أن يثير فيها خياله . فمجرد وجود الصور ، سواء أكانت من صنع الطفل ، أو المدرس ، أو كليهما ، لا يكفي للتذوق الكامل واستنتجت (هويلر) من ذلك أن « من المقطوع به أن فهم القصيدة ، والاستمتاع بأجوائها ، يتوقفان على الانتقال الوجداني للحالة المزاجية ، التي كانت مسيطرة على حواس الشاعر وقت نظمه للقصيدة ، إلى القارئ » .

فمحور القول إذن هو أن التصور لا يعين على تذوق الأدب إلا إذا كان تلقائياً . ولن تؤدي محاولة إثارة التصور ، وجعله واضحاً محدود المعالم ، إلى هذا الغرض ، سواء أكان المثير خارجياً أم داخلياً . وإذا أضفنا التدفق المستمر للفكر والوجدان إلى التصور التلقائي ، مع وحدة المزاج والتركيب ، فإننا نصل إلى نفس العناصر التي لمسنا من قبل وجودها في حلم اليقظة .

ولقد قال (شللى) أننا عند ما نشاهد مأساة — وهو يقصد المآسى اليونانية — فإننا نرى أنفسنا في صور الشخصيات التي تظهر فيها ، وقد تجردنا من كل ما يربطنا بالزمان أو المكان . ويبدو أن هذا ينطبق على ما يمر بنا من خبرات عند قراءة سائر الكتب والقصص والقصائد ، إذ يتوقف تذوقنا إياها على مدى اندماجنا في شخصيات أبطالها ، حيث نستطيع مشاركتهم آلامهم وأعمالهم وانتصاراتهم . ولو كان هذا صحيحاً لأصبح من الجلي أن التفاصيل التعبيرية في التصور قد تعوق الاندماج اللازم . فقد نحقق في تذوق أحد المؤلفات لأن أبطالها

شخص يصعب أو يستحيل علينا أن نندمج فيه . وقد نستطيع أن نستمتع في سر وسهولة بإحدى القصص التي لا تزيد على أن تكون صورة حديثة منمقة لقصة « سندرلا » المعروفة ، وذلك لأن أغلبنا ليس في قرارة نفسه إلا « سندرلا » . كذلك قد نجد متعة في تأملنا لشخصية « شيلوك » في تاجر البندقية لشكسبير ، لأنها تعبر عن كثير مما قد كبته ، فرؤيتنا إياه ، وإصغائنا إلى صوته ، يجد صدى في نفوسنا ، على الرغم من كراهيتنا للرجل ، وذلك لأنه يصور لنا جانباً لا شعورياً من أنفسنا قد كبته وأنكرنا وجوده . ولا يصعب علينا أن نندمج مع (وردزورث) فننتقل « منفردين مثل السحابة » ، لأننا كثيراً ما خبرنا شعور الوحدة ، وكثيراً ما أوحى إلينا أحلام يقظتنا أن أفرادنا بأنفسنا ليس راجعاً إلى قلة عدد من حولنا من الناس ، بل إلى اختلافنا عنهم مثل اختلاف السحابة البيضاء عن بقية الزرقاء .

ومن أشهر قصص (أرثر ماكن) قصة (تل الأحلام) ^(١) التي تصور كيف استطاع طفل وحيد أن يشيد مدينة أحلام على الطراز الروماني ، وذلك من المواد التي اقتبسها من الكتب ، ومن بقايا آثار رومانية شاهدها على أحد التلال بالقرب من منزله . ويرى (ماكن) أن الأدب هو نقل حالة الاستغراق إلى الغير ، ويتمثل ذلك في القصة بتلك الحالة المزاجية التي استولت على الطفل عندما جلس بين أطلال المعسكر الروماني ، متخيلاً وجوداً كاملاً كان هو مركزه . وإذا لم يكن في مقدور كل شخص أن يقرأ « تل الأحلام » ويشاطر (ماكن) تلك الحالة الوجدانية التي يحاول نقلها إلينا ، فليس معنى ذلك أن الفشل في تذوق القصة يرجع إلى الكاتب . أو إلى نقص في الناحية الجمالية أو الإدراكية عند القارئ . فلقد قرأ الكتاب كثيرون ، ولم يحسوا بغير الإشفاق على ذلك الغلام الذي أفضت به وحدته الشديدة إلى اعتقاد الخيال المفرط . وهم بلا شك قد خبروا الوحدة من

(1) Arthur Macken : « Hill of Dreams »

قبل ، غير أن استجابتهم لها في القصة كانت مختلفة عن استجابة الطفل ، فلم يستطيعوا الاندماج في دوره عندما تخيل نفسه جالساً في أعلى المسرح الدائري وقت الفسق ، وقد أخذ الممثلون يؤدون أمامه أدوارهم في مسرحية « Cupid and Psyche » . كذلك لا يشك أحد في أنه قد مرت بهم أحلام يقظة رأوا أنفسهم فيها في صورة أبطال أو بطلات من طراز آخر ، فأصبحوا لا يستجيبون إلا للكتب التي تستعرض لهم حياة أشخاص يستطيعون الاندماج فيهم .

ويدعى (إدجار ألان بو) أن المقال الذي كتبه بعنوان « تأليف الغراب » ^(١) ليس إلا محاولة دقيقة لشرح كيفية تأليفه لقصة « الغراب » وإن كنا لا نعرف على وجه التحديد مدى أمانته في ذلك . ويذكر (بو) في هذا المقال أن عملية التأليف جميعها قد تمت بنفس الطريقة التي تتبع في حل مسألة حسابية . ولقد كان (بو) قوياً في بيانه لدرجة أنه اقنع الكثيرين بصدق رأيه لأول وهلة. غير أننا نلاحظ أنه أورد مقدمات لم يتتبعها إلى نتائجها المنطقية . فقد قال مثلاً إن الكتابة أكثر الانفعالات شاعرية ، وإن موت سيدة جميلة يعتبر من أقوى الموضوعات الشعرية في العالم . ومهما تكن النتائج التي استخلصها (بو) من هذه المقدمات ، فإن المقدمات نفسها غير معقولة ، وهي ليست أكثر من مجرد آراء شخصية . فإننا لو تصفحنا مجموع قصص (بو) ووجدنا أنها تدور بصور مختلفة حول موت سيدات جيالات ، لأدركنا من غير شك أن المؤلف واقع تحت سيطرة فكرة معينة . ومن المحتمل جداً أننا إذا ربطنا قصصه ومقالاته بسائر الحقائق التي نعرفها عن حياته وأعماله ، فإننا نستطيع أن نصل إلى بعض المعلومات عن أحلام اليقظة التي كان كثير الاسترسال فيها منذ طفولته . فنحن نعلم القليل عن الأثر الذي تركه في نفسه موت أمه ، تلك المثلة الجميلة الشابة التي كانت تحبه أشد الحب ، والتي لفظت آخر أنفاسها أمامه وهو لم يتجاوز الثالثة من عمره . ولذلك فإنه ، حتى عندما يحاول

(1) Edgar Alan Poe : « Composition of the Raven » .

أن يكتب في الفلسفة ، ينادى بنظرية عن الكون يقول فيها بوجود جزئيات تندفع كل منها نحو الأخرى لتتحد بها ، كما يندفع الطفل إلى لقاء أمه الحبيبة . كذلك نراه في أول قصيدة طويلة له بعنوان « الأعراف » يقيم قصراً وعالمًا حيث يكون مثل ذلك اللقاء ممكناً كما نجد أن الكآبة هي الحالة المزاجية التي تسود جو تلك الأحلام التي تتمزج فيها ذكريات الماضي البهيجة بإدراك سرورها وانقضائها ، ويختلط توقع السعادة المقبلة بالعلم بأنها لم تتحقق بعد . كذلك نلاحظ أن موت السيدة الجميلة له أهمية خاصة لأنه يعتبر شرطاً ضرورياً للقاء الخالد بها . وهكذا يصبح الترقب العنيف للخلود مرتبطاً بالتفكير في الموت .

ولقد أصاب (بو) فيما ذكره عن مدى ما يحتاج إليه الكاتب من تفكير حتى يستطيع أن يصور الفكرة المتسلطة عليه ، والتي تدفعه إلى الكتابة تصويراً دقيقاً . وقد تصبح المهارة الفنية بمرور الزمن عادة ، فتغدو الكتابة عندئذ عملاً آلياً ، كما نخبرنا بذلك بعض المؤلفين ويصير المؤلف أشبه بآلة في يد شخص آخر يسخرها كما يشاء .

ومنذ وقت قريب ذكر أحد كبار رجال التربية في مصر ، في معرض حديث له عن تلك الطبعات المختصرة المبسطة لقصص (سير والتر سكوت) ، التي تستخدمها المدارس المصرية في تعليم اللغة الإنجليزية ، أنه قرأ بعضها ، فوجد أنها على الرغم من تلخيصها لموضوعات القصص تلخيصاً وافياً تنقصها تلك الروعة التي كان يحس بها عند قراءة كتب (سكوت) الأصلية منذ بضع سنوات . وقد يُعْلَمُ القارىء الحديث طول الأجزاء الوصفية ، ويضن بهذا الوقت الذي ينتفضى سدى قبل بدء حوادث القصة ، ولكن يبدو أن (سكوت) كان مغرمًا ب تلك الأشياء التي أطال في وصفها ، إذ كانت تعينه على تهيئة الجو الملائم لوقوع الحوادث التالية . وقد ذكر المتحدث أنه كان يجد متعة بالغة في قراءة ذلك الوصف رغم طوله ، وإن استغناؤه بالحوادث بعد ذلك كان يتضاعف لهذا السبب .

ويمكننا أن نجد ما يشبه ذلك في أحلام اليقظة التي كنا نتحدث عنها . فإذا قال أحد الأولاد : « كثيراً ما تراهى لى فى أحلام يقظتى أنى أقوم بعمل من أعمال البطولة ... » فإنه إنما يسرد علينا موجزاً للحلم ، لا الحلم نفسه . فنحن نعلم أن مثل هذا الولد كثيراً ما يستسلم لفترات طويلة من شرود الذهن تكون حافلة بالتفاصيل التي يهمل ذكرها ، مصحوبة بمشاعر لا يحاول وصفها . ولو حاول أن يسجل حلم اليقظة كاملاً بغيره نقل الخبرات التي مرت به جميعاً إلى قارىء . يشاركه عواطفه ، لتفوق على (سكوت) فى الإطالة والإسهاب . كما أنه لو حاول أن يتشبه بالمحدثين الذين يفضلون الإيجاز على الإضافة ، لوجد نفسه مضطراً إلى البحث عن أسلوب فى الكتابة يحقق الغرض والاقتصاد معا . ولكن مثل هذا الأسلوب لن يصادف النجاح الذى كانت تحظى به الأساليب القديمة إلا بعد كثير من التعديل والإحكام .

وقد كان المربون فيما مضى ينظرون إلى أحلام اليقظة عند الصغار نظرة تنقصها روح الفهم والعطف ، وذلك لأنهم يختلفون عن المربى الحديث ، الذى يتميز بنظرته التطورية إلى نمو الطفل فى أنهم لم يدركوا أن أحلام اليقظة ليست عيباً ينبغى القضاء عليه ، بل نشاط عقلى لا بد أن تتعمده بالعناية ، وتحسن استخدامه . ولما نرى من وراء هذا القول إلى تشجيع الأطفال على الاستسلام الموصول لأحلام اليقظة ، بل إننا نغنى ضرورة الاعتراف بوجودها ، ومحاولة تحديد مكانها فى الحياة العقلية ، وفهم أغراضها ، ومعرفة وسائل استغلالها فى النهوض بنمو الطفل .

وهنا ينبغى أن نقرر صراحة أننا ما زلنا على جانب كبير من الجهل فى هذه الناحية ، فإننا كثيراً ما نصادف مشكلات لا نستطيع لها حلاً . ولهذا يحسن أن نحاول توضيح طبيعة هذه المشكلات .

كتب كثير من النقاد المتأزين فى موضوع قراءة الأطفال . وقد نشر

(جورج أورويل)^(١) ، منذ وقت ليس ببعيد ، دراسة مستفيضة لبعض الكتب التي وضعت خصيصاً للأطفال ، ونالت رواجاً في أوساطهم . فكان أهم ملاحظته (أورويل) في تلك الكتب هو التفاهة والغباء ، مما كان يبدو جلياً في « القصص المدرسية » بوجه خاص . كذلك وجد أن بعض القصص التي توالى ظهورها عدة سنوات متتالية ليست إلا تكراراً لمجموعة من الأفعال التي تنبئ عن حب الظهور مما يقوم بها تلاميذ يبدو أنهم ممن لا يطرأ عليهم أى تغيير أو تقدم في السن .

ومثل هذه القصص تثير اهتمام الأولاد والبنات الذين لم يتجاوزوا الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرهم على وجه التقريب ، أى الذين يكونون في مرحلة الانتقال التي يتم فيها عادةً مغادرة المدرسة الابتدائية إلى المدرسة الثانوية .

والمدرسة التي تصوّر في هذه القصص تكون دوماً مدرسة داخلية ، يشرف على إدارتها ناظر يحيط نفسه بسياج من العزلة والغموض ، فلا يتصل به الأولاد إلا في المناسبات التي يرتكبون فيها أحد الذنوب التي تستوجب المؤاخظة . وهو في العادة ذو أهمية كبيرة ، إذ يشار إليه غالباً باسم « الدكتور » ، وإن كنا لا نعرف الجامعة التي منحته ذلك اللقب ، أو السبب الذي منح من أجله .

أما المدرسون فيندر أن يكونوا من ذوى الشخصيات القوية ويبدو أن وظيفتهم تنحصر في إلقاء دروس لا يصفى إليها أحد ، وتكليف التلاميذ واجبات لا يحسنون أداءها ، ومعاقتهم على تقصيرهم ، أو إرسالهم إلى ناظر المدرسة لعقابهم وهم يعاملون عموماً على أنهم أشخاص قليلو الكفاية ، ظاهرو العداء ، يستطيع الأولاد مراوغتهم والسخرية منهم .

وتدور معظم القصة حول جماعة من الأولاد يكوّنون « عصابة » ، يرؤسها بطل تسجل القصة فعالة ، وتلتف حوله جماعة من تلاميذ فرقته في مثل سنه .

(١) George Orwell.

وتقوم الجماعة مجتمعة بالخروج على النظام ، ومشاكسة المعلمين ، وإقامة الولائم في عتابر النوم ، ومضايقة أشقياء المدرسة .

وقل أن يهتم قارئو هذه القصص بما إذا كان من المعقول أن توجد مدرسة بهذه الصورة . بل يكفيهم منها أنها مكان يناسب هذا النوع من أحلام اليقظة التي لا يلامها أى مكان حقيقى . ولو أبدلنا بتلاميذ المدرسة صغار العمال في مصنع أو منجم فإننا سنجد أيضاً أن ذلك المصنع أو المنجم يختلف عن المصانع العادية والمناجم المألوفة قدر اختلاف المدرسة في القصة عن سائر المدارس الحقيقية . فكأن المدرسة أو المصنع أو المنجم ليست سوى مسرح لتمثيلية صنيانية ساذجة تدور حول البطل وعصبته . وفيها يرمز الناظر والعلمون وأشقياء المدرسة إلى ما أصاب الولد من حرمان على يد أولئك الذين كانوا يحولون دون إشباعه لرغباته ، ويتفوقون عليه في الناحية الجسمية . ولذلك يشير اتجاه الولد نحوهم إلى المراحل المختلفة التي مرّ بها اتجاهه نحو أبيه . فهو يحترم الناظر الذي يكون في العادة رجلاً متزناً . وقد يكون صارماً ، ولكنه على العموم رجل عادل ، يلذ له أن يذكر دائماً أنه كان في يوم من الأيام صبياً مثل سائر الصبية . أما المدرسون فهم بين غليظ الطباع ، أو شارد الذهن . وهم قوم غير أكفاء ، تغرى رؤيتهم بسخرية التلاميذ منهم . أما فيما يختص بأشقياء المدرسة فإن البطل تتاح له في النهاية فرصة إلهاب ظهورهم بالسياط جزاءً لهم على ما ارتكبوه من أعمال العنف والقسوة ضد الضعاف من الصغار .

وهكذا تخرج العصابة مجتمعة للصيد ، وتقيم الولائم ، ويتحد أفرادها للقضاء على أعدائهم ، ويكونون جماعة يميزها اسم خاص وشارات معينة . وفي هذا تشابه « فتية سان فالنتين » و « فتيات سان بازيل » و « عصابة السهم الأحمر »^(١)

(1) " Boys of St. Valentine's ", " Girls of St. Basil's " and " The Red Arrow Gang " وهي أسماء لقصص معروفة من قصص الصغار .

غير أن مسرح نشاط الجماعتين الأولى والثانية هو مدرسة خيالية ، على حين تتخذ الجماعة الثالثة مجتمعا غير ممكن الوجود تقوم فيه بمغامراتها .

ولو كانت أحلام يقظة صغار السن لا تقضى إلى غير الاستمتاع بمثل هذا النوع من « الأدب » ، ولا تتجاوز هذا الحد ، فإننا لا شك نكون مصيبين في يأسنا منها . ولكن أهذه هي النتيجة الوحيدة المحتملة ؟

إننا لا نعلم الكثير عن طفولة (كارليل) . ومن المحتمل أننا لن نعلم عنها قدراً يكفي لتحديد نوع « البطل » الذى كان يراوده كثيراً فى أحلام يقظته عند ما كان صغيراً . ولكن مما لا شك فيه أنه قد أدرك فى كبره أن دور البطل يتوقف إلى حد كبير على المجتمع الذى يعيش فيه ، وما يتيح هذا المجتمع من فرص للتعبير عن أحلام اليقظة فى صورة نشاط حقيقى . فالبطل قد يكون إلهاً ، أو نبياً ، أو ملكاً ، أو دكتاتوراً ، أو علماً من أعلام الأدب . فنشأة كارليل الاجتماعية ، ومواهبه ، وظروفه ، أفضت به إلى أن يكون من رجال الأدب البارزين ، وأن يحيا حياة « البطولة » كواحد منهم . فأصبح بذلك يأتى كل ما يقوم به البطل فى القصة المدرسية من فعال ، ولكن فى مستوى مختلف . فنراه يسمو ببعض الأشياء إلى مرتبة التقديس ، ويهبط بأخرى إلى حضيض المهانة والازدراء . كما أخذ يفسر التاريخ على أنه قصة جماعة من « الأبطال » . وهذا رأى ، على الرغم من أنه خاطئ . بوجه عام ، فإن النظرة فيه تمتاز بفرديتها واختلافها عن غيرها ، كما أن الفكرة عن « البطل » و « الرجل العظيم » فكرة شخصية فردية ، مما لا يسعنا معه إلا أن نؤمن بأن هناك رجالاً يستطيعون أن يجعلوا من الحوادث شيئاً عظيماً رائعاً ، أكثر مما تستطيع الحوادث أن تخلق منهم رجالاً عظماء .

ويستطيع كل من ألف مشاهدة لعب صغار الأطفال التمثيلية ، ورؤية رسومهم ، والاستماع إلى قصصهم ، أن يدرك ما للزى من أهمية قصوى

فى نظريهم . فملابس الرجال مثلاً تكفى لأن تحول الطفل رجلاً ناضجاً . وقد كانت الملابس منذ عدة قرون من الندورة بحيث أن الثوب الواحد كان يظل مستعملاً طالما كان رتقه وإصلاحه ممكناً . كذلك كانت الملابس الأنيقة تخصص للمناسبات الهامة . كما كانت أسر مهرة الصناع المحترمين ترتدى أخف ملابسها فى صلوات الآحاد ، وكان يندر أن تظهر تلك الثياب فى مناسبات أخرى ، باستثناء حفلات الزفاف والمآتم .

فما الذى جعل الملابس تترك أثراً عميقاً فى نفس (كارليل) منذ الأيام المبكرة فى حياته ؟ أمى رغبة فى التزىي بها لم يستطع إشباعها ؟ أم هو منظر تلك « الحلل الأنيقة » التى كان يرتديها أولئك الرجال والنساء الذين كان يبصرهم فى الكنيسة أيام الآحاد ، أو يشاهدهم وهم يسبرون على مهل فى الطرقات الممتدة من أكوأخهم إلى الكنيسة ؟ أم إنه حسد مكبوت تولدت عنه نفمة شديدة على المختالين والسرفين فى التألق ممن كان يحس نحوهم بحسد تطور على مر الأيام إلى كراهية طاغية دفعته إلى تصويرهم فى شخصية (الفرد دورساي)^(١) ؟ وما المراحل التى أفضت إلى تلك الفكرة التى أبرزها فى كتاب (سارتور نيسارتس)^(٢) ، حيث قال بأن العالم المرئى جميعه ليس سوى رداء إله خفى مجهول ؟

ليس (كارليل) إلا واحداً من فئة كثيرة . ويبدو أنه يمثل الرجل الذى تعهد نمو أحلام يقظته ، فاستطاع أن يخلق منها شيئاً يسمو على مجرد حلم اليقظة . فما حلم اليقظة إلا نبتة ترعرعت وأصبحت شجرة سامقة مونة ، رفعت (جاك) عن الأرض وأجلسته بين السحب العالية . وهذا لا يحدث لجميع الناس ، لأن بعضهم لا يتعدون حدود الطفولة ، بل يظل خيالهم ملازماً لتلك المرحلة ، فلا يبتغون من الأدب إلا أن يعيد عليهم عرض أحلام يقظتهم فى صور قد أصاب بعض

(١) Alfred D'ortay وكان مشهوراً بالأناقة .

(٢) Sartar . Nesartus القائمة فى العصر الفيكتورى .

التغير مكانها وزمانها ، دون أن يمس من جوهرها شيئاً . ولكن بعضاً آخر يسير نموم في طريقه الطبيعي ، فينتقلون إلى مستويات جديدة يتاح لهم فيها الشعور بقيم جديدة .

فكيف يحدث مثل هذا التحول ؟

لن يكون ذلك بالتعبير عن ازدياد صور الطفولة ، أو بالإصرار على دراسة الأعمال الناضجة للبالغين . فقد قال مدرس لغلام كان يتحدث إليه عن نوع القصص التي يحبها ، إن المؤلف الذي يشير إليه قد أبدع فعلاً في كتابة قصص كثيرة . وهنا قال الولد في دهشة صادقة : « ولكني لم أكن أعلم أن كتابته شائعة ، فقد كنت أعتقد دائماً أنه من الكتاب القدامى » . كذلك يرجع جانب كبير من كراهية كبار المؤلفين ، أو عدم الاكتراف بكتبهم ، إلى الطريقة التي كانت تفرض بها مؤلفاتهم على التلاميذ في وقت لم يكونوا قد بلغوا فيه مرحلة من النمو تتيح لهم أن يتذوقوا هذا اللون من الكتابة . كما يرجع إخفاقهم في ذلك إلى بلادة في ذهنهم ، و حاجة في ذوقهم . فإن كل ذلك يفضي حتماً إلى أن يصبح مقت تلك الكتب ملازماً لهم ، كما أنه يعاود الظهور كلما وقع أحدها تحت أبصارهم .

فما الداعي إذن إلى إدخال دراسة الأدب في مناهج المدارس الابتدائية والثانوية ؟ إن جانباً من الغاية المنشودة هو أن نيسر للتلاميذ فهم لغتهم القومية ، ومعرفة وسائل استخدامها ، كما أن جانباً آخر من هذه الغاية هو أن نقدم لهم صوراً من الإلهام والتفكير الرائع الذي امتاز به فريق من بني جنسهم . غير أننا مع ذلك لا نقدم لهم تلك الأفكار لمجرد الأمل في حفظهم للقوالب اللغوية التي صيغت فيها ، بل لنظفر منهم باستجابات تشير إلى أن الحالة الوجدانية التي مرت بالكتاب أثناء كتابته قد انتقلت إلى القارئ فأصبح يشاركه إياها ، مما جعل في وسعه أن يتذوق ما فيها من جمال وصدق . وينبغي علينا ألا نتعجل هذه الاستجابات كثيراً .

فنحن لا شك نخطئ لو توقعنا أن روائع (الدكتور جونسون)^(١) يمكن أن يسبقها خيال غلام لم يتجاوز بعد مرحلة النمو التي تجعله يضع (بافالوبيل) فيما يقرب من مرتبة الآلهة .

والملاءمة بين الأدب ومطالب الأطفال من أخطر العمليات وأعقدها ، لأن هذا يتطلب حذف أجزاء معينة ، والخطر في أن نضحى بالطفل نفسه في سبيل الأدب ، فالكثيرون من البريطانيين الذين يحفظون بعض القصص من مجموعة « أسفار جليفر »^(٢) قد يدهشهم أن يعلموا أن تلك القصص بالذات ليست سوى صور بدائية غير مهذبة للحياة الإنجليزية في عصر (الملكة آن) . ونحن أنفسنا نعلم كيف أن الكثيرين من مخرجي أفلام السينما قد اعتادوا أن يتناولوا الروائع الأدبية بالتفسير التام ، فلا يحتفظون منها إلا بعنوانها واسم مؤلفها . حتى يصبح ما يخرجونه لنا قصصاً جديدة لا تعدو مستوى أحلام اليقظة في مرحلة المراهقة . وهذا هو نفس ما يحدث عند محاولة تبسيط الأدب العالي للأطفال ، مما يفضي عادة إلى تجنب الأدب بدلاً من تدريسه .

في أي المراحل إذن ، وبأي الوسائل ، نستطيع أن نضمن أن الأولاد قد بدءوا يدركون أن الكفاح ضد الفقر والجهل والمرض أمر مثير ، ذو قيمة ، ومفضل كذلك إلى الإشباع مثل ذلك القتال الذي قرءوا عن نشوبه بين فتية سان فالنتين وأشتيا المدرسة ؟ وهل يساعدنا في ذلك أن الولد في هذه المرحلة من النمو قد أثارت هذه القصة عن القتال بحيث بدأ يشعر أثناء قراءتها أنه هو الذي يقوم بنفسه بعملية الجلد بالسياط ؟ إننا نجد بين هذا النوع من الكتب التي يلتهم الأطفال صفحاتها في نهم ، وبين روائع الأدب الرفيع ، طائفة ثالثة من المؤلفات

(١) Dr Johnson ناقد ألمع وكاتب مشهور امتاز بعمق التفكير وبراعة الأسلوب .

(الترجم)

Gulliver's Travels (٢)

مثل كتب (بول دى كروف) ، ومنها (صائدو الميكروب)^(١) وغيرها تحتل مركزاً وسطاً يتيح لكبار الأولاد الذين نالوا قسطاً من التعليم أن يشتقوا منها لذة ومنتعة . والحقيقة أن ذلك ليس مقصوداً على أولئك الأولاد وحدهم ، فإن الأرقام التي وردت في أولى الصفحات في طبعة ١٩٤١ من هذا الكتاب في السلسلة المعروفة باسم « حياة ورسائل » التي تنشرها شركة (جوناثان كيب)^(٢) تدل على أن هذا الكتاب قد نشر لأول مرة عام ١٩٢٧ ، ثم أعيد طبعه في هذه السلسلة في أعوام ١٩٣٠ ، ١٩٣٣ ، ١٩٣٦ ، ١٩٣٧ (مرتين) ، ١٩٤١ . فإن بطله ، وهو أحد رجال العلم ، لا يقل إثارة للاهتمام عن بطل القصة المدرسية الذي هزم أشقياء المدرسة .

وقد يحاول المدرس أن يتدخل بالتوجيه أو غيره في المحاولات الأولى التي يقوم بها الطفل في ميدان الأدب الساذج ، الأمر الذي يذكرنا بنفاد صبر الطفل عند ما يجد أن البذور التي وضعها في المساء تصبح نباتاً موهناً مزهراً في مدى ليلة واحدة . ومن ذلك مثلاً أن الأسطر التالية كتبها غلام في السادسة من عمره ، بمجرد أن طلب إليه أن يكتب شيئاً شائناً :

« ذهب رجل وسيدة إلى الكنيسة وتزوجا . ثم عادا إلى بيتهما ومعهما كعكة الزفاف » نياً كلاهما مع الشاي .

وقد أحس الولد من النتيجة التي وصل إليها بلذة بالغة شاركه فيها سائر زملائه عندما قرى . ما كتبه بصوت مرتفع . وهذا يدل على أنه قد استطاع إنتاج قطعة أدبية بالنسبة إلى معايير السادسة . وقد يرى الكبار أن النظر إلى الغاية من الزواج على أنها مجرد الاشتراك في تناول كعكة الزفاف ، يعتبر قصوراً في التفكير ، كما أن الولد نفسه سوف يشاركهم هذا الرأي فيما بعد . غير أننا في الحقيقة لا يهمننا

Paul de kruif : « Microbe Hunters » (١)

« Life and Letters » series of Messrs. Jonathan Cope (٢)

كثيراً أن هذا الولد لم يكون لنفسه مثلاً علياً عن الزواج وهو لم يتجاوز بعد سن السادسة .

فإذا حاول البعض تذكره بأن قصته قصيرة فإنه سوف يعتبر ذلك عدم تشجيع له . ولذلك يصبح من الأجدى أن تقول له : « لقد راقني قصتك كثيراً ، وإني أرغب في الاستزادة منها . فأنت لم تذكر لنا كيف ذهب العروسان إلى الكنيسة . هل ذهبا معاً أم تقابلا هناك ؟ وهل انتقلا إليها سيراً على الأقدام أو في سيارة ؟ وماذا كان نوع كعكة الزفاف ؟ » . وهكذا . كذلك يمكننا أن نذكر الولد بأنه يحسن به أن يعرف الهجاء الصحيح لكلمة « زفاف » ^(١) مادام يريد وصفه . فتشجيعه بهذه الوسائل ، وإفهامه أن الهجاء وقواعد اللغة من العناصر الضرورية في كتابة قصصه التي ستحظى بإعجاب زملائه ، سوف يضمن استمراره في محاولة تنمية نفسه . وذلك لأن تعليمنا إياه الهجاء والقواعد بهذه الطريقة من شأنه أن يجعلهما مرتبطتين بحاجات يشعر بها وإن إهمال الدرس العادي لهذه الحاجات وانفصاله عنها هو سبب فشله .

ولسنا نرمي من وراء هذا كله إلى حث المعلمين والآباء على التنقيب المقصود عن أحلام اليقظة عند تلاميذهم وأبنائهم ، أو بذل محاولات جديّة إما لتشجيعهم على الاسترسال فيها أو الانصراف عنها ، لأن الحكمة تقضى دائماً في مثل هذه الأمور باتخاذ موقف سلبي . وأسلم الوسائل لصرف الأطفال عن الاستسلام للوصول لحلم اليقظة هو أن نهيبهم الظروف الملائمة للتكيف للبيئة الخارجية ، ونيسر لهم الفرص للقيام بالنشاط الذي يتيح لرغباتهم الطبيعية أن تنال إشباعاً حقيقياً . كذلك يحسن أن نشجعهم على تسجيل رغباتهم دون كثير من التدخل والتوجيه من ناحيتنا . وينبغي أن تنال المحاولات التي يبذلونها من التقدير ما يكفي لتشجيعهم

(١) الأصل في الإنجليزية أن الولد أخطأ في هجاء هذه الكلمة إذ كتبها « wedding » بدلا من « wedding » .

على الاستمرار والإجادة ، وألا يتجاوز التقدير هذا الحد . وليس من الحكمة إخراج تمثيلات الطفل على المسرح . أو الإسراف في الثناء عليها فإن ذلك يفضي إلى أن يظل الطفل ملازماً لذلك المستوى الذى يجد فيه هذا الإشباع ميسوراً ، بحيث إذا لم يتكرر هذا الثناء المفرط بعد ذلك ، فإن الطفل لن يحاول كسبه بإتقان عمله ، بل إنه سوف يصبح مسرفاً مختلاً ، دائم الإصرار على مطالبة غيره بالإصغاء إليه ، وإطرائه بالشكل الذى يريده . صحيح إن الأطفال فى حاجة إلى قدر من الإطراء ، ولكن ينبغى أن يكون إطراؤنا لهم متسماً بالدقة والحرص ، وأن يكون مجرد وسيلة لتشجيعهم على موالاة بذل الجهد والإتقان . وكثيراً ما يستمد الطفل مما يعمل به بنفسه مادة يتعلم منها قواعد اللغة والهجاء والأسلوب الأدبى . وقد يحسن صنعنا لو أنه قام بتحليل ما يكتب ، والبحث عن أساليب أخرى تفضل أسلوبه الراهن ، بدلاً من اقتباس مقطوعات بدیعة لشلى أو شكسبير واقتضاها .

ويمكن تقسيم الأفكار التى يتخذها الأطفال محوراً لقصصهم إلى أنواع استوحيناها من دراستنا السابقة لأحلام اليقظة فى مختلف مستويات النمو . ونجد فى كتاب « حديقة الطفل الشعرية » (لروبرت لويس ستيفنسون) كثيراً من مقطوعات الشعر التى تدور حول موضوعات فى المستوى الأنانى ، وهى مما يستطيع الأطفال فى حوالى سن السابعة الاستمتاع به إلى درجة فائقة . ومنها مثلاً :

« عندما تضاء المصابيح فى المساء ، يجلس أبواى حول النار ، حيث يقرآن ويتحدثان ويغنيان . ولكنهما لا يلعبان بشئ . »

« وعندئذ أنسلل فى الظلام بجوار الحائط ، ومعى بندقيتى ، فأقتنى آثار الحيوانات فى الغاب ، خلف الأريكة . »

ومنها :

« من ذا الذى يستطيع أن يتسلق شجرة الكرز العالية سوى ؟ » .

ومنها أيضاً .

« آه . إني أنا ربان تلك السفينة الصغيرة الأنيقة التي تنساب على صفحة ماء البحيرة » .

ولقد كان الأولاد الذين أجرى عليهم (كولدول كوك) تجربته التعليمية في مدرسة (برس) ^(١) ، ثم كتب عنهم في كتابه (طريق اللعب) ^(٢) يشعرون باهتمام بالغ بابتداع الجزر ، والمجتمعات الخيالية ، وبما كان يصحب ذلك من نشاط . وحتى في سن المراهقة فإن كتابة الأولاد والبنات تظل شبيهة بقصص المغامرات العاطفية المألوفة .

ولن تكون التلقائية ميسورة في نشاط الأطفال إلا إذا راعينا منتهى الحرص والعناية في معاملتنا إياهم . فقد حدث أن فتاة صغيرة ، كانت قد بدأت في تعلم التعبير بالخطابة والكتابة ، كتبت موضوعاً إنشائياً قصيراً عن بيتها نال إطراء معلمتها . وعندما عادت البنت إلى منزلها أخبرت أبويها بما كتبت . ولكن أمها لم ترض عن صراحتها في الكتابة . وأخبرتها بذلك . وعندئذ عارضت البنت رأي أمها بقولها : « ولكن كل ما ذكرته صحيح » . فقالت الأم « إن مثل هذه الأشياء ينبغي أن تظل في طي الكتمان ، ولا تخرج عن دائرة العائلة ، حتى ولو كانت صحيحة » . فأجابت الابنة على الفور : « إذا لم يتسن لي أن أكتب ما هو صحيح ، فلن أكتب شيئاً على الإطلاق . » ^(٣) . ونحن وإن كنا نقر الأم على ما ذهبت إليه ، إلا إننا نرى مع ذلك أنها لو كانت قد بدأت نصحبها لإبنتها بإطراء ما كتبت ، فما لا شك فيه أن نصيحتها كانت خليقة بأن تلقى قبولا حسنا عندها .

وقد يفضى التعليم نفسه إلى إعاقه التلقائية . ومن ذلك أن مدرسة كانت

١ . R. L. Stevenson : " A Child's Garden of Verse " (١)

٢ . The Persse School (٢)

٣ (٣) راجع الحصة الخامسة في الفصل الثاني من كتاب « التحليل النفسي في الفصل »

للمؤلف .

قد تأثرت إلى حد كبير بما كان يقوم به تلاميذ (كولدول كوك) من نشاط تلقائي ، فابتاعت عدة نسخ من كتاب « طريق اللعب » ، وكلفت تلميذاتها بنقل ما فيه من رسوم . ولو كان الغرض من ذلك هو مجرد تدريبهن على رسم الصور ، لاستطعنا أن نعتبر طريقتها ناجحة ، ولكنها كانت في الحقيقة ترمى إلى تنمية التلقائية عند التلميذات ، ولذلك لم يكن هناك أسوأ من مثل تلك الطريقة لتحقيق ذلك الغرض . وإن من حسن حظ الجيل الجديد أن الفكرة القديمة القائلة بأن التربية تنحصر في مجرد إلقاء الدروس وتلقين المعلومات قد بدأت تختفي بالتدريج أمام فكرة توجيه النمو توجيهاً مقصوداً .

ونستطيع الآن أن نلخص المشكلة التربوية القائمة في عبارات محدودة : هل في الإمكان أن نستغل نشاط الأطفال التلقائي ، الذي تعبر عنه أحلام اليقظة ، وأن نوجهه بحيث نصل به إلى مستويات عليا للتعبير تلائم النمو العقلي وتذوق الأدب ؟ لا شك أن ذلك القدر الكبير من النشاط الذي يجري الآن في المدارس يوحى بالرد إيجاباً على هذا السؤال . غير أننا لا زلنا أيضاً نلاحظ أن كثيراً من التعليم السائد يقوم على التلقين ضارباً صفحاً عن الاهتمام بقدرة الأطفال على التعبير التلقائي . كما يبدو أن عدداً كبيراً من الكتب المنتشرة في المدارس ترمى إلى الحيلولة دون تذوق التلاميذ للأدب .

ويمكننا أن نوجز معظم ما قيل في هذا الفصل بالإشارة مرة أخرى إلى موضوع سبق الكلام عنه ، وهو موضوع قصة سندريلا . فقد لقيت هذه القصة انتشاراً في كثير من البلاد ، كما ذاعت بصور متنوعة منذ آلاف السنين . وهي إجمالاً قصة شخص كان مهاناً من أسرته التي لم يستطع أفرادها تقديره حق قدره . غير أنه يتصل بمصادفة بقوم آخرين يدركون حقيقته على الفور .

وقد ناقشنا مصدر هذه الفكرة عن الذات في فصل سابق . وكل ما يهمننا الآن هو تكرار ظهور هذا الاتجاه الذي لوحظ انتشاره بين معظم الناس ، وكثرة

ظهوره في أحلام يقظتهم . ولذلك يمكن القول بأن قصة سندرك ما هي إلا « حلم يقظة جمعي » ولا شك أن دراسة أفلام السينما المحبوبة ، والروايات الكثيرة التداول ، وقصص المغامرات العاطفية المألوفة ، تكفي لإقناع كل من قد يساوره الشك في صحة هذا القول .

فذلك الغلام الصغير الذي كنا نرى صورته منذ بضع سنوات في نوافذ بائعي الصور واللوحات ، وقد علت وجهه الكآبة وهو يقول : « ليس ثمة من يحبني . سأذهب إلى الحديقة وآكل الديدان . » هذا الصغير قد توصل في الحقيقة إلى نصف القصة بنفسه . ولن نستطيع ، بغير أن نلم بكثير من الحقائق عنه ، أن نصل إلى معرفة السبب الذي جعله يعتقد أن تغيير نوع الطعام سوف يصلح من أمره . أما الطفل الذي يُعقَّب على تأنيب طفيف وجَّه إليه بقوله : « إنك قد أصبحت لا تحمينني . سأفتر منك لأبحث لي عن أم أخرى » فهو إنما يعبر عن القصة كلها . وهذا أيضاً قد يحدث للطفل في مستوى آخر من مستويات النمو إذ نسمعه يقول : « أودّ لو أدركني الموت فإنك عندئذ سوف ينتابك الأسى والجزع » .

فكان كل مجموعة من الصور تمثل شخصاً غير محبوب من حوله ، ولكنه يستطيع اكتساب محبة قوم آخرين غيرهم ، إنما تعبر عن هذه الفكرة بدرجات متفاوتة من الدقة . وكلما ازداد سمو المكانة الاجتماعية والثقافة للجماعة الثانية عن الجماعة الأولى ازداد ما يناله من التبجيل ذلك « النبي » الذي لم يحظ من بني وطنه بما يستحقه من التكريم . وقد يكون البطل طفلاً ، أو شاعراً مغموراً ، أو غير ذلك من الصور التي لا حصر لها . كما أن تعبير الطفل عن الاعتقاد الذاتي قد يتم في سن الثالثة ، وقد يستمر معه إلى سن متأخرة ، كما أنه قد يظهر إما في صورة شائبة غير مهذبة ، أو في صورة فنية ناضجة . وهكذا نستطيع أن نتوقع أن تظهر بالتقدير على الفور أية قصيدة تستعين بالصور على إبراز تلك الفكرة ، مثل

تلك المقطوعات الشعرية التي ينظمها الطفل من تلقاء نفسه .

وما دام موضوع القصيدة التي نجد في قراءتها لذة وممتعة هو نفس موضوع أحلام يقظتنا ، فلا بد أن يكون تذوقنا لها راجعاً إلى أن ناظمها قد عبر عن أفكارنا بشكل أكثر دقة ورواقاً مما نستطيعه نحن . ولو أننا اخفقنا في تقدير ما نظمه فإن ذلك يعنى أننا نشعر أن في وسعنا أن نتفوق عليه في إجادة التعبير ، وهذا يجعلنا نتحول عن القصيدة إلى حلم اليقظة . ذلك هو الأساس الذي نتوقع أن يقوم عليه تقدير الطفل ، إذ يجد الطفل أمامه شيئاً قد فكر فيه وأحس به ، غير أن القالب التعبيري الذي صُبَّ فيه أكثر إحكاماً مما في مقدوره . فمن الضروري إذن أن يكون الشعر الذي نختاره له قريباً من مستوى تعبيره ، لأننا وإن كنا نبغى التأثير فيه ، إلا أننا لا نرعى إلى إظهار تفوقنا الساحق عليه .

وقد أدت أحلام اليقظة بطريقة الاستخبار في إحدى المناطق الفقيرة إلى نتيجة أدهشت ناظرة المدرسة التي أجريت فيها التجربة ، إذ قالت إنها لم تكن لتتصور أن الأطفال يستطيعون التفكير في كل تلك الأشياء العديدة ، أو التعبير عن أنفسهم بمثل هذه السهولة التلقائية . وقد لوحظ أن التعبير في معظم الأحيان كان بدائياً ساذجاً ولعل سبب ذلك هو اعتياد الأطفال ذلك كذلك حدث ما كان متوقفاً من أطراد في صور التعبير ، وذلك لأن الأطفال كانوا متجانسين إلى حد كبير من حيث مرحلة النمو ، ونوع الحياة التي يعيشونها ، وألوان الحرمان التي كانوا معرضين لها . ومع ذلك فقد كان تعدد الصور مثيراً للدهشة ، فقد استعان الأطفال بالكتب والمسرح والسينما والصور ليتزودوا منها بالمادة اللازمة لتكوين أحلام يقظتهم . فكان في وسع المدرس الماهر المهتم أن يستغل كل تلك المواد استغلالاً كبيراً لمصلحة أولئك الأطفال .

لقد كان من أيسر الأمور أن نكتب عن موضوع هذا الفصل كتاباً كاملاً ، أكبر بكثير من هذا الكتاب ، غير أني رأيت من الحكمة ألا أحاول

ذلك ، وفضلت أن أتركه في صورته الحالية ليكون بمثابة دعوة موجهة إلى كل قارئ يهيمه هذا البحث فيحاول التوسع فيه بنفسه مستعيناً بكل ما هو ميسور له من مادة . ولا شك أن قولنا بإمكان استغلال الخيال في مساعدة الطفل على النمو ، وإعاقته على الانتقال إلى مستويات سلوكية وفكرية سامية بالاعتماد على تلك المستويات التي يكون قد وصل إليها بالفعل ، لا يقصد به أكثر من مجرد الإشارة إلى ما يعرفه الكثيرون من الزعماء والقادة . فالمسيح مثلاً لم يحدث الصيادين على شاطئ البحيرة كما يحدثهم سائر الناس ، ولم يقل لهم : « دعوا تلك الأعمال المادية التي تقومون بها في سبيل الأجر . خلفوها وراء ظهوركم ، ودعوني أرشدكم إلى مهنة أسمى » ، بل إنه أخذ يحدثهم بعبارات ألفوها في حياتهم اليومية ، فقال لهم : « اتبعوني وأنا كفيل بأن أجعل منكم صائدي رجال » . وهكذا يستطيع بنفس الطريقة التي أمكن بها قبول حرفة الصيد وتعديلها ، أن تقبل حلم اليقظة ، وتتعهد نموه ، حتى نصل به إلى ذلك المستوى الرفيع الذي بلغه أعلام الفن والأدب .

الفصل التاسع

حلم اليقظة والفن

أصبحت أعمال الأطفال الفنية محط الاهتمام والعناية في السنوات الأخيرة .

وقد أثار معرض رسوم تلاميذ

الأستاذ (سيرك) بفينا^(١) اهتماماً

شديداً . ومنذ ذلك الحين كتب

زميله الأستاذ (فيولا) عدة

مقالات في هذا الموضوع ، كما

نشر كتاباً بعنوان « فن الطفل »^(٢)

ويمكن دراسة الفن عند

الأطفال من عدة نواح ، غير أن

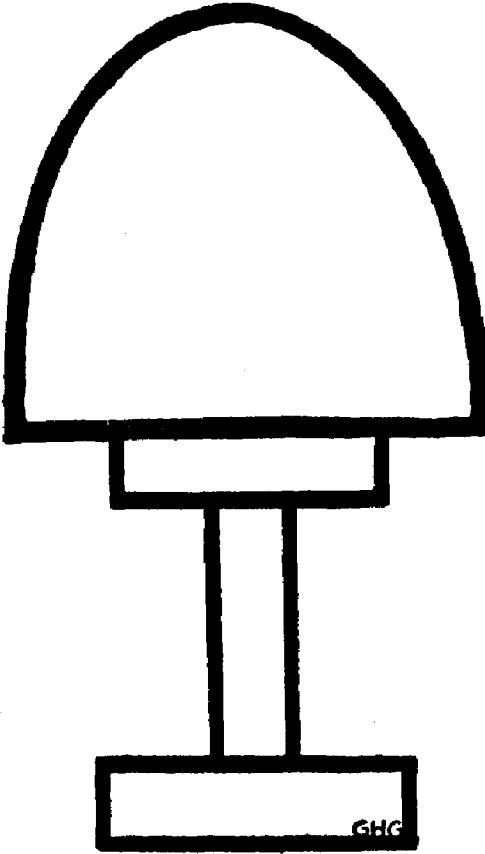
الناحية التي تهتمنا هنا هي علاقته

بحلم اليقظة ، من حيث أنه وسيلة

للتعبير التصويري عنه ، واتحادها

في المصدر .

وبيين (شكل ١) رسماً



(شكل ١)

(1) Professor Gizek of Vienna

(2) W. Viola: "The Child's Art" (Univ of London Press : London : 2nd. Edition, 1948)

وقد زار الأستاذ فيولا مصر في العام الماضي وألقى عدة محاضرات قيمة عن الفن عند الأطفال .

قام به طفل صغير كان قد نقل لثوه من قسم الصغار إلى قسم البنين بإحدى المدارس الريفية . وقد رسم الولد هذا الشكل عندما طلب المدرس إلى تلاميذه أن يرسم كل منهم ما يريد .

وقد روعى منتهى الحرص في صياغة الأسئلة التي أقيمت على الولد بشأن ما رسمه ، حتى لا يكون فيها ما يوحى إليه بنوع الإجابة . ولم يكن ذلك بالأمر العسير في البداية ، لأن محدثه لم تكن لديه أية فكرة عما يقصد الولد تمثيله بما رسمه . ولو قيل للولد مثلاً : « ما هذا ؟ » لأدرك أن رسمه لم يعبر عما كان يريد التعبير عنه ، مما يولد عنده شعوراً بالمهانة ، وتكون النتيجة إما أن ينتابه الحق فيرفض الكلام إطلاقاً ، أو أنه يخشى أن يكون قد جعل من نفسه مثاراً للسخرية ، فيندفع في إيضاح قد يثير الضحك بالفعل .

لذلك كانت أول عبارة وجهت إليه هي : « رسم جميل ! هلا حدثتني عنه قليلاً ؟ » وقد أجاب الطفل من فوره : « إنه منارة » ، ثم انطلق يتكلم بحرية . وقد ذكر في معرض حديثه أنه لم تسبق له رؤية منارة من قبل . كما قال ، رداً على سؤال آخر ، إنه لم ير صورة لإحدى المنائر أيضاً . وكان ذلك مما يصعب تصديقه ، فقد كان يعيش في مدينة صغيرة ينتشر فيها بيع نوع من الثقاب المعروف باسم « ثقاب المنارة » ، إذ كان يباع في علب يعلو غطاءها رسم منارة . غير أنه يبدو أن الطفل لم يستحسن هذا الرسم لسبب من الأسباب ، ولذلك فإنه نسيه عندما اعتزم رسم المنارة ، ولم يرسم سوى المنارة التي يريدتها .

والجزء الذي يشبه القبة في أعلى الشكل يمثل الضوء ، وهو أقوى ضوء يعرفه الطفل ، مدفأة متأججة النيران . أما باقي الرسم فهو القاعدة . وذلك هو كل ما تعنيه المنارة في نظره . فهي ضوء قوى محمول على قاعدة . أما كل ما عدا ذلك فلا يهمه ، إذ لم يبذل أى محاولة لتمثيل البحر ، أو الصخرة التي تقوم عليها المنارة . ولا شك أن الولد كان يعرف شيئاً عن فوائد المنارات ، فقد قال إن المنارة

تجعل رجال البحر في أمان ، فهم يدركون عند رؤيتها أنهم قد أصبحوا في مأمن من الأخطار .

فالطفل قد رسم شيئاً يرمز إلى الأمن ، ويبدو أن شيئاً ما في حياته قد علمه أن الضوء معناه الأمن ، فعلى في رسم أقوى ضوء يعرفه ، وأقامه على قاعدة . فكان الشكل الناتج أقرب إلى المصباح منه إلى المنارة . وكأنه قد ابتدع لنفسه رمزاً يدل على الأمن الشديد .

كان من السهل التأكد من أن هذا الطفل يمقت الظلام مقتاً شديداً . وذلك من الأمور المألوفة التي يعتقد كثير من الناس أنها طبيعية . غير أن التجارب التي أجريت على الأطفال توحى بأنهم لا يخافون الظلام بطبيعتهم . ولكنهم قد يعتادون ذلك بسبب ظروف حياتهم . ولما كانت مناقشة الطريقة في نمو هذا الخوف ، أو مدلول الأسباب التي يعطيه الطفل بها ، قد تخرجنا عن دائرة بحثنا ، فيكفي أن نؤكد أن ذلك الطفل عندما أحس بحاجته إلى الأمن خلق لنفسه رمزاً ينبئ عنه ، فاستطاع بذلك أن يحصل من فنه على تعويض عن شعوره بالخوف وعدم الاطمئنان .

ومما يجدر بالذكر أن الأطفال في رسومهم يسرفون في إبراز الأجزاء التي تثير اهتمامهم وذلك بوسيلتين : الأولى مضاعفة الحجم ، والثانية التكرار . فالطفل الذي يهتم بالطيور قد يرسم طائراً واحداً ضخماً جداً بالنسبة إلى سائر الأشياء المحيطة به ، أو قد يرسم السماء حافلة بالطيور . كذلك نلاحظ أن الطفل عندما يرسم قاطرة مثلاً يعني بجعل صفارتها أكبر كثيراً مما هي عليه في الحقيقة ، أو يرسم ثلاثاً أو أربع صفارات كبيرة للقاطرة الواحدة . وقد يهمل الطفل في رسم الدراجة مقعدها ، أو مسند القدمين ، أو السلسلة ، ولكنه يندر أن ينسى الأجراس ، بل إنه ليفصل أجزائها تفصيلاً دقيقاً ، ويسرف في مضاعفة حجمها .

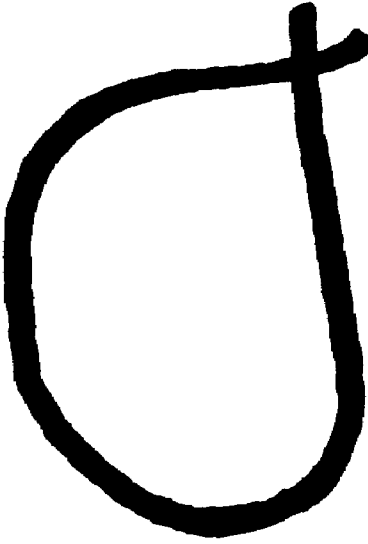
فالمقياس في رسم الطفل هو إذن مقياس الاهتمام ، لا مقياس الأبعاد الطولية .

وتلك هي نفس الاتجاهات الميزة لكثير من رسوم الرجل البدائي . فنرى مثلاً في التماثيل المعروفة باسم « تماثيل جريمالدي » أو في « تماثيل ويلندورف » وهي التي نقل (باركن) صورها في كتابه : « فن ما قبل التاريخ » غلواً في تكبير حجم التدين . كما نلاحظ مضاعفة عددها في تماثيل « ديانا الأفسوسية » إذ نرى صفوفاً من الأندية تغطي معظم جذع التمثال . ونجد في إحدى اللوحات المنقوشة في مجموعة (پت - ريفرز) بأكسفورد أن الشفتين تشبهان قوسين ضخمين ، وأن اهتمام الفنان بهما كان سبباً في تكرارهما بحيث أننا نرى مكان الفم صفّاً أفقياً من تلك الأقواس .

ويبدو أن الأطفال عند بدء استعمالهم للقلم الرصاص ، أو الفرشاة ، لا يهدفون إلى تصوير ما يرسمونه تصويراً واقعياً ، أو أنهم لا يقصدون التصوير على الإطلاق . فالطفل يمسك القلم بيده ويحرك سنه على الورق حركات قوية ، وعندئذ يرى أمامه شيئاً قد خلقه بنفسه ، فيسر لذلك ، ويكرره ، ثم يعيد تكراره حتى ينتابه الكلال ، أو يشغل عنه شيء آخر ، أو تنفذ ذخيرته من الورق . فكان رسمه في هذه المرحلة ليس أكثر من لعب إنشائي .

ومن العسير علينا أن نحدد مرحلة النمو التي يبدأ الطفل فيها يكتشف بنفسه أن ما يرسمه قريب الشبه بما في متناول خبرته من أشياء . وترجع صعوبة هذا التحديد إلى أن قليلاً من الأطفال هم الذين تتاح لهم الفرصة لأن يقوموا بهذا الاكتشاف بأنفسهم . فالطفل إذ يُسَرُّ لنتاج جهوده يعرض ما خطه بقلمه من خطوط طائشة لا غرض منها على الكبار حرصاً على أن يشاركوه ابتهاجه ، أو رغبة في أن يحظى بإعجابهم . ولكنهم يسألونه : « ما هذا الرسم ؟ أهو أب أو أم ؟ » ، فيجيب الطفل : « إنه أب » وذلك لميله إلى مسايرة ما أدرك أنهم قد توقعوه . وهكذا يأخذ في إطلاق أسماء على محاولاته الأولى في الرسم ، وكثيراً ما يقول أبواه عنه بعد ذلك : « إنه يرسم دائماً أشياء مختلفة . فهو يرسم أباه وأمه

وسائر الأطفال ، ولكنه يجعلهم جميعاً متشابهين » .
وقد حدث أن طفلة صغيرة في الثالثة من عمرها ، كانت قد مرت بمثل هذه



التجربة ، أعطيت قلباً وقطعة من الورق
وقيل لها : « أريد أن ترسمي لى بعض
الأشياء . سأقول لك ما هى . إرسمي أباك »

فرسمت البنت على الفور ما نراه فى (شكل
٢) . وعندئذ أخذ منها هذا الرسم حتى
لا تراه ، وأعطيت قطعة أخرى من الورق
لترسم عليها أمها ، فرسمت شكلاً آخر يشبه
الأول تماماً . وعندما طلب إليها بعد ذلك

أن ترسم بعض الأشياء المألوفة كانت تكرر
نفس الشكل دائماً . وهنا قيل لها : « ارسمي نفسك فى حوض الاستحمام » ،
فرسمت الشكل نفسه أيضاً .

— ولكنك لا تظهرين فى الرسم أنت والحوض . أهذا هو الحوض ؟

— أجل إنه الحوض .

— إذن فارسمي نفسك داخله .

فكررت الفتاة رسم الشكل السابق مصغراً بجانب الحوض . وكان ذلك
مثيراً للاهتمام بطبيعة الحال لأن البنت قد تجاهلت فى رسمها جميع العلاقات المكانية
والتمثيل الصحيح معاً .

وقد نصادف فى إحدى مجلدات « سبنسروجيلن »^(١) التى تبحث فى حياة
سكان استراليا الأصليين رسماً وطنياً لثلاث برقوقات قد رسمت على صورة أشكال
بيضية بعضها داخل بعض . فالطفلة التى كان ينبغى أن تكون داخل الحوض

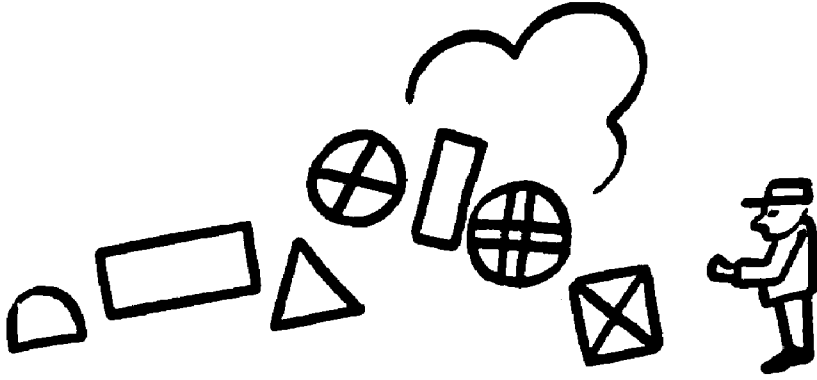
(1) Spencer and Gillen.

قد رسمت نفسها بجانبه ، وكذلك البرقوقات التي كان يجب أن تكون متجاورة رسمت داخل بعضها . فكان الطفل والبدائي يتساويان إذن من حيث مرحلة النمو ، والقدرة على تمثيل العلاقات المكانية .

ليست هذه المسألة في الحقيقة بسيطة كما قد تبدو . وليس من المستطاع أن نبت فيها برأى قاطع إلا بعد البحث الطويل . فمن مألوف عادات البدائيين مثلاً عمل رسوم تتصل بشعائهم وحفلاتهم ، سواء على الأرض أو على الأشياء المقدسة (شورنجا) . فنراهم يمثلون الرجال والنساء والآبار والحيوان والشجر جميعاً بدوائر متحدة المركز ومتشابهة تماماً ، بحيث لا يكون في وسع سوام أن يدرك لها معنى . ومع ذلك فإن أولئك البدائيين أنفسهم كانوا يستطيعون عمل رسوم أخرى بدائية كذلك ، ولكنها واقعية . وتسير الرسوم الخاصة بحفلاتهم وفق نمط واحد توارثوه جيلاً بعد جيل عن أجدادهم منذ « الشيرنجا » (أى فجر الخليقة) . ويقوم الكهول بتفسير معنى تلك الرسوم للناشئين الذين يكون عليهم تأدية هذا العمل بدورهم عند ما تتقدم بهم السن ويصبحون من كبار رجال القبيلة . ولعل توارث هذه الرسوم قد حفظ لنا خصائص تلك المرحلة التي كان الناس يقومون فيها برسم صور مختلفة دون أن يدركوا أنها قد تمثل أشياء معينة ، وتلك هي المرحلة التي وصلت إليها الطفلة التي تكلمنا عنها .

كذلك اعتاد ولد في سن الثالثة أن يطلب من أبيه وأصدقائه أن يرسموا له قطارات . وفي ذات يوم أراد أحدهم أن يجرى عليه تجربة ، فرسم له عدداً من أجزاء القطار منفصلاً بعضها عن بعض ، كما رسم بدلاً من باقي الأجزاء أشكالاً هندسية مختلفة ليس لها بها أى ارتباط ، فمثل لبعض العجلات بثلاثات وللبعض الآخر بمربعات . فكان الرسم في مجموعه شبيهاً (بشكل ٣) .

إن مثل هذه الأشكال قد تظهر من وقت لآخر في بعض المجلات الدورية التي تظهر للتعبير عن نزعات إحدى « المدارس » الفنية الجديدة ، ثم لا تلبث أن تختفي



(شكا ٣)

وقد تلقى هذه الرسوم استحساناً وقبولاً من بعض الناس . بيد أن الولد لم يرض عنها قط ، بل إنه انفجر باكياً بمجرد انتهاء الرسم ، وصاح قائلاً : « إن أبى لا يرسم لى القطار بهذه الطريقة » . ولم يذكر أن الرسم لا يشبه القطار . فكأنه قد ألف أسلوباً معيناً لرسم القطار ، فأصبح يرفض كل ما عداه . أى أن رسوم أبيه التى لم تكن هى الأخرى تشبه القطارات قد أصبحت بمثابة العقيدة الراسخة .

وقد يكون من المفيد أن نبحث عما إذا كان الطفل يحتمل أن يرضى عن تلك الرسوم ، ويرفض غيرها من الرسوم الواقعية ، إذا كان لم ير للقطارات صورة غير تلك الصور الشبيهة بالشكل (٣) . قد يستطيع الرسام الماهر أن يرسم الأشياء الطبيعية بدقة تقرب من دقة آلة التصوير ، بحيث تخدع الناظر إليها وتجعله يعتقد أنه أمام شىء حقيقى وليس مجرد صورة له . ويقال إن (أبيليس)^(١) كان يخدع الطيور بصور الكروم التى رسمها ، ولكن (پاراسيوس)^(٢) تمكن من أن يخدع (أبيليس) نفسه بصورة قناع ظن الفنان العظيم أنه حقيقى . ويستطيع كل من زار (متحف فيرتز)^(٣) فى بروكسل أن يذكر مدى ما حفلت به كثير من الصور من خداع النظر .

(١) Apelles فنان يونانى شهير . ذاع صيته فى عصر الاسكندر الأكبر الذى كان يعترف كثيراً بصداقته . (المترجم) .

(٢) Parrhasius رسام يونانى معروف .

(٣) The Wiertz Museum متحف خاص بآثار (فيرتز) الفنية .

لم يكن الولد الذى نتكلم عنه يريد صوراً للقطارات قريبة الشبه بالحقيقة بدرجة كبيرة . فقد كان يقف بجانب والده وهو يرسم ، ويقول له : « أكثر من الدخان . أريد دخاناً كثيراً يتصاعد من المدخنة . » كذلك كان يطلب أن يكون حجم الصفارة مفرطاً فى الكبر ، وأن يكون القطار طويلاً جداً . فهو لم يكن يبنى إذن صورة محسنة للقطار نفسه ، بل كان ينشد تصوير رغباته التى تدور حول القطار . فلا يدهشنا إذن أن تكون أعمال الفنانين البدائيين فى بعض الأحيان مسرفة فى الغرابة لما فيها من خصائص معينة تضاف عليها الحياة ، وإن لم تكن شبيهة بالأشياء الحية بالمعنى التصويرى . فالرسم فى الواقع لا يمثل شيئاً معيناً قدر ما يمثل آمالاً ورغبات نذكرها لأنها آمالنا ورغباتنا . وهذا هو ما نراه فى صورة غابة من رسم (روسو دوانيه)^(١) ، ولكننا لا نلاحظه فى صورة أخرى قد تفوقها فى درجة الواقعية .

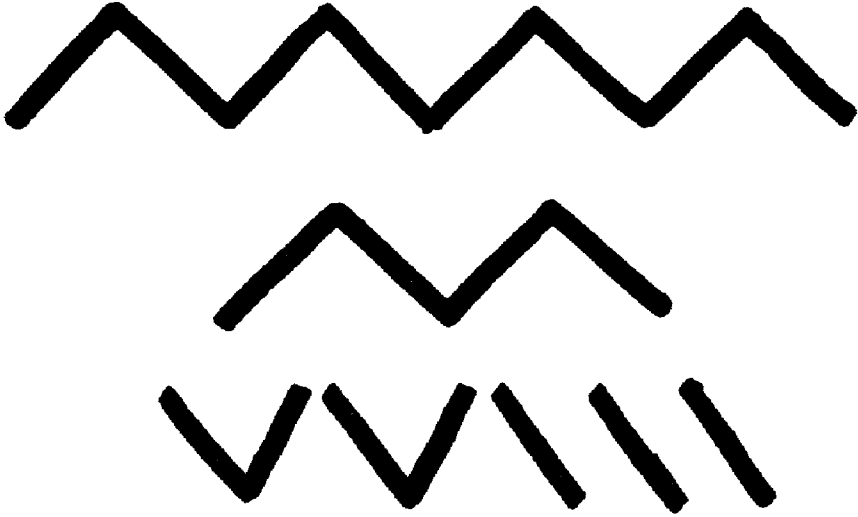
وثمة بنت صغيرة أخرى لم تتجاوز الرابعة من عمرها تقريباً ، ولها ولع برسم صفار البنات . فقد كانت هى الأخرى ترسم القطارات . وكانت رسوماً تمتاز بقدر كبير من الواقعية لا يتناسب مع سنها . ولعل ذلك يرجع إلى أن أمها كانت تجيد الرسم ، فكانت تصحح أخطاءها ، وترسم لها أحياناً . وقد رسمت البنت ذات مرة قطاراً له ثلاث صفارات يتصاعد البخار منها جميعاً دليلاً على أنها صالحة للعمل . وألحقت بالقاطرة عدداً من العربات واضحة النوافذ . وقد ظهر خلال إحدى تلك النوافذ شخص جالس — وكان امرأة . وعندما سئلت البنت عن تلك المسافرة أجابت بأنها جدتها التى تقيم مع الأسرة . فالجدة إذن على سفر . ويعلم كل من كان على صلة وثيقة بالأسرة أن رحيل الجدة كان من الرغبات التى لم ينلها السكبت التام ، وإن كان يعتبر من الأمور التى لا يليق التحدث عنها .

(١) Rousseau Douanier رسام فرنسى نبغ فى الرسم دون أن يتعلمه ، وتمتاز لوحاته بالبساطة والبدائية التى تجعلها شبيهة برسوم الاطفال (المترجم) .

كذلك كانت رسوم البنات الصغيرات واقعية إلى درجة ما . وكانت البنت توجه عناية خاصة إلى الوجه والشعر ، كما كانت النسب في رسم الجذع والأطراف معقولة . ولكن رسم الأيدي كان غير مرضى . وتذكر البنت في صراحة أن معظم رسومها إنما تمثلها هي ، وإن كانت تظهر أحياناً في رفقة طفلة أخرى أصغر منها تشبهها تماماً ، ويقصد بها أن تكون أختها . وفي أحد الأيام تناول زائر كراسة الرسم منها ورسم فيها بسرعة رأس طفل وكتفيه . نظرت البنت إلى الرسم وقالت : « لا أحب هذه البنت الصغيرة . سأحوها » ، ثم أتبعَتْ قولها بالفعل ، ومحت كل أثر لرسم الزائر . ولسنا نعلم على وجه التحقيق ما إذا كانت قد محت الرسم لأنها أدركت أنه أكثر إتقاناً من رسمها ، أو لأن الطفلة كانت أجمل من الصورة التي رسمتها لنفسها . ومهما يكن من أمر فإن من الجلى أنها أحست بالغيرة ، فكانت استجابتها المباشرة إزالة مصدرها . ولعل مما هو جدير بالاهتمام أن نلاحظ أنها لم تقل : « إني لا أحب هذا الرسم » ، بل قالت : « لا أحب هذه البنت الصغيرة . »

ورسم ولد في سن الثالثة أيضاً مجموعة من الصور بقصد إهدائها إلى رجل اعتاد أن يتحفه ببعض الهدايا البسيطة من حين لآخر ، وأن يظهر له اهتمامه به بوسائل أخرى مختلفة . وقد كتب الولد اسمه أسفل الورقة بحروف كبيرة . وكانت الصورة تمثل برج حمام عادى ، وزهرة النرجس ، وزهرة الثلج ، وهذه لم تكن في الحقيقة من نسخ مكررة لرسوم نقلها من السبورة في المدرسة .

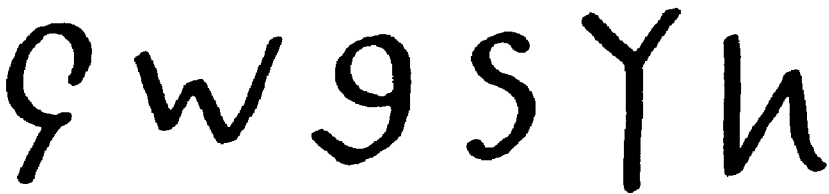
وقد ظهر في الرسوم عدد من العلامات التي فسرها الولد على أنها طيور . ودل البحث على أنه كان قد أبصر شقيقه يرسم الطيور بهذه الطريقة ، وقد أخبره هذا الشقيق بأن مدرسه يرسمها كذلك . وعند ما سئل الولد أن يرسم طائراً واحداً رسمه كما في (شكل ٤) .



(شكل ٤)

فمجموعة الرسوم التي كان يظن أنها لا معنى لها ، أو أنها مجرد علامات زخرفية ، بدأت تتخذ معنى معيناً ، أو عدة معان . إذ أصبحت تدل على أن الطفل لم يكن يستطيع أن يرسم الطيور بسهولة فحسب ، بل كان قادراً أيضاً على منافسة شقيقه في ذلك . وهناك دلائل أخرى تشير إلى أن معين اهتمامه كان آخذاً في النضوب باستمراره في الرسم . فالعناية ظاهرة في الصف الأعلى للأقواس ، وفي رسم العلامتين المقلوبتين تحته . ثم نرى بعد ذلك إهمالا في رسم حرفي الـ ٧ . ويعقب ذلك ثلاثة خطوط مفردة .

و، لا شك فيه أن الطفل كان فخوراً بعمله ، فقد حظى بكثير من الثناء



(شكل ٥)

عليه في المدرسة . كذلك استطاع نقل الرسوم التي أبصر شقيقه الذي يكبره بعامين يرسمها في البيت . فأطرت أمه عمله ، وذكرت له أنه يفوق أخاه في إتقان

الرسم . فمن المحتمل إذن أنه إنما يرسم لا لشعوره بضرورة التعبير عن شيء داخلي يدفعه إلى ذلك ، ولكن ابتغاء الحصول على ثناء الغير . وعند ما أهدى رسومه إلى صديقه الكبير طلب إليه أن يعلقها على الحائط حيث كان يعلق رسومه الخاصة . فهو إذ أحس بتفوقه على زملائه وعلى أخيه أصبح الآن يريد على الأقل أن يقف على قدم المساواة مع شخص كبير . فأخذ يرسم لا من أجل الرسم ذاته ، بل في سبيل ما قد يتيح له رسمه من نتائج ، أى أن الرسم لم يكن غاية في ذاته وإنما وسيلة إلى غايات أخرى . وهذا يفسر لنا انحطاط المستوى الفنى فى رسمه كلما استمر فى تكرار علامة الطائر ، وذلك لأنه لم يكن يحس متعة فى العمل نفسه ، وإنما كان يشعر بحرص على الثواب المرموق . وبذلك فقد التلقائية التى تعتبر أهم العناصر فى فن الطفل .

ولسنا نريد أن يؤخذ قولنا هذا على أنه يعنى أن الولد لم يفد شيئاً من عمله فى المدرسة ، فإنه قد تعلم بلا شك قدرًا من ضبط النفس ، كما اكتسب قسطاً من المهارة ، كذلك تعلم أن ينقل الرسوم والأشكال البسيطة بدرجة لا بأس بها من الدقة والإنقان ، ولكنه قد دفع لذلك ثمنًا غاليًا ، إذ ضحى فى سبيل ذلك بما يصحب التعبير التلقائى من إشباع ، وبما يفضى إليه ذلك الإشباع من نمو نفسى . وتأكيد هذه النتيجة إذا لاحظنا أنه كتب اسمه بحروف كبيرة فى أسفل الورقة ، (شكل ٥) .

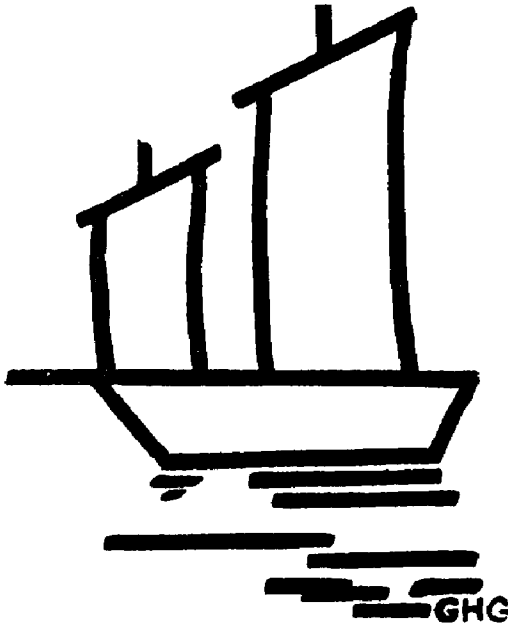
وقد اكتشف (السير سبريل بيرت) أن رسوم الأطفال فى سن السادسة والسابعة تمثل فى ٨٠٪ من الحالات أشخاصاً آدميين . وكان لهذا الكشف فائدة كبرى ، عند مقارنته بآراء (باركن) عن رسوم البدائيين . فإن الرسوم التى وجدت على جدران الكهوف فى أسبانيا وجنوب فرنسا ، وكذلك النقوش المحفورة على الأسلحة التى تم العثور عليها فى جهات أخرى ، قليلا ما كانت تمثل مخلوقات بشرية . وفى إحدى الرسوم التى جمعت بين الحيوان والإنسان ، كان

الحذق والمهارة متجليين في رسم الحيوان ، بينما لم يتجاوز رسم الوجه الأدنى طور عبث الصغار . وقد قال باركن عن هذه الرسوم أنها « توضح الفرق بين قدرة فناني العصر الحجري على رسم الحيوان ، وقدرتهم على رسم الإنسان » . غير أن محور بحثنا هذا أشد ارتباطاً بالاهتمام بإنتاج الصور ، منه بمجرد القدرة على هذا الإنتاج . فالرجال الذين نقشوا تلك الصور كانوا شديدي الاهتمام بالحيوانات الكبيرة المفترسة باعتبارها مورد غذائهم ، فكانت حياتهم متوقفة على معرفتهم بأنواعها وعاداتها . وكان عليهم أن يلعبوا بطرق خداعها وقتلها . وبذلك اتخذت آمالهم ومخاوفهم من الحيوان محوراً تدور حوله ، فكانوا يقضون أوقات الفراغ التي تتاح لهم بين حملات الصيد في تدير الخطط ، وإعداد الأسلحة للحملات المقبلة . أما في مجتمعنا الحالي فإن الشخص الكبير هو الذي يعتبر في نظر الطفل أكثر أهمية من أي حيوان آخر من حيث هو مصدر للإشباع . وعلى هذا النحو نرى أن اهتمام البدائي بالحيوان يستثير جميع قدراته الممكنة ، وكذلك اهتمام الطفل بالراشد يدفعه إلى توجيه جميع قدراته إلى تصويره .

فكان الطفل في رسومه وأحلام يقظته — مهما بلغت درجة غرابتها وطرافتها — إنما يهتم برغباته وإشباعها ، بحيث أن كل ما ينتج في هذه الناحية يعتبر إلى حد ما نظاماً من الأشياء حبيباً إلى نفسه . وهو يدرك ذلك هَوْناً ما في بعض الأحيان ، فقد طلب أحد المدرسين إلى تلاميذه أن يرسموا أي شيء يريدون . وعندئذ بدأ ولد في العاشرة من عمره يرسم الصحراء ، فرسم بعض أشجار النخيل ، ونفراً من الناس والحيوان . ثم أخذ يلون الجزء الأمامي من الصورة بلون أحمر فاقع . وقد ذكر فيما بعد أنه لم ير الصحراء من قبل ولكنه كان يعلم أنها تتكون من الرمال . وعندما سئل عما إذا كان قد شاهد رملاً أحمر اللون أجاب من فوره : « إني أعلم أن الرمل ليس بهذا اللون ، ولكني

أفضل اللون الأحمر على سواء » . فكأنه على ما يبدو يحاول أن يصلح العالم الذي يعرفه .

وفي حالة أخرى مماثلة ، بدا السبب جلياً كذلك ، فإن فتاة تبلغ من العمر الثانية عشرة من عمرها ، وتقيم في إحدى ضواحي لندن ، اعتادت أن تقضى جانباً كبيراً من وقت فراغها بمنزلها في رسم السفن . وكان رسمها للسفينة ذاتها عادياً ، ولكن الألوان كانت غير مألوفة إذ كانت تختلف عن ألوان السفن الحقيقية ، فقد كانت تلون هيكل السفينة باللون الأزرق . ولم تكن تتمسك في



(شكل ٦)

ذلك بخط ثابتة للتلوين ، بل إن كل صورة كانت مختلفة عن الأخرى في ذلك ، وإن تشابهت جميعاً من حيث الرسم الإجمالي . وقد كانت البنت في ذلك الوقت فريسة لحالات متكررة من الجثام^(١) ، إذ كثيراً ما كان يترأى لها في المنام أنها في حالة غرق . فكانت الفتاة تكره البحر دون مبرر

ظاهر . ويبدو أن الاختناق ، أو الفرق ، كان يعنى بالنسبة إليها وقوعها تحت سيطرة شيء ضخم تحس إزاءه بالضعف والخذلان ، ويلعب دوراً بارزاً في رؤاها ، وأحلام يقظتها ، واتجاهها في الحياة . وكانت ترى في بعض أحلام الفرق هذه سفينة عليها شخص لا تعرفه ، ورغم صراخها في طلب النجدة فإن ذلك الشخص لم يكن يعيرها أى اهتمام . وقد ذكر والد الفتاة عندما لجأ إلى مدرّستها يلتمس

(١) Nightmare وهو الكابوس .

منها المشورة والنصح أن ابنته كانت قد أخذت في ذلك الوقت تلقى على أمها أسئلة بدت محرجة في نظرها ، لأن نشأة الأم وثافتها لم تكونا لتؤهلها لأن تمد ابنتها بالرأى السديد والمشورة النافعة في هذه الناحية ، ولذلك فإنها لم ترفض الإجابة عن أسئلتها فحسب ، بل حظرت عليها أيضاً أن تلقيها على مسامعها مرة أخرى . وكان الأب يرى ألا يتولى هو أمر إجابة ابنته عن أسئلتها ، ولذلك طلب إلى زوجه أن تأخذ ذلك على عاتقها فرفضت . وعندما سأله المدرّسة عن السبب الذى حدا به إلى عدم معالجة الأمر بنفسه أجاب : « وكيف أستطيع ذلك ؟ ماذا تكون نظرتها إلى أمها وإلىّ لو أنى أفضيت إليها ببعض المعلومات الجنسية ؟ » .

كل ذلك يزودنا بدليل يهديننا إلى معنى السفينة العابرة ، والشخص الذى لم يستجب لاستغاثة الفتاة أثناء صراعها مع ذلك الشيء الذى يكاد يكتم أنفاسها . ولو أننا تأملنا في رسم الفتاة للسفينة لوجدنا أنها تجعلها دائماً جذابة ، بدلا من أن تلونها بالألوان العادية . وهذا يشير إلى أكثر من معنى . فليس من الضروري أن تكون أسئلتها منبثة عن جهلها ، بل يحتمل جداً أنها تنبئ عن أنها قد علمت شيئا تريد التأكد من صحته أو زيفه . فكثيراً ما تكون المعلومات الجنسية التى يتناقلها الأحداث في هذه السن بعضهم عن بعض مثيرة للاهتمام والاشمئزاز معاً . ولذلك يحتمل أن تكون الفتاة قد حاولت في رسمها أن تصبغ « الحقائق » بلون عاطفى جذاب ، أو أن تتخذ من الألوان وسيلة لجعل أمها أقل تعنتاً ، وأكثر ميلاً إلى معونتها ، ولإحلال شيء ممتع سار مكان سفينة الجثام (الكابوس) . ويدل التفاوت بين السفينة الحقيقية والسفينة المرسومة على عنف الصراع القائم في نفس الفتاة .

ويشبه الاتجاه الذى يتخذه الأطفال إزاء رسومهم نظرة البدأى إلى الرموز والصور . فعندما يخبر الطفل أحد الكبار بأنه سيرسمه فإنه يفضى إليه بهذا النبأ على صورة توحى بأنه يعتقد أنه يؤدى له خدمة جليلة يرسمه إياه . وتكون لهجته عموماً مشوبة بالعزم والتأكيد . وإذا نظرنا إلى رسمه فإننا نجد في العادة نوعاً

من « الكاريكاتير » إذ يسرف في إبراز بعض التقاطيع التي تثير اهتمامه . وهذا أمر سبق أن لاحظناه في رسوم الأطفال بصفة عامة .

وعندما يكرر الطفل رسم رسمه نفسه بصورة واحدة لا تتغير مبرزاً التقاطيع التي تهيمه ، فإنه قد يرمى من وراء ذلك إلى التعبير عن اهتمامه بها بشكل تغلب عليه المغالاة ، كما لو كان يرغب في زيادة عددها عنده . ويبدو أن هناك اعتقاداً قد لا يتسنى له التعبير عنه في صورة لفظية ، وهو اعتقاده بأنه يستطيع برسمه أن يؤثر في نفسه وفي نموه ، وأنه قد يتمكن عن طريق هذا الرسم من الحيلولة دون تغير تلك الصفات التي يعجب بها أو زوالها .

وقد أمكن ملاحظة بعض هذه الخصائص في عدد من رسوم تلاميذ مدارس منطقة محرم بك بمدينة الاسكندرية ، فقد رسم أحد الأولاد شيئاً ضخماً خيفاً رابضاً على الأرض ، ينبيء مظهره عن البطش والتهديد ، ويشبه حيواناً مفترساً متحفزاً للاقتضاض على فريسته . وعندما سئل الولد عنه أجاب : « إنه أمي » . وقد نمتي إلى علم المدرس من مصادر أخرى أن أم الولد كانت كثيراً ماتسو عليه وتضربه . فكان الولد يرهبها ويخشى جانبها . وكثيراً ما يرسم الأطفال ما يخيفهم من الحيوانات أو الناس ، فيبالغون في إبراز الخصائص الخيفة فيها . ومن ذلك أن ولداً آخر في نفس الفصل رسم حيوانين مفترسين كبيرين يجوبان غابة وقف على صخرة مرتفعة فيها بطل صغير ممسكاً بينديته في يده ، متأهباً لإطلاق النار عليهما وقد ذكر الولد أن الوحشين هما أبوه وأمه ، أما الصائد الصغير فهو نفسه .

ويتطلب التأويل الكامل لهذه الرسوم بحثاً عميقاً ، وإلماماً تاماً بحالات راسمها ، ودراسة مستفيضة لعدد كبير منها . ونستطيع أن نقول مبدئياً أن تلك الرسوم تصدر عن أكثر من دافع واحد . فرسم الأبوين بذلك الشكل العدواني إنما هو عقاب لهما على قسوتهما . ويوحى الرسم الثاني بأن الولد يؤمن بضرورة جعل العقاب صارماً . والشكل الخيف في كلتا الحالتين شيء صنعه الطفل بنفسه ، فلا (م — ١٣)

ينبغي عليه إذن أن يخشاه ، فصانع الأصنام لا يحتمل أن يحس بتلك الرهبة التي تنتاب أولئك الذين يسجدون لتماثيله ! ولذلك فإن من الممكن أن يستطيع الطفل التغلب على مخاوفه عن طريق فنه ، لأنه يسيطر عليها في نفس الوقت الذي يسيطر فيه على الأشياء التي كانت سبباً فيها . كذلك يستطيع برسمه إياها أن يعبر عن بغضه لها بشكل مباشر ، وعن تفوقه عليها بشكل غير مباشر . يضاف إلى ذلك أنه بتكرار رسم الشيء الذي يخافه يتمكن من تدريب نفسه على احتماله وفهمه ، وأن ينمى نحوه استجابات ملائمة ، مثله في ذلك مثل الجنود الذين يألقون بمرور الوقت مواجهة المواقف التي أفزعتهم وشلت حركتهم عندما صادقتهم لأول مرة . ومن الجلي أن الطفل يخلط بين الشيء الحقيقي وصورته . وهذا أمر نلاحظه أيضاً في الشخص البدائي ، وقد يظل ملازماً للكثيرين منا بدرجات متفاوتة . فكثير من الناس ما زالوا يعتقدون أن سقوط صورة شخص على الأرض بعقبه موت صاحبها . وقد يتخذ هذا الاعتقاد صورة الإيمان بأن سقوط أية صورة معلقة نذير بقرب موت رب الدار . ومن الخرافات الشائعة في شتى أنحاء المعمورة ذلك الاعتقاد بوجود نوع من القوى السحرية في تماثيل الشمع التي تصنع على هيئة من يراد القضاء عليهم أو إنزال الأذى بهم . وقد نسج (روزيني) قصة « الأخت هيلين » حول هذه الفكرة . وقد يوحى اعتياد الناس رد الصور إلى أصحابها عند فسخ الخطوبة بأنهم يعتقدون أن إهداء الصورة يقصد به أصلاً أن صاحبها قد وهب نفسه لرفيقه . وقد كان سكان حوض البحر الأبيض المتوسط قديماً يمتنون فكرة رسم الصور الشخصية ، ولم يختلف هذا البغض الغريب إلا تدريجاً وبيطء شديد فيما بعد . وقد حدث منذ عدة سنوات أن فتاة يونانية مثقفة تقيم في مصر رفضت التقاط صورة لها بحجة أنها تخشى أن تفقد تلك الصورة في يوم من الأيام ، فتقع في يد شخص يستطيع عندئذ أن يتخذ منها وسيلة للتسلط عليها . وهناك ديانات تحرم التصوير ، بينما تسرف ديانات

أخرى في تشجيع استخدامه . وكلا النوعين يبرر مذهبه في ذلك بأسباب أخرى لا تمت بصلة إلى مسألة الخلط بين الحقيقة والصورة . وربما كان نجاح بعض القصص من نوع قصة « الصورة المستديرة » (لإدجار ألان بو) ، وقصة « صورة دوريان جراي » (لأوسكار وايلد) ، راجعاً إلى أنها تثير في القارئ معتقدات راسخة في أعماق نفسه ، مما قد لا يؤمن به إيماناً شعورياً صريحاً .

وقد يبدو لأول وهلة أن فن الكبار يختلف تمام الاختلاف عن رسوم الأطفال ، فإن معظم الناس يهتمون بالتطابق بين الصورة والأصل بقدر المستطاع . فحكمهم على نجاح رسم شجرة مثلاً يتوقف على مقدار ما بين الرسم والشجرة الحقيقية من تشابه . ولكن أليس مثلهم في هذا مثل ذلك الولد الذي كان يريد دائماً أن تكون القطارات المرسومة شبيهة إلى أقصى حد بصورة القطار التي رسمها له أبوه ؟ أى أنهم لا يهتمون في الواقع بأن تكون الصور شبيهة بالأشياء الحقيقية بقدر اهتمامهم بأن تحيى شبيهة بما اعتادوه وأفقرؤيته ولعل آلة التصوير الشمسي قد استطاعت أن تظهر لنا العالم في صورة تختلف عن تلك التي كان يراه عليها أجدادنا ممن كانت تنقصهم هذه الأداة الآلية للتصوير . ولذلك فإن الفنان الذي يغفل المقاييس المألوفة بظل معرضاً نفسه للسخرية اللاذعة والنقد المرير حتى يستطيع أن يعلم جيله كيف ينظر إلى الأشياء بمنظار جديد .

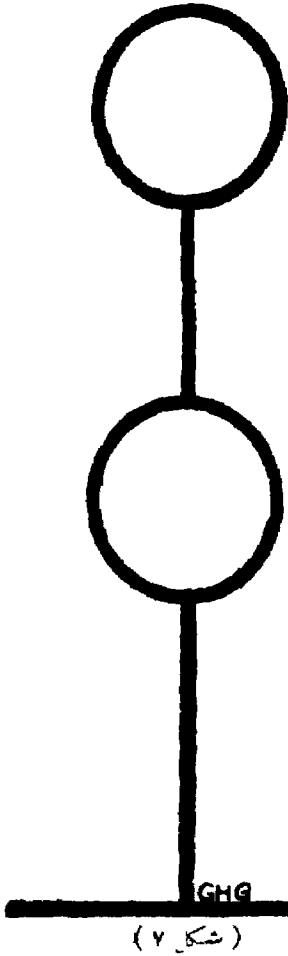
وليس في وسع آلة التصوير أن تختار من بين ما تسقط عليه عدستها أشياء ذات مدلول خاص ، أو أن تبالغ في إبراز نواح معينة تهمها . ولكن الفنان يستطيع ذلك ، فهو قادر على الاختيار والإسراف والترتيب ، ولكنه لا يكون مدفوعاً إلى ذلك بعامل التلقائية الساذجة التي يمتاز بها الطفل ، بل بدافع من الرغبة في مراعاة القواعد المألوفة . فتراه يقرب الأشياء البعيدة لتتضح وتبرز ، أو يزيد في إضاءة أجزاء معينة حتى تظهر في جلاء . كذلك يستطيع انتقاء موضوعات لوحاته ، وهو في كل ذلك يستخدم القواعد المتبعة ويستغل مهاراته المكتسبة ،

كى يصل إلى ما يحاول الطفل الوصول إليه على طريقته الخاصة .

ويبدو أن ميدان الاختيار محدود ، فإن الفنان المولع برسم صورة جدول رقراق متدفق ، ينساب بين المروج الخضراء التى تحتضن على البعد كنيسة تعلوها القباب البيضاء ، إنما يسترشد فى عمله الفنى بما للجدول والمروج والكنيسة من مدلولات خاصة فى نظره . فإن مرأى تلك الأشياء يثير فى نفسه شتى الأحاسيس والمشاعر . وقد لا يستطيع الفنان أن يقدم لنا تفسيراً مقنعاً للسبب الذى حدا به إلى نقل هذا الشعور إلى غيره ، ولكنه يستطيع أن يتخذ من فنه وسيلة إلى ذلك . فالفنان إذ يختار موضوع لوحاته ، ويسرف فى إبراز أجزاء معينة بتغيير أوضاع عناصرها ، أو بالاستعانة بالأضواء والظلال والألوان ، إنما يكون مدفوعاً إلى ذلك بدوافع داخلية عميقة ، وبمجموعة من الرغبات والاهتمامات يعبر عنها بالرسم . وهذا يعلل لنا اهتمام بعض الفنانين برسم الكنائس بوجه خاص ، واهتمام البعض الآخر منهم برسم الخراف أو الخيل أو ما شابه ذلك . غير أن الأمر فى جميع هذه الحالات واحد لا يتغير ، فإن تلك الأشياء على اختلافها تكون ذات أهمية خاصة فى نظر المصور . وقد نصادف فى بعض الأحيان تلميحاً إلى ذلك فى عنوان الصورة ، ومن ذلك مثلاً إطلاق اسم « سلطان الغاب » على رسم وعل ، أو « سيدة الأدغال » على صورة إحدى أشجار البتولا الفضية .

وكثيراً ما تعيننا استجابات المتفرجين على ربط الفن بأحلام اليقظة . فنحن نجد مثلاً أن الأقبال متزايد على الصور التى تمثل قصة معينة . والسبب فى ذلك أن مثل هذه الصور تساعد الناظر إليها على الاندماج فى شخصيات الأفراد الذين يظهرون فيها ، مثل اندماجهم فى شخصيات القصص . غير أن هناك كثيراً من الناس يلذ لهم أن يجمعوا أنواعاً أخرى من الصور مثل المناظر الطبيعية البرية والبحرية على وجه الخصوص . وكثيراً ما نسمعهم يعلقون عليها بقولهم : « إني أتخيل نفسى مرتقياً هذا الجبل ! » أو غير ذلك من العبارات التى لا تخرج عن هذا المعنى . فكأن الصور فى مثل هذه الحالات تهيب المشرح لحلم اليقظة .

وقد ذكر (لورنس بنيون) في كتابه «هرب التنين»^(١) أن التعليمات التي كان يتلقاها الرسام الصيني المبتدىء تتلخص في ألا يحاول النقل عن الطبيعة مباشرة ، وأن ينفق وقته في تأمل المناظر التي تهز أوتار نفسه ، فيكس صورها في مخيلته ، ثم يحاول بعد ذلك أن يستدعيها على الورق ، وكان يشجع على رسمها من زوايا تختلف عن الزوايا التي بدت له منها في الحقيقة . ولذلك كان من العسير أن يأتي الرسم مطابقاً لما رآه الفنان بعينه ، بل إنه يصبح تركيباً جديداً لصور ذات مدلول خاص ، وهو بهذا يكون شبيهاً بحلم اليقظة . ومن ذلك أيضاً أن (رسكن) ينصح الفنان الناشئ في كتابه «قوانين فيسولي»^(٢) بأن الأحلام لا الحقائق ، هي الجدير بتأمله .



ومما هو جدير بالعناية أن الطفل عند ما يهتم بعنصر معين من عناصر أحد الموضوعات فإنه يتجاهل كل ما عداه . وقد صادفتنا مرحلة شبيهة بهذه في رسم المنارة التي لم ير الولد فيها أكثر من ضوء ساطع قائم على قاعدة . وثمة ولد آخر رسم الشكل النقول هنا ، وفسره بأنه الشمس تلقى بضوئها على شجرة ، مما جعل الشجرة تنمو وتنبع . فالشجرة دائرة خضراء قائمة على خطر أسى بنى اللون . أما الشمس فقرص أصفر يوصله بالشجرة خط واحد أصفر ولما لم يكن الطفل مهتماً بأشعة الشمس التي تسقط على غير الشجرة من أشياء فإنه أغفل رسمها . فكان أنه برسمه هذه الشجرة البسيطة

(١) Laurence Binyon : " The Flight of the Dragon . "

(٢) Ruskin : " The Laws of Fiesoli " .

يريد أن يؤكد أن الأشياء تكبر عن طريق أشياء أخرى خارجة عنها . ويحتمل أن يكون ذلك كله مرتبطاً برغبة الطفل في المساعدة كي يصبح كبيراً .

وليس من السهل أن نرى في مثل هذه الصورة أكثر من مجرد شكل هندسى إلا بعد الخبرة الطويلة بمثل هذه الأساليب الغريبة في الرسم . والحقيقة أن الولد لا يختلف كثيراً في هذه الناحية عن البدائيين السذج في عصور التاريخ السحيقة ، فإن أولئك أيضاً كانوا يحاولون في رسومهم أن يبرزوا ما يحظى باهتمامهم عن طريق إغفال كثير من التفاصيل غير ذات الأهمية الكبيرة في نظرهم . وربما كان ذلك رغبة منهم في اقتصاد الوقت والجهد ، أو بغية توفير المواد الأولية .

وقد أوضح (هادون) من علماء الإنسانيات ، في كتاب « الفن البدائي »^(١) أن رسوم البدائيين التي تشبه في ظاهرها الأشكال الهندسية كانت تصور الإنسان والحيوان أكثر مما تصور النبات . كذلك نقل (السير جون كولير) في كتاب « التمهيد لدراسة الفن »^(٢) صورة لوحة مجموعة « بت — ريفرز » في متحف جامعة أكسفورد يظهر فيها كيفية التبسيط التدريجي في رسم الوجه الإنسانى على حافة مجداف ، إذ نلاحظ اختفاء التقاطيع واحدة تلو الأخرى ، حتى لا يبقى في النهاية سوى العينين .

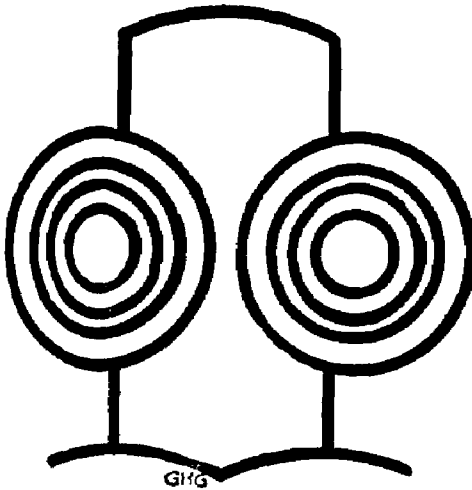
وقد يدعو ذلك إلى التساؤل عن السبب في شدة الاهتمام بالعيون بهذه الصورة . ولعل السبب في هذه الحالة التي أمامنا أن المجداف جزء من الزورق الذى لا يستطيع أن يتجنب مواطن الخطر إلا باليقظة والانتباه . وربما كان ذلك هو نفس السبب في نحت صور الطيور على مقدم الزوارق ، والإسراف في إبراز العيون بشكل يؤدي في النهاية إلى جعل رأس الطائر مجرد منقار وزوج من الأعين الكبيرة المحملقة . وكثيراً ما ينقش الملاحون في مصر ومالطة عيوناً كبيرة على الجزء الأمامى من مراكبهم بقصد حمايتها ، إذ يسود بينهم الاعتقاد

(1) Haddon : " Primitive Art " .

(2) Sir John Collier : " Primer of Art " .

بأن العيون المنقوشة تؤدي وظيفة العيون الحقيقية الحية فتستطيع أن تتبين الأخطار التي قد تتعرض لها السفائن فتجنبها .

ويندر أن يغفل الأطفال رسم العيون دون غيرها من معالم الوجه البشرى . وغالباً ما يجعلونها أكبر حجماً مما ينبغي . كذلك نراهم يعنون بإظهار زوج من الأعين في الرسم الجانبي للوجه بدلاً من عين واحدة . وتظهر هذه النزعة إلى المبالاة



(شكل ٨)

في حجم العيون في نقوش قبائل (الموارى) التي ترى صورة لإحداها في (شكل ٨) فالرأس لا تزيد على مجرد تجويف تظهر فيه العينان على شكل مجموعتين من الدوائر متحدة المركز ، وهي دوائر كبيرة لدرجة أنها تكاد تغطي نصف الوجه . وتظهر

العيون كذلك بشكل واضح في أقنعة الزوج التي يستخدمونها في أغراض السحر وحفلات الرقص غير أن الإسراف في الرسم قد ينصب على أعضاء أخرى من الجسم . فكثيراً ما نرى في نقوش قبائل (الموارى) أن نهود النساء ترسم على شكل دوائر كثيرة تتخذ من حلقة الثدي مركزاً لها ، وقد نرى مجموعة أخرى من الدوائر مركزها سرة البطن . ونلاحظ مثل هذه المبالغة في رسم العيون على الأواني الخزفية في بيرو .

وقد يرجع جانب من اهتمام الأطفال الإنجليز بالعيون إلى أنهم يدركون أن عيون أبيهم هي التي تكتشف أخطائهم ، فهي بذلك مصدر ما ينالهم من تأنيب أو عقاب . وقد حدث أن سيدة راشدة عللت فزعها من العناكب بأن العناكب تستطيع الرؤية في الظلام ، وهذا شبيه بتعليل الأطفال لمثل تلك المخاوف .

وقد حاولت السيدة ربط هذا الخوف بقصة سمعتها في الثالثة من عمرها أثناء إحدى الدروس الدينية التي كانت تتلقاها حينئذ . وملخص القصة أن رجلاً سجن في زنزانة ضيقة مظلمة رسمت على سقفها بالألوان المضيئة عين كبيرة ، فكان الرجل يشعر دائماً بأن جميع حركاته مراقبة . وقد قيل للطفلة وقتئذ أن تلك العين تشبه عين الله التي تبصر كل الحركات والسكنات آناً الليل وأطراف النهار ، فولد ذلك عندها خوفاً من الحيوانات عموماً ، ومن القطط والعناكب بوجه خاص . ومثل هذا الخوف يعبر بطبيعة الحال عن الرغبة في إتيان أمور يود المرء لو أنها خفيت على عين الإله . ومن ذلك أيضاً أن ولداً صغيراً توسل إلى أخيه . الذي كان يلعب في الشارع في أحد أيام الآحاد . أن يدخل الدار خوفاً عليه من أن يبصر به المسيح ويعاقبه على اللعب في الطريق العام . كذلك لوحظ أثناء إحدى التجارب التي أجريت على عدد من الأطفال بقصد معرفة اتجاههم إزاء الأجانب أن الكثيرين منهم عبروا فيما كتبوه عن كراهيتهم للصينيين بسبب عيونهم ، وقد اتضح من التفاصيل المختلفة التي وردت في كتابتهم أنهم كانوا يشعرون بأن عيون الصينيين مخيفة ، فهي دائماً نصف مقفلة ، ولكنها شديدة اليقظة ، كما لو كانت تحاول أن تحترق بنظراتها حجب أسرار الغير ، دون أن تنم عما يعتمل في أعماق صدور أصحابها . فكانت تبدو لهم دائماً معادية . ولعلها كانت تذكرم بتلك النظرات القاسية التي كانت تسدد إليهم عندما يرتاب أحد في صدق أقوالهم . وتعتبر مرحلة الصبا الآتية ومرحلة المراهقة ذات الخيال العاطفي من أشد مراحل النموغنى بالإنتاج الفني . ولعل ذلك يرجع إلى أن الفن تعبير شخصي يتطلب مجهوداً فردياً لا جمعياً . ومن الحقائق التي لاحظها (سير سيريل برت) أن القدرة الفنية عند الأطفال تأخذ في الاضمحلال كلما ازداد اهتمامهم بنواحي النشاط الجمعي . ومن المحتمل جداً أن فناني العصر (الباليوليتي) كانوا أفراداً متفرقين ، لا مدرسة متماسكة ، فإنه على الرغم من أن الجماعة وقتئذ كانت تهتم

بالصور ، وتستخدمها في إعداد التعاويذ السحرية التي تعين على النجاح في الصيد فإن تلك الصور لم تكن من إنتاج الجماعة نفسها . إن هذا الرأي ليس أكثر من حدس ، وإن كان تضاؤل الإنتاج الفني عند الأطفال بالصورة التي ذكرناها حقيقة لا تنسك . وقد سبق لنا أن لاحظنا ما يطرأ على أحلام اليقظة من تغير في هذه المرحلة ، إذ تصبح التمثيل أكثر ملاءمة من الرسم لتصوير أحلام اليقظة ، على الرغم من احتفاظ تلك الأحلام بما تثيره من اهتمام ، وبما تحفل به من صور ، وبما تتميز به من وحدة وتماسك . وكل ذلك لم يخرج بعد عن كونه دليلاً طيباً يتطلب لتأييده بحثاً متواصلاً ودراسة شاملة مستفيضة .

إننا لم نكتب هذا الفصل اعتقاداً منا بأن دراسة أحلام اليقظة سوف « تفسر » لنا الفن ، بل كتبناه ونحن ندرك تماماً غير ذلك ، لأن مهمة « تفسير » الفن تخرج عن دائرة علم النفس . أن عالم النفس يقبل « الخبرة الجمالية » على أنها جزء من مادة بحثه يخضعها للدراسة بطرقه العلمية ، فيحللها قدر استطاعته ، ويحاول أن يكشف عن مدى ارتباط بعض عناصرها ببعض ، وببعض سائر الخبرات الأخرى .

ويتجلى كثير من خصائص العمل الفني في حلم اليقظة فإن تأمله يفضي إلى نوع من « الخبرة الجمالية » ، حتى ولو لم يكن النوع السامى . فالغلام الذي يقرأ قصة شبيهة بحلم اليقظة يمر « بخبرة جمالية » تختلف عن تلك التي يمر بها الراشد أثناء استغراقه في الاستمتاع بعمل فني يستطيع تذوقه وتقديره . وربما كان الفارق بين الخبرتين فارقاً في الدرجة لا في النوع .

وقد رددنا كثيراً من قبل أن أحلام اليقظة يتم تركيبها لا شعورياً ، وإن كان هذا لا يمنع أن ينالها التعديل والتنسيق بشكل شعورى . ومن المحتمل جداً أن الإنتاج الفني ، في دائرة الأدب والنقش على الأقل ، يتم تنسيقه على أساس من أحلام اليقظة . كذلك يحتمل أن يكون ما نستمتع به من خبرة جمالية

راجعاً إلى أن ذلك الإنتاج الفني قد انطبق على أحلام يقظتنا — وإن كان يسمو عليها في بعض الأحيان — بحيث يندمج إحداهما في الآخر ويتحدان ، كما تنساب مياه الجداول إلى البحر وتتلاشى فيه .

وهل هذا ربطنا « الخبرة الجمالية » بأحلام اليقظة ، ثم بالنزعات الغريزية في الطبيعة البشرية ، فالقينا على تلك الخبرة من الضوء أقل مما نلقيه على هذه النزعات . ويتضح ذلك بوجه خاص عندما نؤكد احتمال استخدام — أو بعبارة أصح « إطلاق » — ذلك النوع من النشاط الذي ينظر إليه الكثيرون على أنه ، في أحسن صوره ، مصدر للتسلية ، وفي أسوأ صوره عديم الجدوى قليل النفع . وقد يكون التسامي بأبصارنا إلى أعلام الفنانين في علباء سماواتهم التي قد تبدو لنا عسيرة المنال ، مصدر إلهام لنا أو سبباً لسريان البرودة في أوصالنا في بعض الأحيان ، غير أن إيماننا بالطفولة والتربية من شأنه إن يشجعنا على الوصول إلى تلك المراتب السامية ، وبالرغم من إدراكنا لطول الطريق وبعد الشقة فإن أقدام الأطفال الصغيرة اللينة قد وطئت بالفعل بداية هذا الطريق الطويل ، ولعلها واصله بالكثيرين منهم يوماً ما إلى أبعد من تلك الحدود التي لا نسمح لهم بتجاوزها في الوقت الحاضر .

الفصل العاشر

حلم اليقظة ودين الطفل

لا بد لنا في معرض الكلام عن علاقة حلم اليقظة بالدين أن نؤكد بعض ما قلناه في الفصل السابق عن علاقة حلم اليقظة بالفن . إن البحث في ماهية الدين وحقيقة الظواهر الدينية من الأمور التي لا تدخل في نطاق علم النفس ، فإن كل ما تفعله سيكولوجية الدين هو أن تأخذ « الخبرة الدينية » على أنها جزء من مادة دراستها ، فتتناولها بالبحث شأنها في هذا شأن سائر الخبرات الأخرى وتطبق عليها نفس طرق البحث التي تعالج بها تلك الخبرات جميعاً . ولذلك يبدو للكثيرين من القراء أن هذا الفصل لا يبحث إطلاقاً في الدين .

وليس من السهل أن نقرر ما إذا كان الأطفال يستطيعون تكوين أفكار يمكن أن تعتبر دينية بغير الاتصال بالعالم الخارجي ، لأن الأطفال جميعاً ، سواء في العالم الإسلامي أو العالم المسيحي ، يقعون تحت تأثيرات مختلفة منذ وقت مبكر من حياتهم ، إذ يحدّثهم ذووهم ومعارفهم عن الله بطرق بسيطة متنوعة ، كما أنهم يلقنونهم المبادئ الأولية للعبادات التي يتقربون بها إلى خالقهم . وليس من العسير أن يصدق الأطفال كل ما يقال لهم بسهولة . ويحتمل أن يكون ذلك راجعاً إلى أنهم قد كوّنوا عن أبيهم معتقدات شبيهة بهذه المعتقدات الدينية ، ولذلك كثيراً ما يسرع الطفل إلى الإيمان بأن الله كبير ، ولكنه ليس أكبر من أبيه ، حتى ولو أكد الأب لطفه أن الله أكبر . فالوالدان في نظر الطفل ، قادران على القيام بكل عمل مهما جلّ ، والإحاطة بكل شيء علماً ، والتواجد في كل مكان ، كما أنهما معصومان في نظره من الخطأ . والطفل قاصر عن التفكير في عدم قدرة أبيه

عن تنفيذ مطلب من مطالبه . فهما يمدانه بالغذاء ، ويقدمان له ما يشتهي ، أو يصنعان له ما يريد . وقد يحدث ذلك بشكل يكتشفه الفموض والإيهام في بعض الأحيان ، حتى لقد يبدو له أنهما يملكان من المال كنزاً لا ينضب له معين . ولكن يأتي على الطفل وقت يدرك فيه أنه قد خدع نفسه ، فيرى في أبيه شخصاً عادياً قد لا يفوق غيره في العلم إلا قليلاً ، بل إنه قد يكون دون بعض الناس في هذه الناحية . وهكذا يقضى به اتساع دائرة خبرته ، واطراد نموه وما يصحب ذلك من ازدياد في مطالبه وحاجاته إلى الكشف له عن خطأ معتقداته الأولى عن أبيه ، وضرورة تصحيح هذا الخطأ .

وكل ذلك على أكبر جانب من الأهمية بالنسبة للطفل الذي ما كان يعتمد في أمنه على أبيه وحدهما ، فأصبح يرى أن قدراتهما ليست شاملة بالقدر الذي كان قد توهمه في بادئ الأمر . وعندئذ يحس ضرورة وضعهما تحت الاختبار لمعرفة حدود قدرتهما حتى يستطيع تحديد مدى ثقته بهما واعتماده عليهما . وقد أشار الأستاذ بوفيه وغيره من علماء النفس إلى أن فضول الأطفال العجيب الذي يتكشف في هذا السيل المتدفق من الأسئلة التي يوجهونها إلى أبيهم ليس مرجعه في كثير من الأحيان إلى رغبة جدية في معرفة أمور يجهلون ، بل إلى محاولة الكشف عن مدى معرفة الأبوين لهذه الأمور . وهذا هو ما يفعله كثير من الراشدين مع الأشخاص الذين يريدون وضع ثقتهم فيهم . فإذا ما اتضح لهم قصورهم في ناحية من النواحي فإنهم عندئذ يعنون بالتدقيق في اختبارهم ، وهذا يؤدي إلى الغلو في أهمية مئآت التفاصيل التي لم تكن تسترعى الانتباه من قبل . فإن اكتشاف نقطة ضعف واحدة في شيء كنا نؤمن بصحته من قبل يثير فينا الريبة والشكوك ، وهكذا يكون ظهور نقطة الضعف هذه سبباً في استقصاء كثير غيرها .

وليس من السهل على الأطفال أن يخلفوا وراء ظهورهم إيمانهم بما لا بائهم

من قوى هائلة . فإذا أخبرهم أحد والديهم بأنه يجهل الموضوع الذى يسألونه عنه فإن ذلك يثير فى نفوسهم الشك فى أنه إنما يتعمد الكتمان ، ويستولى عليهم الاعتقاد بأنهم لابد واصلون إلى ماخفى أمره عليهم بموالاته الاستفسار والإلحاح فى السؤال . فالطفل قد يسأل أباه أن يشتري له لعبة أبصرها فى نافذة أحد المتاجر ، فإذا رفض الأب شراءها بحجة ارتفاع ثمنها فإن ذلك لن يزيد الطفل إلا إصراراً على الحصول عليها ، لأنه غالباً ما يشعر أن أبويه يستطيعان إنفاق المال فى يسر وسهولة ، ولكنهما لا يرغبان ذلك لسبب لا يدركه ، ولذلك نراه يقابل امتناع أبيه بالاستياء الذى لا يلبث أن يتحول إلى لين أملأ فى إذعان أبيه لرغبته . ومن أمثلة ذلك أن طفلة فى الرابعة من عمرها اعتادت أن تطلب إلى أبيها ، أو أخيها ، أو عمها الذى كان يسرف فى تدليلها ، أن يشتري لها لعبة غالية الثمن ، وعندما يخبرها أحدهم أنه لا يستطيع ذلك فإنها كانت تعبر عن ارتياحها فى صدقه بقولها : « إنك لملك مالا كثيراً » ، ثم تتألق الدموع فى مقلتيها لبضع دقائق . ولكنها بمجرد ابتعادها عن المتجر الذى تباع فيه اللعب يعاودها هدوءها ومرحها ، فتستأنف ثروتها كما لو أن شيئاً لم يحدث على الإطلاق .

وقد كان سلوكها حيال اللعب يشير بجلاء إلى أنها لم تكن جادة فى رغبتها للحصول عليها ، فإنها لم تكن تلعب بها إلا نادراً ، وإنما كانت تحفظها فى دولابها حتى إذا ما أنبها أحد على خطأ ارتكبته ، أخرجت لعبها من الدولاب ، وأخذت تتحدث عنها إلى نفسها أو إلى رفيقة خيالية . فكان أنها كانت تتخذ من لعبها غزاء لها عما نالها من إذلال . وهذا يذكرنا بقصة (تريمالكيو) أثناء ولیمته الشهيرة عندما استدعى رئيس خدمه وأمره أن يقرأ على أسماع ضيوفه قائمة بممتلكاته بغية تذكيرهم بأهمية مضيفهم .

وكما يختبر الأطفال مدى علم أبويهم ، فإنهم أيضاً — هل ما يبدو — يحاولون اختبار مدى خدمتهم على منعمهم كل ما يريدون . وما يظهر عليهم من استياء

عند رفض إجابة مطالبهم ليس مجرد شعور عدائى نحوهما بسبب هذا الرفض فحسب ، بل إنه كذلك من نوع الشعور الذى يصحب تبدد وهم من الأوهام ، فقد اتضح لهم أن الأب الذى كانوا يرون فيه رمزاً للعلم والمعرفة ليس إلا شخصاً محدود العلم ، عرضة للخطأ ، شأن باقى الناس . كما ظهر لهم أن الأب الذى يظنونه قادراً على منحهم كل شئ . قد أصبح لا يجود عليهم إلا بالقليل الذى يملكه ، بينما يملك سواء من الناس سائر الأشياء التى يريدونها ، والتى لا يملك هو من المال ما يكفى لشراؤها .

فاعتقاد الطفل أن لأبويه تلك الصفات الممتازة هو الذى جعله يتوهم الأمن فى وجوده بينهم ، فلهما قدرة شاملة ، ومعرفة واسعة ، وسخاء بالغ ، وهما معصومان من الوقوع فى الخطأ ، يحبان طفلهما حباً جمّاً . ولا يستخدمان كل هذه المزايا إلا فيما يعود عليه بالخير والنفع ، وهما بذلك مصدر الأمن الكامل له . ولكن بمجرد اختفاء هذه الصفات ، وإدرات الطفل ذلك ، يتبدد ذلك الأمن هباءً . ويرى أن ما يدفع الأبوين إلى بذل ما يستطيعان فى سبيله ليس إلا الحب والطفل لا يقنع بالحب وحده .

على أنه قد يصبح هذا الحب بدوره أيضاً من الأمور المشكوك فيها ، إذ بمجرد مولد طفل آخر يرى الطفل الأول أن ما كان يعتقد أنه من حقه وحده قد أسبغ على الوليد الجديد . ولذلك لا يدهشنا أن يتولد عنده شعور بالخوف والقلق بسبب شعوره أنه بات تحت رحمة قوم أشد منه قوة — وإن لم تكن قوتهم شاملة — وأنه أصبح غير محبوب منهم . وهنا يصبح كل ما ينشده هو استعادة ذلك الحب الذى فقده من غير سبب ظاهر يدعو إلى فقده إياه ، أو انتقاله إلى غيره . ويزداد الأمر تعقيداً بإخفاقه فى استعادة حب أبويه عن طريق ذلك السلوك المضطرب المعقد الذى يمتزج فيه العداء بالاستياء والغيرة بالضعف ، ويلاحظ الأبوان أن ولدهما قد انقلب مشاكساً صعب المراس ، فتأخذها الحيرة

لهذا التغير المفاجيء الذى اعتراه .

والصفات التى كان الطفل يعتقد فى طفولته المبكرة بوجودها فى والديه هى نفس الصفات التى تنسبها معظم الديانات إلى الكائن الأعلى ، إذ نلاحظ فى بعض الأديان تأكيد وجود نفس الطيبة والمعرفة والحكمة والسلطان ، ولكن ذلك يكون بصورة أكثر تحديداً ، فقد يكون أحد الآلهة ذا سلطان واسع فى حدود مملكته الخاصة ، واسكنه لا حول له ولا قوة فيما وراء ذلك . والطفل لا يجد صعوبة فى الإيمان بوجود كائن يملك قدرة شاملة ، ومعرفة واسعة ، وحكمة عظيمة ، ويستطيع أن يسرف فى البذل والحب . فإن تلك الصفات جميعاً صفات كان يؤمن بوجودها فى أبويه من قبل .

ولا تثير الأدعية والصلوات البسيطة أية مشكلة فى نظر الطفل فى هذه السن المبكرة ، بل إنه بمجرد تصديقه لأقوال أبويه عن وجود الله وعظمته وقدرته على منحه كل ما يطلبه منه يأخذ فى التحدث إلى هذا الإله أكثر مما يتحدث إلى رفقاء خياله .

وتشارك الأديان جميعاً فى فكرة وجود قوى عظيمة تفوق حدود الطاقات البشرية ، تكمن خارج الإنسان ، ويمكن الاستعانة بها فيما يجلب إليه النفع أو الضرر على السواء . وقد يفكر الناس فى تلك القوى كما لو كانت متجسمة فى كائن واحد ، أو عدد من الكائنات المستقلة بعضها عن بعض . كما أنهم قد يصنعون لها النماذج والصور ، أو يطلقون عليها الأسماء ، ويسيرون لها الشعائر والطقوس التى قد يلبسون فيها أردية خاصة يعتقدون أنها تجعلهم شبيهين بها . وكثيراً ما يكون من أصعب الأمور على الباحث أن يحدد عقيدة الفرد على وجه التحقيق بسبب الخلط الشديد بين الحقيقة وبين الصور والأسماء مما يجعله يتساءل : هل العبود الحقيقى هو الوثن أو شيء آخر يمثله ؟ وهل للإله قدرات معينة تظهر عند ذكر اسمه ، أم أن تلك القدرات تكمن فى الاسم ذاته ؟ إننا نجد تناقضاً كبيراً

بين مختلف آراء الأفراد في هذه النقطة وسواها مما يجعل القطع برأى حاسم فيها محوطاً بالشك والغموض . وقد يكون من الهين أن نعرف من الزعماء الرسميين لإحدى الجماعات نوع الدين الذي يعتنقه أفراد تلك الجماعة . بيد أننا لو سألنا أولئك الأفراد متفرقين لجاءت إجاباتهم مختلفة كثيراً عن هذا المقياس الرسمي .

وأياً كانت الصورة التي تتخذها « القوة » ، أو الصورة التي يعتقد أنها تكن فيها ، فإن تلك القوة مظاهر عديدة ، منها ما يعود بالخير واليمن والبركات ، ومنها ما يفضي إلى الشر والأذى . فالطفل الصغير يعلم أن أباه يقدر على إيذائه لأنه قوى ، كما يعلم أن في مقدوره مديد المعونة إليه لنفس السبب . كذلك يتعلم بالتدريج أن بعض فعالة تسر أباه وتجمله يتحفه بالعطايا والهبات ، بينما يستثير البعض الآخر غضبه ويستوجب عقابه وحرمانه . وكثيراً ما تكون الفكرة التي يضطر الطفل إلى تكوينها عن « الطيب » و « الخبيث » مختلفة عن تلك التي تتوقف على ميله و بغضه ورغبته في الإشباع النفسى . ولذلك يصبح من السهل عليه أن يضم إلى إيمانه بالله اعتقاداً بوجود طائفة من الأعمال هي عند الله طيبة مرضية فيثبت عليها ، وأخرى رديئة مستهجنة تستوجب المؤاخذة والعقاب .

فليس من الغريب إذن أن ينمو في عقل الطفل مذهب دينى منمق عن طريق ما يصله من معلومات خارجية ، ومحاولاته المختلفة لتفسير تلك المعلومات على أساس خبرته حيال أبويه ، فينمو عنده اتجاه معين إزاء كائن خفى قوى لا يستطيع أن يدركه إدراكاً مباشراً بحواسه ، ولكنه يستطيع الاتصال به بسلوكه وأعماله .

فكأن خبرة الطفل قد دلته على أن مساعدة الأب له وعناية الأم به تتوقفان على شروط معينة . فإذا قال : « أرجو أن تحملينى فإنى متعب » فإنه يكون قد اتخذ من ضعفه ذريعة لالتماس المساعدة . كذلك إذا أراد الاعتذار عن أمر أغضب والديه فإنه يقول : « لم يكن فى وسمى أن آتجنب ما فعلت » ، أو :

« لم أكن أعلم أنك لا ترضيان عما فعلت » ، فهو يعلم أن ضعفه وجهله وتصور إدراكه كلها أمور ذات تأثير خاص في والديه . ويعلم كذلك أن ما يخصه به من العناية مقصور عليه وحده دون غيره من الأطفال الذين لا يحتلون نفس المركز الذى يشغله بالنسبة إليهما . فهو يفهم « الحب » على هذه الصورة البدائية ، وإن لم يستطع تعريفه .

قالت طفلة لأما ذات مرة : « إنك تحبينى . أليس كذلك ؟ » ، وعند ما أكملت لها أمها حبها إياها استطردت الطفلة قائلة : « إذن ستشترين لى دمية كبيرة » . قد تكون هذه الصورة في ظاهرها طريقة مادية ساذجة للتعبير عما تريده الطفلة ، ولكن يحتمل أن تكون الفكرة الكامنة وراءها أكثر عمقاً وأقل بساطة ، فإن حب الأبوين يظهر للطفلة فى صورة إعطائها مختلف الأشياء ، ومساعدتها والحذب عليها . فإذا ما أرادت أن تنسب صدور مثل هذا الحب لله فإنها تستطيع أن تفكر فيه على أنه إله رحيم رؤوف . ولو قيل لها إن كل ما فى الوجود من أشياء ، وكل ما تحمله الأشجار من فواكه وثمار وأزهار ، وكذلك الرمال والبحار ، والطعام الذى تأكله واللبن الذى تشربه ، وحتى أبويها نفسهما ، كل ذلك جميعاً من هبات الله ، فإنها يمكنها عندئذ أن تجد فى كل هذا سبباً لحبها إياه وإيمانها به .

ولو أننا وعينا هذه النقطة حقاً لاستطعنا أن نفهم سبب تأكيد كثير من أهل الدين أهمية الأسرة الطيبة فى نمو الطفل ، فإن هؤلاء يرون أن اتجاهات الطفل التى يحتمل أن تتطور فيما بعد إلى اتجاهات دينية لا يمكن أن تنمو إلا فى محيط مثل هذه الأسرة . فالعلاقة التى تقوم بين الطفل وأبوين مؤمنين تقيين ، وبينه وبين إخوته وأخواته هى التى تعينه على الوصول إلى المرحلة التى يستطيع فيها فهم العلاقة التى تؤكد الأديان قيامها بين الناس والكائن الأعلى . وهذا يحدث عند ما تتجاوز العلاقة دائرة الأسرة إلى كائن مقدس يشبه الأبوين الصالحين

من حيث الرحمة والشفقة . وهكذا يصبح في وسع الطفل أن يفكر في إله يمنحه الهبات والعون والأمن بسبب ما يمكنه له من عطف ومحبة .

غير أننا نستطيع في بعض الأحيان أن نلاحظ نمو اتجاه آخر له دلالاته ومغزاه . فإذا كانت « الطيبة » التي يصر الأبوان على أن يتحلى الطفل بها من نوع الاستجابة لرغباتهما والخضوع لمشيئتهما ، فإن الطفل عندئذ يعتقد بأنهما ملزمان بإثابته على ذلك . فالطفل الذي يقول : « لقد كنت طيباً اليوم ، فهل لى إذن أن أفعل هذا أو ذاك من الأشياء ؟ » ، أو الذي يطلب شيئاً جزاءً له على حسن سلوكه ، إنما يحاول في الحقيقة أن يقسر أباه على إجابته إلى ما يريد . ومثل هذا السلوك الذى يختلف كثيراً عن الدين يشبه الإيمان بالسحر ، وإمكان استغلاله في قضاء المصالح والأغراض بواسطة أشخاص لم دراية بالأساليب التى يستطيعون بها إجبار تلك القوى الخارجية على ذلك . فعند ما يقوم طبيب القبيلة أو ساحرها بتمثيل العاصفة ، أو عند ما يشرف على قيام رجال القبيلة بتمثيل قصة الصيد وموت الفريسة ، فإن الناس يعتقدون أن الكائن العظيم الذى هو مصدر كل شئ لابد مرسل إليهم المطر المذلل ، أو ما يكفي حاجتهم من الحيوان والطيور . فإذا لم تمطر السماء ، أو إذا قل الصيد ، فإنهم يبتدعون لذلك أسباباً مختلفة ، كالادعاء بأن واحداً من أفراد القبيلة قد أثار غضب القوة العظيمة ساعة إقامة الطقوس ، فلم تستجب لرغائبهم ، أو أن خطأ ما لا بد قد وقع فى إقامة الشعائر . وما أسهل تأييد مثل تلك الشكوك والترهات !

وبالمثل يمكن أن نشتم رائحة مثل هذا السحر فى محاولة الطفل قسر والديه على تلبية رغباته مما يجعل من المتعذر وضع حد فاصل بين السحر والدين فى هذه المرحلة . فالطفل الذى يقول : « إنى متعب ، فأرجو أن تحملىنى » قد يكون مدفوعاً إلى ذلك القول باعتقاده أن ضعفه يلزم أمه بإجابة مطلبه ، وأنه بتعبيره عن ضعفه وقلة حيلته يضطرها إلى النزول على إرادته ، فإذا خضعت الأم بالفعل لمشيئة

طلقها فإنه عندئذ يستخدم عبارة «إني متعب» كما يستخدم البدائي رقاه وأدعيته .
وإذا كانت فكرة القسر بعيدة عن ذهن الطفل فإن العبارة تصبح أقرب شبهة
بالصلاة ، إذ يتوقع الطفل أن تفضى صلاته ودعواته إلى تنفيذ مطالبه ، فإذا لم يتم له
ما أراد فلن يعنى ذلك أنه قد فقد الحب ، بل يعنى أن القدرة السماوية قد أرادت
أن الخير في ألا يحجب الطفل إلى ما أراد . وما دامت علاقة الطفل بأبويه قائمة
على هذا الأساس ، أى أن إيمانه لن يتزعزع في حبهما له ، على الرغم مما قد يعترضه
من شكوك أحياناً ، فإن رفضها إجابته إلى رغباته لن يسبب له قلقاً جدياً .

وإذا أمكن إعداد الطفل عن طريق خبراته المبكرة في محيط أسرته لأن
يؤمن بوجود قوة أعظم من قوته ، يستمتع بها أشخاص يستطيع أن يتحدث
إليهم ويطلب مساعدتهم وحمايتهم ، أشخاص يستحسنون فعالاً معينة ويستهنون
أخرى ، وهم على أهبة الاستعداد للثواب والعقاب ، وقد منحوه من قبل هبات
كثيرة تحتمل المضاعفة ، إذا أمكن إعداد الطفل مثل هذا الإعداد فإننا لن
نكون مبالغين إذا قلنا أن نمو الدينى يكون قد بدأ فعلاً ، لأنه يكون قد تمكن
من فهم طبيعة العبادة والصلاة بدرجة تلائم سنه ، واستطاع أن يدرك وجود نوع
من « الخير » الذى لا يشترط أن يكون مرتبطاً بتحقيق إحدى رغباته . وتقضى
الحكمة بأن نقتنع بهذا القدر من النمو في هذه المرحلة ، فلا نحاول أن نكيف
نمو الطفل بصب أفكاره في قوالب مذهبية معقدة .

ما علاقة ذلك كله بأحلام اليقظة ؟ قد رأينا من قبل أن أحلام اليقظة عند
الطفل الصغير تعبر عن رغباته في استعادة ما قد فقدته بتقديمه في السن ، إذ يكون
قد بدأ يحس ظهور أخطار في عالمه الساذج الصغير الذى كان يعتقد أنه خلومنها ،
وأخذ يخشى أن يفقد حب أبويه له ، كما أصبح يدرك أن والديه ليسا على تلك
الدرجة من الكمال الذى كان يتوهمه . وأحلام يقظته إنما تعبر عن الرغبة في
استعادة كل ذلك ، أو أنها ، في لغة الشعر ، تعبير عن الرغبة في استعادة فردوسه

المفقود ، و بلفة علم الحياة تصوير لاشتهاء ما يستمتع به وهو في رحم أمه من أمن وراحة وإشباع . وعلى هذا نرى أن كلا من حلم اليقظة والدين يعبر عن الرغبة في حالة كمال لانتاح للفرد السوى في حياته العادية . وحلم اليقظة يسعى إلى تحقيق هذه الرغبة بالعودة إلى الماضي ، بينما يسعى الدين إلى نفس الغاية بالنظر إلى المستقبل وقد أشرنا أيضاً إلى نوع آخر من أحلام اليقظة يحدث في مرحلة متأخرة من مراحل النمو ، وهو الحلم الذي يرى الحالم نفسه فيه على صورة بطل . وإنا لنجد في مختلف الديانات ما يشبه ذلك فإن لكل منها أبطالها من أنبياء وقديسين وشهداء ومبشرين ومعلمين . وكلهم أناس كان بنو قومهم يزدرونهم ويمتنعون قدرهم ، إلى أن استطاعوا بجلائل أعمالهم أن يقتزعو منهم التقدير والإعجاب .

ومن السهل إثارة اهتمام الأطفال بأعمال أولئك الأبطال ، إذ تراهم يستمعون أو يقرءون بشغف وإعجاب قصص يوسف ونوح وداود وغيرهم من الأنبياء . وهى قصص تشبه إلى حد كبير مغامرات الأبطال الذين يتراءون لهم في أحلام يقظتهم فالأطفال يعجبون بالأبطال أنفسهم ويميلون إلى محاكاتهم ، كما يسهل عليهم الاندماج في شخصياتهم فيتخيلون أنفسهم في صورة أحد أولئك الأبطال الذين خلد التاريخ ذكرهم . ولكن في هذا كله صور جديدة لأحلام اليقظة ، ولذلك لن نجد فيها عنصراً دينياً . إذ طالما كان البطل يقاتل ويحارب في سبيل المغامرة والإعجاب وحدهما فإنه لا شك يكون بطلاً أنانياً ، لا بطلاً دينياً . ولن تتخذ البطولة صبغتها الدينية حتى يكون صراع البطل في سبيل نصره فكرة سامية . فليس من المهم من الناحية الدينية أن يقوم البطل بخارق الأعمال ، وإنما المهم أن ينصب نفسه خادماً لتلك القوة التي تتجاوز الحدود البشرية ، ومنفذاً لإرادتها . ولا شك أن من العسير على الطفل أن يفهم قيام صراع في نفس البطل ضد شيء داخلي يحول دون وصوله إلى الكمال الذى ينشده الرجل التقى الورع ، أو أن يقبل فكرة استخدام البطل درعاً من التقوى وسيفاً من الصلاح والإيمان . ولذلك لا ينبغي

لنا أن نتوقع من طفل في العاشرة من عمره أن يدرك بسهولة أن انتصار البطل في كفاحه ، وما استقبال به من هتاف وإكبار ، ليست جميعاً سوى أمور رمزية لا تفسر بمعناها الحرفي . إننا جميعاً نسعى وراء ألوان شتى من الإشباع المادى ، ولعلنا لا نختلف في ذلك كثيراً عن طفل العاشرة . فليس من المعقول إذن أن ننتظر من مثل هذا الطفل أن يدرك أن بعض أنواع الإشباع ليست إلا مجرد ظلال للحقيقة . غير أن من الممكن أن نتخذ من تقدير الصغار الساذج للبطولة خطوة أولى تنتقل بهم منها إلى تقدير البطولة في أسى معانيها . فإن هذا الانتقال يكون مستطاعاً إذا ما استخدمنا الحكمة في استغلال مراحل النمو الأولى لهذا الغرض ، فلا تتطلب من الصغار أن يقفروا دفعة واحدة من مستوى آمالهم الطفلية الساذجة إلى مستوى الزعماء الدينيين ، بل ينبغي أن يكون ارتقاء هذا الطريق ارتقاء تدريجياً . فالحنين الذى يحس به طفل في الثالثة نحو طفولته المفقودة ، ثم الرغبة في القيام بالأعمال النبيلة التى تتيح الحصول على إعجاب الآخرين ، والميل إلى التضحية بالكثير في سبيل الغير ، كل أولئك يشير إلى رغبات تنبع في النفس في مراحل مختلفة من النمو . والتربية هى توجيه نمو الطفل نحو غايات سامية . فينبغى أن تهدف التربية الدينية إلى توجيه آمال الطفل وأمانيه توجيهاً رشيداً يقصد منه الوصول به إلى أسى مراتب النمو الدينى الذى يستطيعه .

وقد لا يتم النمو الدينى دائماً في يسر وهواة . فقد يتهل الصغار إلى ربهم أن يبعث إليهم ببعض الدى ، أو يهيبهم مكاناً يضعونها فيه ، أو يعينهم على ابتكار وسائل للعب بها عند وصولها إلى أيديهم . وقد يقدمون له صلواتهم كي يرزقهم أخاً أو أختاً ، وكثيراً ما ينتابهم الضجر إذا مر الوقت دون أن تتحقق آمالهم . وهم يستمسكون بالمعنى الحرفى للدعاء ، فيلجأون إلى الله طمعاً في تغيير الجو العاصف حتى يستطيعوا قضاء يوم ممتع على ساحل البحر أو في أحضان الريف . وهم لا يدركون أن توقف المطر عن الهطول قد يفضى إلى كارثة في المناطق الزراعية .

ومن أمثلة ذلك أن طفلاً في حوالى الرابعة من عمره أخذ وعداً من أمه بأنها ستصحبه معها في زيارة لعمته التى يحبها إذا ما كان الطقس جميلاً ، فكان يبتهل إلى الله أن يأتى يوم الرحلة مشرقاً صافياً . وعندما حل يوم الزيارة كان المطر يهطل بغزارة ، ولكن الولد أصر على أن يرتدى هو وأمه ثياب الخروج . وقد توقف المطر عن السقوط عندما اقترب موعد قيام القطار مما أتاح لهما فرصة الذهاب إلى المحطة حيث استقلا القطار . وعندئذ عاود المطر السقوط طيلة الرحلة ، بيد أنه توقف قبل وصولهما إلى الجهة التى يقصدانها بلحظات معدودات . وظل الجو صافياً بقية اليوم . كل هذه المصادفات المتلاحقة تركت فى نفس الطفل أثراً عميقاً ، فكان يسرف فى الحديث عنها . وقد أبدى أبواه وأصدقائهما إيمان الطفل بأن كل ما حدث كان نتيجة لصلواته . ولذلك يحتمل جداً أن تكون مثل هذه الخبرة الوحيدة قد أفضت إلى شعوره بأنه موضع غناية الله ورعايته وأنه قد تقبل صلواته واستجاب لدعائه . كما يحتمل أن تكون قد أدت إلى شعوره بأنه يستطيع أن يؤثر فى مجرى الحوادث بدعائه وابتهاله ، وإلى الاعتقاد بأن تلك العناية الإلهية ترجع إلى فضيلة فى نفسه . وهذا النوع من الفرور من الأمور التى تلاحظ كثيراً عند الكبار . فقد حدث بعد مرور بضع سنوات من الحادثة التى أشرنا إليها أن دعا ذلك الولد ربه يوماً أن يعينه على النجاح فى امتحان كان قد تولى وإهمل الاستعداد له ، ولكنه رتب رسوباً شنيعاً . ومن السهل أن نقبأ بأثر ذلك فى نفسه ، فإن رسوبه زعزع إيمانه بشكل عنيف لدرجة أنه عبر عن ذلك بقوله : « لقد صليت من أجل النجاح ولكنى فشلت . فلن أصلى قط بعد اليوم » .

وهذا من نوع الاستياء الذى نلاحظه على الطفل عندما تضع أمه وليداً ، إذ يتحول حب الأبوين إلى القامد الجديد . فهو إذن رد فعل طفلى يشير — من الناحية الدينية — إلى أن ذلك التلميذ الذى تقدم للامتحان لم يكن قد تجاوز فى نموه طور الطفل الذى كان يصلى من أجل تحسن حالة الطقس ، فإن معالجة

الأبوين للحادث المبكر الذى ذكرناه لم تفض إلى أى تقدم فى نموه ، بل إنها « ثبتت » هذا النمو عند مرحلة طفلية . ولا شك أن الأبوين لو عالجوا الموقف بحكمة وبعد نظر لكان من الممكن أن يحصلوا على نتيجة أفضل .

ومما يجدر بالذكر أن كثيراً من أساليب التفكير البدائية فى الله تسير على عكس الطريقة التى يفكر بها الطفل فى أبيه . فالأب والأم لا يملكان الصفات التى أشرنا إليها فحسب ، ولكنهما أيضاً قادران — فى نظر الطفل — على أن يفعلوا كل ما يريدان . فهما قد يصران على أن يتناول طفلهما عشاء خفيفاً وأن يذهب إلى فراشه مبكراً ، ولكنهما غير مقيدين بمثل هذه القواعد . فلهما « كامل الحرية » لأنهما لا يدينان لأحد بالطاعة وليس لأحد سلطان عليهما بل يعملان وفق مشيئتهما . ولذلك لا يستطيع الطفل أن يصدق عجز أمه عن إتيان أمر من الأمور لأنه يؤمن إيماناً راسخاً بأن أبويه يتمتعان بحرية مطلقة فى العمل والعطاء والبذل والمنع .

وينبغى التمييز بين حظوة الطفل ومجرد تعلقه بأبويه ، على الرغم من صعوبة وضع حد فاصل دقيق بين الأمرين ، وخاصة أنهما كثيراً ما يمتزجان فى عمل واحد . فكثيراً ما تتخذ الحظوة شكل العطايا والهبات . والمعلمة التى تقبل هدية من الزهر كدليل على محبة طفل لها لن يدهشها — إذا كانت خبيرة بطباع الأطفال — أن يعقب الإهداء طلب الطفل شيئاً معيناً مما لا يمنح عادة لزملائه وزميلاته ، أو انحراف فى السلوك يدفع إليه اعتقاد الطفل بأنه قد اشترى رضى معلمته مقدماً . وكثيراً ما يحدث أن يحاول أحد الأطفال ، عندما يقع فى بعض المتاعب ، أن يسترد مركزه الممتاز عند معلمته أو معلمه بتقديم الهدايا البسيطة ، أو بالإسراف فى تحسين سلوكه والمغالاة فى الانتباه إلى الدرس . وبعض الأطفال يستخدمون الهدايا لا من أجل التأثير فى المدرس بل فى سبيل الظهور أمام زملائهم بأنهم يتميزون عليهم بما لهم من صلة وثيقة بمدرسيهم ، وما يجمعهم وإياهم من تعاطف ومودة ،

أى بأنهم المختصون عندهم بالخطوة . وهذا لا يختلف كثيراً عن حالة الطفل الذى كان يعتقد أنه يستطيع الحصول على جو صاف كلما حلاله أن يصلى من أجله لأنه يرى أنه ممن اصطفتهم القدرة الإلهية وخصتهم بالخطوة والرعاية .

ويقصد بالخطوة أن تكون وسيلة لتجنب الغضب ، أو اكتساب الرضا ، أو لكلا الأمرين جميعاً . ولكن الطفل الذى يفقد الخطوة ، أو يثير الغضب بأفعاله ، قد يحاول التغلب على ذلك بالتردد بدلاً من التوسل والخضوع . وسنورد هنا حالة مفصلة تمثل ذلك ، وهى خلاصة دراسة لحالة ولد معين يبلغ من العمر ثلاث سنين .

كان هذا الولد معروفاً لدى أمه ومدرسته بأنه مشاكس جداً ، فقد كان يجد تسلية كبيرة فى الخروج على طاعة الكبار عند ما يحاولون السيطرة عليه والتحكم فى أعماله . وكان يبهجه أن يقوم بفعل كل ما يحظر عليه فعله من أمور ، ويسر كثيراً لنجاح حيله الصبيانية فى التغلب على وسائل الاحتياط والمنع التى كانت توضع فى سبيله . وكثيراً ما كان يباهى أمام أمه بما كان يثيره فى الفصل من متاعب ، إذ يقول مثلاً : « لقد كنت شديد المشاكسة هذا الصباح ، فقد أخرجتنى المعلمة أمام تلاميذ الفرقة ، ولكنى استطعت أن أعبث بها ، وأن أجعل رفاقي يضحكون . وعندئذ ضحكتم هى الأخرى وتركتنى أعود إلى مكاني قائلة إني من أشد الأطفال الذين صادفتهم « شقاوة » .

لا يهمننا كثيراً أن نعرف إذا كان الطفل قد التزم جادة الصدق تماماً فى روايته ، فإنها صحيحة فى مجملها . ولكن يهمننا أن نعرف أن هذا الاتجاه من جانب الطفل حيال المعلمة والدرسة خليق أن يحدد اتجاه نموه فى المستقبل . صحيح أنه قد أغفل بعض التفاصيل فى روايته فلم يذكر لنا مثلاً نوع المعاكسات التى قام بها ، ولكنه عرض على أبصارنا صورة واضحة المعالم لطفل صغير يتحدى شخصاً كبيراً فيجرده من بعض مظاهر قوته ويكتسب بذلك استحسان

المتفرجين . فهو يباهى بأن يكون « أشد الأطفال الذين صادقتهم المدرسة شقاوة » ، ويفضل ذلك على أن يكون مجرد طفل عادى حسن السلوك مثل باقى الأطفال . فمثله فى ذلك مثل شيطان (ملتون) الذى يفضل أن يحكم فى جهنم على أن يكون خادماً فى الجنة . وتلك هى « الخرافة » التى نسجها حول نفسه حيث يظهر فى صورة (أجاكس) وهو يتحدى الآلهة ، وقد حلت فى جسده روح « لا تخضع لسيطرة أحد » .

ولكن المعلمة لجأت إلى وسائلها الخاصة ، فأخذت تتحدث إليه ، أثناء درس الخط ، عن جهنم التى سوف يكتبون بلظاها كل الأطفال المشاكسين . وهذا وإن كان لا يثير مخاوف الطفل العادى ، إلا أن هذا الولد الذى كان يباهى بما كسأته ويدبر غيرها تأثر بما قالته المعلمة بشكل خاص . فهو يريد أن يعاود مشاكسته ليستمتع بما تتيحه له من مكانة ممتازة فى نظر أقرانه ، وهكذا يظل على إيمانه « بالخرافة » التى نسجها عن نفسه ، بيد أنه يحس فى الوقت نفسه أنه يضحي فى سبيل ذلك بالكثير ، لأنه أصبح لا يستطيع التفكير فى المشاكسة التى ألغىها دون أن تتراقص أمام عينيه نيران جهنم التى تملأ قلبه رعباً وفزعاً . ويتكرر هذا على مسمعه فى أيام الآحاد حيث يستمع فى دروس الدين إلى أحاديث العذاب الذى ينتظر الأولاد « الأشقياء » . صحيح أن دروس الآحاد لا تدور كلها حول موضوع النار فى الآخرة ، ولكن هذه النقطة فيها بالذات هى التى تترك فى نفس الولد أثراً بالغاً لأنها تتصل مباشرة بحالته الخاصة .

وبذلك يكون بين أيدينا طفل أصبحت نفسه ميداناً لصراع عقلى . فهو يبتغى أن يحتفظ بكل الميزات التى يتيحها له سلوكه الردى ، وبه أيضاً رغبة مكينة فى تجنب عذاب النار . ومثل هذا الصراع حقيقى بأن يتجلى فى سلوكه ورواه . كان الولد معتاداً أن يلبس دثاراً صوفياً قرمزي اللون عند ذهابه إلى المدرسة ، وكان فخوراً بهذا الدثار . وكما كانت دهشة أهله عندما فوجئوا ذات يوم برفضه

أن يرتديه كمادته . وعندما ألحوا عليه بالسؤال أخذ يبكي ثم كشف لهم عن السبب إذ قال : « إن الملعنة أبدت إعجابها الشديد به لأنه زاهى اللون ، قافى الحمرة — مثل النار . . . » .

كذلك حدث فى عدة ليال متعاقبة من ليالى الأحد أن الولد كان يستيقظ من نومه فى حالة رعب شديد ، فكان يصرخ قائلاً : « يا أمى ! اخرجينى من النار » ، وكان لا يستطيع أن يذكر الكثير من تفاصيل حلمه فإنها كانت — كما هو الشأن فى مثل هذه الحالات — تنسى أسرع من الروى العادية . فلم يكن يتذكر منها أكثر من أنه قد أساء السلوك ، وأن شخصاً ما قد قذف به إلى النار . فكان يستغيث بأمه لتنقذه منها .

فالحلم إذن يصور الصراع القائم فى نفس الطفل . وهو يحقق رغبة الولد فى أن يسيء السلوك ، وأن يكون أشد « شقاوة » من ذى قبل . وقد توصلنا إلى هذا الاستنتاج على أساس أن معاكساته السابقة لم تكن تقضى إلى غير التهديد والوعيد ، أما فى الحلم فهى تؤدى إلى العقاب نفسه . ولما كان الولد يرهب العقاب ويخشاه فإنه يستيقظ قبل انتهاء الحلم فكأنه قد توصل بذلك إلى طريقه تجنبه العقاب هى استغاثته بأمه وإفادها إياه .

والشبه قوى بين هذا الحلم وبين حادثة ذكر (رايدر هجارد) فى قصة « مارا الزنبقة » أنها وقعت (لدنجان) ملك الزولو . كان (دينجان) حاكماً شريعراً مرذول الخصال . وقد ألف أحد المبشرين الذين كانوا يعملون فى تلك البلاد وقتئذ أن يحذر الملك مغبة آثامه ، وسوء مصيره فى الآخرة ، حيث تكون النار مشوى كل من ينفخس فى الرذيلة مثله . وقد كان لإصرار المبشر على دعوته وجدّه فيها أثر عميق فى نفس الملك الذى ألغى نفسه أمام نفس المشكلة التى كانت تقلق بال الولد وتقض عليه مضجعه . فهو لم يكن ميالاً إلى تغيير أسلوب حياته ، ولكنه فى الوقت نفسه كان يخشى أن يحرق فى نار جهنم .

وفي ذات يوم أرسل الملك في طلب المبشر : فلما ذهب إليه وجده راكعاً في الكوخ الملكي بالقرب من كومة ضخمة من الخشب أعدت للحرق . وقد طلب الملك إلى المبشر أن يجلس بجانبه ، وأمر الخدم أن يشعلوا النار في كومة الخشب . وعندما بدأت النار تشتد ويتوهج لهيبها قال الملك : « هل تشبه النار التي حدثتني عنها هذه النار ؟ » فأجاب المبشر بأنها أشد حرارة وأقوى سعيراً . وعندئذ أمر الملك بإلقاء مزيد من الخشب في النار ثم أعاد نفس السؤال ، ولكن إجابة المبشر لم تتغير . وتكرر هذا الأمر مدة من الزمن حتى بدأ الشك يساور المبشر في أن الملك إنما يقصد الهزل والدعابة ، فتوقف عن الإجابة على أسئلته . وهنا كانت شدة النار قد بلغت أقصاها مما اضطر الملك والمبشر إلى الابتعاد بمقعديهما عن هذا الجحيم المستعر .

عندئذ أصدر الملك أمره إلى الجند المصطفين حوله بأن يتقدموا إلى النار فيطئوها بأقدامهم كي يطفئوها . فالتهمت النار أول من حاولوا ذلك ، وتبعهم آخرون وآخرون حتى أصبحت النار في النهاية كومة من الرماد المتوهج . وهنا التفت الملك نحو المبشر قائلاً : « ها قد أبصرت بعيني رأسك ما سوف أفعله إذا ما بعث بي إلهك إلى النار العظيمة التي حدثتني عنها ، إذ سوف أدعو جنودي وأمرهم بإطفائها على هذه الصورة » .

إن مما لا شك فيه أن وجه الشبه بين حاتى الولد والملك شديد الوضوح ، إذ يظهر في كليهما ، تعبير صريح عن الاعتقاد بأن أولئك الذين يطيعون الشخص ويحبونه سوف يحولون بينه وبين كل ما يهدد سلامته وأمنه . فالطفل يعتقد أن أمه تستطيع أن توفر له الأمن والحماية ، والملك المتبربر يؤمن بقدرة جيشه على ذلك . وفي كلتا الحالتين تسبق ذلك مقدمات معينة ، فأم الطفل قد قامت بالفعل بحمايته من أذى معلمته ، كما أن جيش الملك قد قام أيضاً بدفع عدوان جيرانه على مملكته .

ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن الولد أصبح في المدة الأخيرة يرفض أداء الصلاة . وقد يكون الدافع له إلى ذلك أن الصلاة تعني ابتهاله إلى الله أن يهديه سواء السبيل ، ويجعل منه « ولداً صالحاً » ، ولما كان الولد يؤمن بأن صلاته ذات أثر فعال فإنه قد أصبح غير ميل إلى النطق بهذا الدعاء خوفاً من استجابته . ولكنه يريد في نفس الوقت أن يتجنب لقاء الله ولذلك فإنه يتجاهل وجوده إطلاقاً . وهذا بالنسبة لطفل صغير يعنى القضاء عليه تماماً . فعندما كان يبصر أحاه الأكر جاثياً يصلى على ركبتيه ، فإنه كان يقول له دون أن يبارح فرائشه : « أنتوى أن تناجى الله ؟ لا تفعل ذلك . إنه رجل ردىء ، فهو يبعث بالأولاد إلى النار . » وعندما يتجاهل أخوه نصيحته ويستمر في صلاته فإنه يقول : « مادمت مصراً على الابتهال إليه فلن أصغى إلى ما تقول . إنك لو ناجيته لأدركك الموت ، فإنه هو الذى يميت الناس . فأنصح لك ألا تكلمه . » ثم يجذب الغطاء فوق رأسه حتى لا تصل صلاة أخيه إلى مسمعه .

وإذا أنعمنا النظر في أفعال الطفل ورواؤه وأقواله وجدناه يؤمن بشيء شبيه بالآتى : إنه يستطيع الاحتفاظ بمكانته في نظر نفسه ، ونظر رفاقه ، إذا ما استمر في أعمال « الشقاوة » ضد معلميه ومن يشبههم من الناس . وإذا أثارت فعالة غضب الله فإن في مقدوره التهرب منه بتجاهل وجوده ورفض الابتهال إليه . وإذا ما بلغت الأمور أسوأها فإن في وسع أمه أن تبسر له الطمأنينة والأمن — فهو إذن قد دبر خطة تمكنه من أن يحقق رغباته ، ويتجنب نتائجها في نفس الوقت . وهو قد قلب بذلك كل القيم الدينية رأساً على عقب . فإن الله تعالى — وهو الخير كله — قد أصبح في نظر الطفل « رجلاً رديئاً » لأنه يعاقب على « الشقاوة » . ورب معترض يقول أن هذه كلها أمور ليست أكثر من ظواهر صيانية ، وأن الزمن كفيف بإصلاحها ، ولكننا نستطيع الرد على ذلك بقولنا إن الحالات التى تمت دراستها في العيادات السيكولوجية تناقض هذا الرأى .

فالصراع المستعر في ذهن الطفل قد تم حله بصورة غير مرضية . وما دامت أنواع الصراع المبكرة ، وما تعالج به من حلول مؤقتة ، تنقلب إلى نماذج تتشكل وفقها كل المواقف التي تأتي بعد ذلك ، فإننا لا نستطيع أن نفترض أن أى صراع يحدث بعد ذلك قد يكون أقل شدة وخطراً ، أو أكثر سهولة في الحل والعلاج . فليس في الإمكان إذن أن تتجاهل ما لحواث السنين التكوينية الأولى من دلالات عميقة في حياة الفرد .

لقد أسهبنا في سرد تفاصيل هذه الحالة بالذات لأنها كاملة على غير المألوف . وهى لذلك لا تدلنا على مصدر الصراع فحسب ، بل وترشدنا أيضاً إلى الدور الذى تقوم به الرؤى والسلوك والتفسيرات التي يحاولها الطفل . وإن الإلمام التام بمثل هذه الحالات الكاملة هو وحده الذى يمكننا من إدراك دلالة العناصر المكونة لها . فلو أننا لم نعلم مثلاً أكثر من أن الطفل رفض فجأة أن يرتدى دثاره الأحمر ، لحاولنا الاكتفاء بتفسير ذلك بافتراض ظهور كراهية مفاجئة ضد ذلك الدثار ، دون أن نفكر في ضرورة استقصاء حقيقة الأمر . وربما ادعينا أن الدثار يجعله محطاً للأنظار ، أو أنه سمع بعض الناس يسخرون منه . ويحاول كل من يريد تفسير سلوك الأطفال بهذه الصورة أن يبرر رأيه بقوله : « إن تلك هى الأسباب التي تحملى على أن أفعل نفس ما فعله الطفل إذا ما أحاطت بي نفس الظروف » . ولكننا إن لم نعرف على وجه التحديد ماهية تلك الأسباب ، وأنها بالفعل تدفع الطفل إلى ما فعله فإننا إنما نبني آراءنا على افتراض أن عقلية الطفل لا تختلف عن عقلية الراشد وهو افتراض لا تؤيده الحقائق .

إننا لم نذكر حتى الآن شيئاً عن علاقة أحلام اليقظة الجمعية بالدين ، وهذا في الحقيقة أمر على أكبر جانب من الأهمية . فاعتناق فكرة واحدة عن الله من شأنها أن تربط الناس بعضهم ببعض برابط وثيق محكم ، وتجعل منهم هيئة دينية متماسكة ، أو أسرة روحية ذات عقيدة متحدة وكثير من شعائر العبادة

تؤكد هذا العنصر في الحياة الدينية . فصلاة الجماعة ، والصوم الجمعي والأعياد العامة ، كلها مظاهر حياة دينية واحدة .

وكما أن هناك مرحلة نمو للخيال العاطفي تظهر في أفق حياة كل فرد عندما يحس بالجمال ، ويستجيب للشكل واللون والصوت ، كذلك تمر في تاريخ كل دين عظيم فترات يولع الناس فيها بالتعبير عن شعورهم الديني في صور جمالية . فرى المهندسين والمصورين والنحاتين والخزافين والتجارين والحدايين وتجار الجواهر والنساجين وغيرهم من أرباب الحرف والصناعات المختلفة ينتجون روائع فنونهم في خدمة الدين ، بحيث أصبح الناس في الممالك الإسلامية والمسيحية على السواء يستطيعون المفاخرة بما عندهم من مبان دينية رائعة ، وينظرون إليها على أنها مظاهر للنمو الهندسي ، ودلائل على تفوق صناعاتهم وفنانيهم . كذلك نرى غير أولئك من يكرس مواهبه الأدبية والفنية في نشر مذهبه الديني ، وإضفاء قوة التأثير والروعة والجمال على العبادات العامة وقد يحاول كذلك الفلاسفة أن يميزوا بين « الجميل » و « الحقيقي » ، أى بين الخبرة « الجمالية » والخبرة « الأخلاقية » أو « العقلية » ، ولكن من المحتمل أن تكون الخبرة الدينية هي التي تقوم بربط سائر الخبرات بعضها ببعض ، فتجعل منها وحدة سامية .

لسنا إذن نرمى إلى الإقلال من أهمية الدين أو الفن عندما نقول إن حلم اليقظة يعد الطفل لكل من الخبرة الجمالية والخبرة الدينية على السواء . فأحلام يقظة الطفل التي تدور حول نفسه تعدد الإيمان بشخص يشبهه ولكنه يسمو عليه ، شخص سام يمثل ذاته التي لم ينلها التغير والتحول ، ويتحلى بكل الفضائل التي كان يمجدها في أبويه في أيام حياته الأولى . وبذلك يدرك هذا الكائن العظيم إدراكا تاما عندما يبلغ نموه الدرجة التي تتيح له ذلك لأنه يكون قد أدركه من قبل بصورة طفلية ساذجة . فكان ما يدركه الطفل صغيرا ليس هو الحقيقة التي سوف يصل إلى معرفتها عندما يكبر ، بل إنه القالب الذي سوف يدرك تلك

الحقيقة فيه ، لذلك لا ينبغي لنا إطلاقاً أن نتوقع أن نرى في أحلام يقظة الصغار تلك « الخبرة الدينية » التي يمر بها الكبار ، كما لا ينبغي أن نتوقع أن نكتشف روعة الصورة الفنية الكاملة من مجرد الخطوط المبدئية التي يخطها الفنان بقلم الفحم الأسود على قطعة جديدة من قماش الرسم ، أو عظمة التمثال الكامل بمجرد أن يبدأ النحات في خدش الرخام الأصم بإزميله . فالتطور والترقي آتيان لا ريب فيهما ، وهما إن سارا في ببطء وتدرج لا يظهران عفواً على غير نظام بل يرتبطان أوثق ارتباط بالخطوات التي تسبقهما . فإن الأفراد يسرون في نموهم وفق خطوط تتحدد إلى درجة كبيرة بالقوالب التي وضعت في سنواتهم التكوينية الأولى . ومن اليسير أن نتبين نوع هذه القوالب في أحلام اليقظة الساذجة .

الفصل الحادى عشر

خاتمة

حاولنا فى الفصول السابقة أن نربط أحلام اليقظة عند صغار الأطفال بمراحل النمو النفسى التى تتميز كل منها عن الأخرى تميزاً واضحاً ، بحيث تفصل بينها فترات انتقال واضحة ، والخاصية الرئيسية فى كل مرحلة من تلك المراحل هى وجود نوع سائد من الاهتمام ، وظهور إحدى الفرائز الرئيسية التى عددها مكدوجل ، فى فترة الطفولة المبكرة تتحكم غرائز التغذية فى السلوك ، وفى الطفولة المتأخرة تظهر غريزة السيطرة بشكل جلى واضح . أما فى الصبا فنلاحظ سيطرة الغريزة الاجتماعية . كذلك تقوى الغريزة الجنسية فى مرحلة المراهقة . وليس معنى ذلك بالطبع أن هذه الفرائز يقتصر ظهورها على هذه المراحل دون غيرها ، أو أنها تكون الوحيدة فيها .

ويرتبط النمو البيولوجى بالنمو السيكولوجى ارتباطاً وثيقاً ، وينبغى أن يظل كذلك دوماً . فالغريزة — كما نعرفها — هى « نزعة » للسلوك بصورة معينة . ولا تكون هذه الصورة من السلوك ممكنة إلا عن طريق الجسم الذى يكون نموه قد وصل إلى الدرجة التى تجعل مثل هذا السلوك ممكناً . فالسلوك الجنسى الناضج لا يكون ممكناً قبل حوالى السادسة عشرة عند الأوروبيين فى المتوسط ، على الرغم من أن الغريزة الجنسية تكون موجودة نشيطة قبل ذلك بوقت طويل ، ولكن الاهتمامات العاطفية لا تظهر فى أحلام اليقظة قبل المراهقة .

فأحلام يقظة الأطفال التى تظهر فى مختلف مستويات النمو تدل بوضوح على نشاط أنواع من الاهتمام قوية مسيطرة ترتبط بإحدى الفرائز الرئيسية التى عجزت عن الحصول على وسيلة ملائمة للاشباع فى محيط الحياة الواقعية . فهى لذلك تعتبر

من ناحية ، قدأ موجهأ إلى البيئة الاجتماعية والمادية على السواء حيث يتم نمو الطفل ، ومن ناحية أخرى تعبر عما يريد الطفل من بيئته ، وما يشتهي من فرص لتحقيق مطالبه . —

والتربية هى توجيه نمو الطفل نحو غايات مختلفة التحديد . ويرى بعض زعماء التربية فى العصر الحديث أن طريقة التربية ينبغي أن تكون تهيئة البيئة الصالحة لتيسير الفرص لأنواع النشاط التى تلائم كل مرحلة من مراحل نمو الطفل ، وحث الطفل على استغلال هذه الفرص فى المراحل التالية . ويختلف المربون فى آرائهم عن كيفية الوصول إلى ذلك الهدف ، ولكنهم مجمعون على أن لكل طفل حاجاته الخاصة التى قد تختلف فى كثير أو قليل عن المتوسط ، أن المدرسة ينبغي لذلك أن تكون بالشكل الذى يتيح للمدرس أن يعنى بحاجات الأطفال الفردية حق العناية ، ولن يكون ذلك ممكناً إلا إذا كان المعلم واسع الخبرة ، طويل المران ، وكانت الفصول قليلة العدد .

ويستطيع هؤلاء الذين لا يزالون على قيد الحياة من قدامى المدرسين بانجلترا أن يذكروا ذلك الوقت الذى كانت فيه الفصول فى المدارس الانجليزية تضم سبعين تلميذاً ، أو ما يزيد على ذلك فى بعض الأحيان . فكان التعليم الذى يقدم لتلاميذ تلك الفصول هو بطبيعة الحال العلم الممكن فى مثل تلك الأحوال . ولم يكن عديم الجدوى بتاتاً فان كثيراً من الأفراد الذين تخرجوا فى تلك المدارس ، وأصبحوا فيما بعد من خيرة المواطنين ، شهدوا بأنهم تعلموا من العمل الجمعى فى تلك الفصول كثيراً مما أفادهم فى حياتهم العملية . ولكنه كان كما ذكرنا تعليماً من نوع معين . فقد كان على المعلم أن يفيد سبعين أو ثمانين تلميذاً فى وقت واحد ، فلم يكن يستطيع قط أن يفكر فى بذل العناية الفردية إذ كان ينبغي عليه أن يوجه همه إلى الفصل كوحدة كاملة ، فيكون مثل جندى التمرين فى الجيش يعامل الفصل كأنه فرقة من الجنود تحت التمرين ، يعلمهم القراءة والكتابة

والهجاء وقواعد اللغة والتاريخ والجغرافيا وغيرها على شكل تمرينات صارمة ، فيضع لهم قوائم بأسماء الأنهار والخلجان والرموس والجبال ثم يطلب منهم أن يكرروا قراءتها المرة تلو المرة بالطريقة الجمعية حتى يستظهروها ، وبنفس الطريقة يجعلهم يحفظون التواريخ والتعاريف اللغوية وغيرها . وهكذا ينتهى الأمر بالتلميذ إلى أن يتكدر في ذاكرته محصول ضخم من المعلومات التى لا قيمة لها فى الحقيقة كما كان يستطيع القراءة وإتقان الخط والهجاء وتلك أمور لها بعض القيمة بلا شك ، ولكنها لم تكن مستطاعة إلا لأن المدرسين عرفوا كيف يستغلون الظروف السيئة الميسورة لهم وقتئذ أقصى استغلال .

أما النوفلم يكن موضع الاهتمام والعناية ، لأن الناس كانوا يعتقدون أن تقدم الطفل فى السن يكفى لتقوية جسمه ، ويتمكنه من أداء الأعمال التى تتطلب مزيداً من ذكائه . ولهذا يتوقعون منه أن يكتب كلمات صعبة ، ويقرأ كتباً أكثر تعقيداً ، ويجمع مقادير حسابية كبيرة . وكانت عملية ضبط التلاميذ وتعويدهم النظام من أشق الأمور على المدرس ، فكان يوقع على الكبار منهم عقوبات أشد صرامة من التى يوقعها على الصغار .

لم يكن هناك إذن اعتراف بوجود نزعات داخلية تكافح فى سبيل الإشباع . إذ لم يكن يتاح للتلاميذ فى الفصول التى أشرنا إليها فرص للتعبير الذاتى أكثر مما يتاح للجندي فى حفلات الاستعراض . فلم يكن التلاميذ يحصلون على تلك الفرص إلا خارج المدرسة . ومن ثم كثرت حوادث التخريب وأعمال العنف والأذى التى كان يقوم بها الصغار ، مما جعل نظار المدارس يتلقون سيلاً لا ينقطع من شكاوى السكان وأصحاب المتاجر فى المنطقة المجاورة للمدرسة . كذلك كان القتال بين عصابات الأطفال فى الشوارع والطرق من الأمور المألوفة .

جميع تلك الحالات من مظاهر السيطرة العنيفة المنحرفة تشير إلى أن حاجات الطفل كان ينقصها الإشباع بشكل خطير . فالرجل الذى يلتهم الطعام

في شراهة الذئب لا يرجع ذلك منه إلى سوء الأدب بقدر ما يرجع إلى الجوع ، إذ ليس من المعقول أن نتوقع ممن استبد به الجوع أن يراعى آداب المائدة . كذلك الطفل الذي يكون حب السيطرة عنده قوياً مكيناً يدفعه إلى العنف والمشاكسة ليس إلا طفلاً عاذياً قد حرم من إشباع نزاعاته الغريزية . فسلوك (توم سوير) في طرقات القرية مثلاً لم يكن إلا نتيجة حتمية لثريته في البيت والمدرسة ، فإنه عند ما وجد نفسه محروماً من القرص الضرورية لإشباع حاجاته النفسية وجد نفسه مضطراً بسبب ذكائه المتوقد ونشاطه وحيويته إلى أن يخلق تلك القرص لنفسه . أما سواه من الأطفال الذين كان ينقصهم ذكاؤه وجرأته فكانوا يكتفون بالاستمتاع والتفرج على ما يقوم به من أعمال الشر والعدوان التي كانت تبعث في نفوسهم التهمة والجسد .

والمشكلة التربوية لا تحل بشكل حاسم مرض من مجرد الاختبار السطحي لأحلام اليقظة . فقد نقول إن الطفل الذي يبتدع لنفسه « رقصاء خيال » إنما يعبر عن حاجته إلى صحبة سواه من الأطفال ، وإنه لذلك سوف يحصل على قسط أكبر من السعادة لو أدخل إحدى مدارس الحضانة . ولكن المسألة أكثر تعقيداً من ذلك . فابتداء رفيق خيالي يشير إلى وجود شعور بعدم الارتياح إلى أشخاص حقيقيين في بيئة الطفل ، وإلى أن ثقة الطفل في والديه قد تزعزعت . وقد نرى أن من مصلحة الطفل أن نبعث به خارج البيت حيث يستطيع العثور على الرفيق الذي ينشده ، ولكن ما الذي ينبغي عمله في داخل البيت نفسه ؟ إن تركيز الاهتمام في جانب واحد من جوانب مشكلة معقدة لا يقضى إلى حلها حلاً كاملاً .

ونستطيع أن نلاحظ في كثير مما كتب عن التربية ميلاً ظاهراً من الكتاب نحو أحد الطرفين ، فقد يكون ميلاً قوياً إما إلى الفكرة القائلة بأن التربية هي تلقين المعلومات ، وإما إلى الفكرة التي تنادى باتخاذ النمو محوراً أساسياً للتربية .

ومقياس النجاح في نظر أنصار الرأي الأول هو قدرة التلاميذ على النجاح في الامتحانات ، أو عبارة أخرى درجة حفظهم لما تعلموه . بينما يميل مؤيدو الرأي الثاني إلى أن يقولوا : « لا يعنيننا كثيراً ما يعرفه الطفل من معلومات . ولكننا نهتم الاهتمام كله بنوع الفرد الذي سيكونه » . وقد يضيفون إلى ذلك إيمانهم بضرورة الاهتمام بتكوين الخلق .

وقليل من المربين اليوم من يعترف بإيمانه التام بأحد هذين المذهبين المتطرفين . ولكن أغلبهم يكشف في إدارته للمدارس أو وضعه لخطط الدراسة عن تشيع ظاهر لواحد منها أكثر من الآخر . فمنهم من يعتقد أن المحور الأول للعمل المدرسي هو الدروس والمحاضرات والمواد الدراسية ، ومنهم من يقول بأن النشاط بأنواعه المختلفة ينبغي أن يكون الأساس الذي يفضل على سواه . وكثيراً ما يكون عدم تحديد نوع التربية الذي تؤمن به سبباً في تعريض مذهبنا في التربية إلى النقد والانتقاص من قيمته .

يبد أن العالم نفسه قد تغير أثناء تلك السنوات الطويلة التي انقضت في الجدل والمناظرة الجوفاء . فلنستطيع الآن أن نهمل جانب الشخصية في فريق من أفراد الأمة بحجة أنهم يتقنون من المعلومات ما يكفي لنجاحهم فيما وكل إليهم به من أعمال . كما أننا لا نستطيع أن نتجاهل قيمة المعلومات وكميتها إطلاقاً . أي أننا أصبحنا لا نقدر على شطر نظمنا التربوية شطرين متمايزين نختص بكل منهما فريقاً من الناس دون الفريق الآخر ، فإن ظروف الحياة تفرض علينا الآن اتجاهات أخرى يتخلص في أن الفرد الذي يعيش في العالم الحديث يحتاج إلى قدر كبير من العلم والقدرة على تطبيقه تطبيقاً ناجحاً مفيداً . كما ينبغي له أن يبلغ من النمو ما يكفي لأن يعمل منه أفضل شخص ممكن في حدود قدراته .

ولذلك فإن مدرسة المستقبل سوف تهتم بتزويد التلاميذ بالمعلومات ، وبتأكيد عملية التعلم أكثر من عملية التعليم . كما أنها سوف تعنى بطرق التربية

الحديثة مثل طريقة المشروعات وطريقة دالتون وغيرها من الطرق التي تتيح للتلاميذ فرصاً لإشباع حاجاتهم النفسية ، وبالتالي لتحقيق نموهم الكامل . وسوف نحاول أن نهيه لهم بيئة تيسر للنشاط الفردي والجمعي أن يكون شاملاً لجميع حاجات التلميذ دون استثناء . سيكون في مدرسة المستقبل إذن دروس ومحاضرات ومعارض ووسائل إيضاح ومعامل وفترات دراسية ومناقشات وفترات دراسات خاصة ورحلات ، يشرف عليها جميعاً هيئة من المدرسين ذوي المؤهلات الصالحة ، القادرين على تفهم نمو الأطفال وحسن توجيههم .

والحك الأخير لنجاح أى نظام تربوى أو فشله هو النوع الذى ينتجه من رجال ونساء . فقد رأينا فى إنجلترا مثلاً كيف استطاع الشعب فى فترة لا تتجاوز جيلاً واحداً أن يتحمل بجلد وشجاعة حربين ضروسين ، وهبوطاً اقتصادياً عنيقاً ، وسنوات من الحرمان القاسى ، ولدينا من الأسباب ما يكفى للاعتقاد بأن قليلاً من الناس فى العالم من كان فى وسعه أن يواجه تحدى الأحداث لكيانه بهذا الصبر والاحتمال دون أن تهبط روحه المعنوية ويصيبه اليأس القتال . وما لا شك فيه أن المدرسة كان لها الفضل الكبير فى كل ذلك ، وإذ لم يكن من المستطاع تحديد مدى هذا الدور الذى لعبته المدرسة لأن أحداً حتى الآن لم يهتم ببحث وقياس العلاقة بين المدرسة والروح المعنوية فى الأمة بحثاً مجرداً عن الهوى والتحيز .

غير أنه على الرغم من أن الطريقة التى يجابه بها الناس الأحداث الطارئة تعتبر مقياساً نهائياً لتربيتهم ، إلا أنها مع ذلك ليست المقياس الوحيد . فإن مجابهة الظروف العادية فى الحياة لا تقل عن ذلك فى أهميتها . ولكن الصورة هنا مختلفة . فقد دلت وسائل التشخيص الحديثة على أن انتشار التعاسة والعجز الناتجين من الصراع العقلى الذى تثيره مشاكل الحياة العادية يرجع أصلاً إلى التربية المبكرة فى كل من البيت والمدرسة . فالتعاسة التى يحس بها المرء فى بيته أو مكان عمله ،

وإخفاق الفرد في تكيف نفسه لسواه من الناس ، والشعور بالنقص والحرمان ،
والميل إلى التمرد الذي لا معنى له ولا خير يرجى من ورائه ، هي مظاهر كثيرة
الانتشار . ولا شك أن القضاء عليها أو تخفيفها يزيد في مقدار سعادة الأفراد
وكفاءتهم في عملهم . بيد أن الوقاية خير من العلاج وتخفيف الآلام . وخير وسيلة
للوقاية هي التربية الصحيحة التي تعرف كيف تشبع جميع حاجات الطفل النامي
تعاليم الإشباع .

[تم طبع كتاب « أحلام اليقظة » في مطبعة لجنة
البيان العربي بالقاهرة في يوم الاثنين ٢٥ رمضان
سنة ١٣٦٩ الموافق (١٠ يولية سنة ١٩٥٠) . والحمد لله
اولاً وآخراً]

مستند محفوظ للمكتبة

المدير الفني للمطبعة

مراجع —

(أ) باللغة العربية

- ١ — التحليل النفسى تأليف جورج هـ . جرین ترجمة ابراهيم حافظ
- ٢ — أسس الصحة النفسية للدكتور عبد العزيز القوصى
- ٣ — مبادئ والتحليل النفسى وتطبيقاته للأستاذ محمد فؤاد جلال
- ٤ — الأمراض النفسية للدكتور أحمد عزت راجح
- ٥ — نفسية المراهق » رياض عسكر
- ٦ — مبادئ التربية س . هـ . چاكسون واسماعيل القباني
- ٧ — الطفل فى المدرسة الابتدائية تأليف سوزان أيزاكس وترجمة محمد مختار متولى
ومحمد على مصطفى ومحمد مظهر سعيد

(ب) باللغة الإنجليزية

- The psychology of Daydreams, by J. Varendonck.
(London : Allen & Unwin) .
- Jung's "The psychology of the Unconscious" .
(is a study of the fantasies of a young woman).
- Children as Artists, by R. R. Tomlinson.
(London & New York : the King penguin Books) .
- Child Art' by W. Viola .
(London : The University of London press, Limited).
- The Psychological Significance of some Children's Comic
Papers, by George H. Green.
(The Egyptian Journal of psychology).
- An Outline of Abnormal Psychology,
by William Mc. Dougall (Methuen & Co.)
- Imagination in early Childhood,
(by Ruth Griffiths) .

المفردات

صفحة			
٣	مقدمة .	:	الفصل الأول
١٨	حلم اليقظة .	:	الفصل الثانى
٥٠	رققاء الخيال .	:	الفصل الثالث
٧٨	حلم اليقظة والعاطفة .	:	الفصل الرابع
٩٣	حلم اليقظة والجماعة .	:	الفصل الخامس
١٢١	الخيال العاطفى .	:	الفصل السادس
١٣٨	مراحل النمو .	:	الفصل السابع
١٥٥	حلم اليقظة والأدب .	:	الفصل الثامن
١٧٩	حلم اليقظة والفن .	:	الفصل التاسع
٢٠٣	حلم اليقظة ودين الطفل	:	الفصل العاشر
٢٢٤	خاتمة .	:	الفصل الحادى عشر

قائمة مطبوعات اللجنة

- ١ — يسألونك ... : الأستاذ عباس محمود العقاد ... ٢٥
- ٢ — أثر الشرق في الغرب ... : الدكتور فؤاد حسانين ... ١٥
- ٣ — قصة الكهرباء واللاسلكي : الأستاذ محمد عاطف البرقوقي ... ٢٥
- ٤ — مشكلاتنا الاجتماعية ... : الأستاذ محمد عطيه الإبراشي ... ٢٠
- ٥ — الحبشة ... : حسن محمد جوهر ... ٢٠
- ٦ — الغزل عند العرب ... : حسان أبو رحاب ... ٢٥
- ٧ — عائشة أم المؤمنين ... : الأنسة زاهية مصطفى قدورة ... ٢٥
- ٨ — الفلسفة القرآنية ... : الأستاذ عباس محمود العقاد ... ٣٠
- ٩ — أحاديث الصباح ... : الشيخين محمود شلتوت ومحمد الداني ... ١٥
- ١٠ — أبطال الشرق ... : الأستاذ محمد عطيه الإبراشي ... ١٥
- ١١ — أبو المتاهية ... : محمد أحمد برانق ... ١٥
- ١٢ — الراهبة المتوحشة ... : دكتور عباس إبراهيم حسن ... ١٠
- ١٣ — المهد الذهبي ... : الأستاذ وهبي اسماعيل حقي ... ١٠
- ١٤ — صرخة في واد ... : الأستاذ محمود غنيم ... ٣٠
- ١٥ — الصحافة والصحف ... : المرحوم الأستاذ عبد الله حسين ... ٢٥
- ١٦ — ولّاده ... : الأستاذ علي عبد العظيم ... ١٥
- ١٧ — اللعب والعمل ... : دكتور علي عبد الواحد وافي ... ٨
- ١٨ -- من كل نبع قطرة ... : الأستاذ حسن محمد جوهر ... ٦
- ١٩ — عبد الله بن قيس الراقيات ... : الأستاذ علي النجدي ناصف ... ١٥
- ٢٠ — الاستعمار الفرنسي ... : الأستاذ أحمد رمزي ... ١٥
- ٢١ — الوزراء العباسيون ... : محمد أحمد برانق ... ٢٠
- ٢٢ — سحر المطور ... : أحمد علي الشحات ... ١٢

- ٢٣ - أكسير الحياة ... : الدكتور محمود محمد سلامة ... ٢٠
- ٢٤ - دراسات في علم النفس الأدبي : الأستاذ حامد عبد القادر ... ٣٠
- ٢٥ - التيارات السياسية في حوض البحر الأبيض :
الأستاذ محمد رفعت أحمد بك ٥٠
- ٢٦ - مسلم بن الوليد ... : الأستاذ حسن علوان ... ٢٥
- ٢٧ - الإسلام والديمقراطية ... : معالي محمد علي علوبة باشا ... ٥
- ٢٨ - فقه اللغة ... : دكتور علي عبد الواحد وافي ٥٠
- ٢٩ - علم اللغة ... : دكتور علي عبد الواحد وافي ٥/٠
- ٣٠ - كيمياء المعادن ... : دكتور محمود يوسف الشواربي ١٠٠
- ٣١ - طب الطبيعة ... : الأستاذ محمد عاطف البرقوقي
- ٣٢ - أحلام اليقظة ... : تأليف دكتور ج . هـ . جرير
ترجمة إبراهيم حافظ ...
ومراجعة زكي المهندس بك ...
-